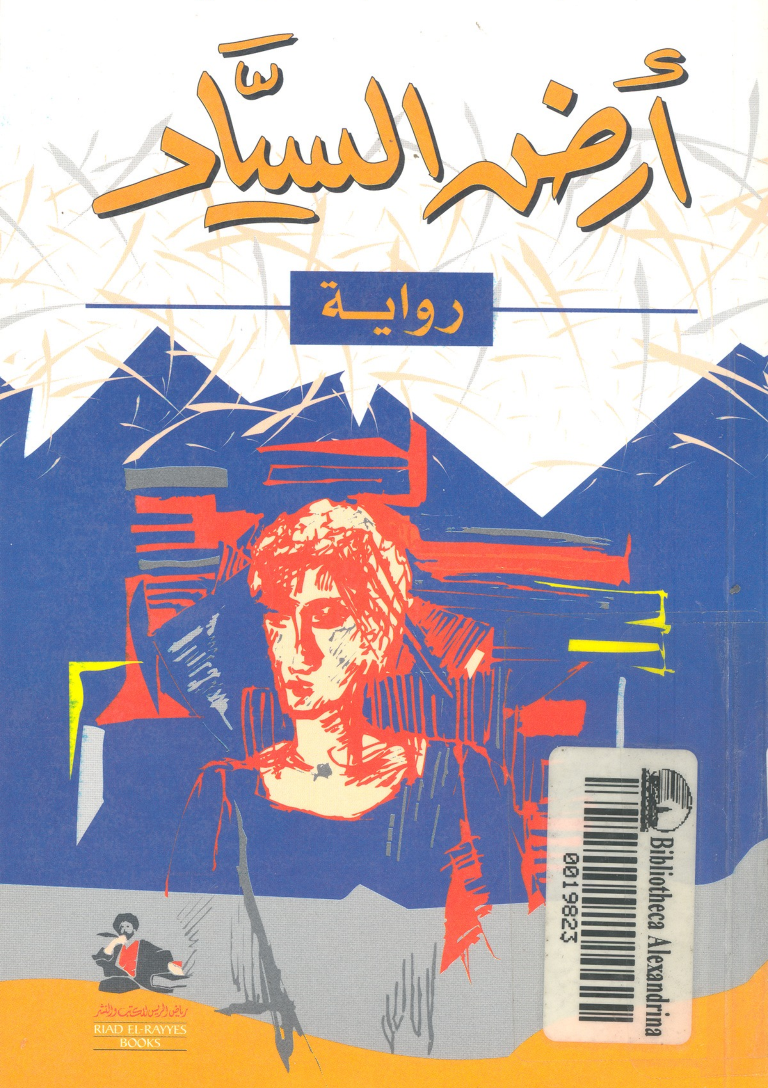
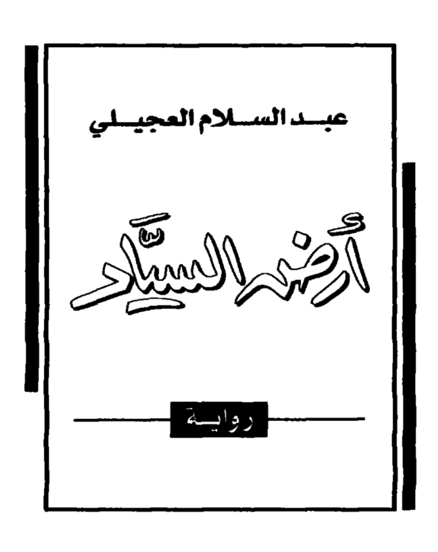
عبد السلام العجيلي

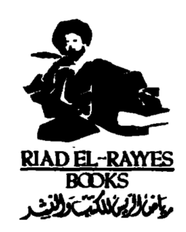
أرض السياد

رواية



أرض السواد


عبد السلام العجيلي
أرض السياد
رواية


RIAD EL-RAYYES
BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر

LAND OF THE MASTERS

A NOVEL

BY

ABDUL SALAM AL-UJAYLI

First Published in 1998

LEBANON - BEIRUT

British Library Cataloguing in Publication Data available

ISBN 1 85513 226 5

تصميم الغلاف: محمد حمادة

الطبعة الأولى: أيلول/ سبتمبر ١٩٩٨

المحتويات

تنبيه:

الأحداث والأشخاص في هذه الرواية من نسج الخيال،
وكل تشابه بينها وبين الواقع هو مجرّد مصادفة.

ع. ع.

السِيّاد، بكسر السين وتشديد الياء، جمع غير فصيح لكلمة سيّد، وهي في عامية وادي الفرات تعني السادة، ويسمّى بها أبناء أسر تعود بنسبها إلى فاطمة الزهراء وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما، ويحمل الناس لها في هذا الوادي وما حوله اعتبارات تقدير بسبب هذه النسبة.



الفصل الأول



- ١ -

السيارة البولمان الكبيرة، وقد خلفت مفرق النَّبْك وراءها، تركض بركابها في طمأنينة، برتابة سرعتها المعهودة، في طريقها إلى حمص وحماه ثم حلب. المكيّف يمتص من أشعة الشمس حرارتها في داخل السيارة ويبقى للراكبين منها الضياء الذي يغمر السهول الجرداء الممتدة على مدى البصر إلى اليمين، حيث كان أنور في مقعده بجوار النافذة. المسجلة تصدح بأغاني فيروز في علو غير جارح، والمسافرون بين غافٍ في مقعده ومتحدث إلى جاره بهدوء كأنه لا يريد أن يشوّش على الصوت البالغ النقاء المنادي يا مرسال المراسيل. رفع أنور بصره عن صفحة المجلة التي كانت في يده بعد أن فطن إلى أنه منذ دقائق عديدة لم يكن يفهم شيئاً مما يتابعه نظره من كلمات سطورها. وفطن كذلك إلى أن شفتيه منفرجتان بابتسامة خفيفة، في حين أن الموضوع الذي بدأ قراءته في تلك السطور كان مأساوياً. كان طبيعياً أن يبتسم، ذلك لأن ذهنه الذي انقطع عن متابعة ما يقرؤه كان منصرفاً إلى سميرة، وإلى لقائه الأخير بها تحت السنديانة العتيقة في الباحة الخلفية لبناء الكلية.

لقاء؟ الأصح أن يسميه أنور وداعاً. إلا أن كلمة الوداع تحمل في ثنايا حروفها معنى الحزن والأسى، وما كان أنور في لقائه الأخير لسميرة قد أحس بشيء من ذلك المعنى، وهو واثق من أن سميرة لم تحس بشيء منه كذلك. كان في انتظارها، في هذه المرة مثل كل مرة، تحت السنديانة على المقعد الذي شققت الأيام أصابعه الخشبية وأحالت الريح والأمطار دهانه الأخضر بنياً في بعض الأماكن وأسود في أماكن أخرى. وأبصرها مقبلة إليه كما يحب أن يراها: مشيقة القد أنيقة الخطوة تعلو شفيتها الرقيقتين ابتسامة هانئة، وتلتمع في عينيها العسليتين ابتسامة أخرى خيّل إليه أن ظل الشجرة التي كان ينتظرها تحتها قد أضاء بها. قالت له وهي تمدّ إليه كفها اليمنى، بينما احتضنت باليسرى مجموعة من الكتب:

ـ تأخرت عليك. الأمر لم يكن بيدي... لم يطلق الأستاذ المساعد سراحنا إلا في هذه اللحظة.

جرها إلى المقعد بجانبه، محتضناً أصابعها الدقيقة بكفيه الاثنتين غير حاسب حساباً لأنظار الطلاب الذين أخذت بوابة الكلية تقذف بهم إلى ممرات الحديقة وراء سميرة وقال:

ـ أعرف، ولا ألومك. اجلسي إلى جانبي. عندي كلام كثير أقوله لك.

هتفت كالمزغردة: صحيح؟ أشتهي أن تقول لي مرة كلاماً كثيراً. على الدوام أحس بأني وحدي التي تتكلم بينما تظل أنت أمامي كالمشدوه، تفتح فمك ولا تنطق.

قال هو: ذكرتني بحكاية... اسمعيها مني.

عندما بلغ أنور من تذكره هذه النقطة تناهى إليه صوت جاره، في

مقعد السيارة إلى جانبه، يقول له ويده على المجلة المبسوطة على ركبتيه:

ـ العفو. لا أراك تقرأ. هل تسمح لي بها؟

تخلى أنور لجاره عن المجلة، من دون أن يرفق تخليه عنها بكلمة، وقد زادت ابتسامته اتساعاً. لم يكن في الواقع يبتسم لهذا الجار الذي كان في متوسط العمر، أشيب الشاربين والفودين، أنيق الملبس، بنظارتين دقيقتي الإطار. كانت ابتسامته للضحكة التي ما زالت ترن في أذنه، ضحكة سميرة، تعقيباً على الحكاية التي رواها لها. قالت له:

ـ هكذا إذن! تتهمني منذ الآن بالثرثرة ونحن لا نزال خطيبين... ماذا ستقول عندما نصبح زوجاً وزوجة؟!

ووقف أنور، في متابعته لما دار بينه وبين فتاته، عند هذا. إذ أخذت تتدافع إلى خاطره صور وكلمات ونظرات تبادلها وسميرة، متداخلة فيما بينها ومخلّفة جواً سديمياً أحسَّ ببرد غبطته يفيض على كيانه. غمره شعور بالسعادة يتضارب ومعرفته بأن نحواً من ستمائة كيلومتر من مسافات الطرق وأياماً كثيرة، بل لعلها أسابيع وشهور، ستبعده عنها. ولكن ما بينه وبين سميرة أقوى من أن تضعف حضوره في نفسه أبعاد المسافة والزمن. هكذا كان شعوره وكانت ثقته. أليست هي الآن حاضرة معه، تحتضن كفاه أصابعها اللدنة الدقيقة ويكاد يحس بأنفاسها تلفح وجهه، ندية دافئة كشأنها لما مالت برأسها عليه وهو يقص عليها تلك الحكاية تحت السنديانة العتيقة في الباحة وراء بناء الكلية؟!

والتفت إلى يساره بعينيه اللتين كاد يعشيهما طول نظره إلى السهول المتوهجة بضياء الشمس، وكأنه في التفاتته كان يستيقظ

من حلم. لم تكن سميرة إلى جانبه، بل كان جار المقعد المهذب الذي قطع عليه تصوراته الهائئة بقوله، وهو يعيد إليه المجلة:

ـ شكراً. أخشى من أني حرمتك القراءة.

فردّ قائلاً: إذا وجدت فيها ما يهمك فلك أن تحتفظ بها. لا يزال الطريق أمامنا طويلاً على ما أظن.

قال الجار: في أحد أسفاري تناول الرجل الذي كان إلى جانبي كتاباً كنت أحمله ليقرأ عنوانه، ولم يعده إليّ إلاّ حين بلغنا غاية سفرنا. لا أريد أن أتصرف تصرف ذلك الرجل. أنت طالب جامعة ولا شك.

أجاب أنور: ودّعت الجامعة منذ فترة قريبة. تخرجت منها مهندساً زراعياً... وأنا متجه إلى مقر عملي الذي أبدأ بمباشرته منذ الغد، في الشمال.

قال الرجل، بلهجة من يرحب بضيف على عتبة داره: أهلاً بك في الشمال. ستعمل في مزارع الدولة ومؤسساتها على الفرات بلا شك، وستتوقف في حلب طبعاً.

قال أنور: نعم. سأقضي في حلب ليلة واحدة. الأستاذ حلبي فيما أظن...

قال الرجل: اسمي شكيب... شكيب مجد الدين. وأنا محام، محام قديم. ليست هذه أول زيارة لك على كل حال لحلب.

قال أنور معرّفاً بنفسه بدوره: أنا أنور عرفان. أما عن حلب، فقد أتيت إليها مرة واحدة في رحلة جامعية. أظنني سأتعرّف عليها جيداً في الأيام المقبلة.

قال الرجل، المحامي الأستاذ شكيب: بلا شك. إبدأ تعرّفك بمكتبي

الذي سأدلك عليه لتزورني فيه هذا المساء ونتناول معاً فنجان قهوة. ما قولك؟

تردد أنور بعض الشيء قبل أن يجيب قائلاً: هذا لطف منك. عليّ أن أزور منزل صديق لوالدي وأسلمه رسالة له أحملها في جيبي. ولا أدري ماذا تأخذ من وقتي هذه الزيارة.

اتسعت ابتسامة المحامي وهو يقول: فنجان قهوة لن يأخذ من وقتك كثيراً. عند وصولنا أريك موقع مكتبي، فهو غير بعيد عن موقف هذا الباص الذي نركبه. اتفقنا إذن!

لم يجد الفتى جواباً على هذه الدعوة الملحة إلا كلمات شكر غمغم بها في حرج راح يستره في التظاهر بالعودة إلى قراءة المجلة، مثبتاً نظره على الصفحة نفسها التي استعصت عليه قراءتها وهو يستعيد ذكريات لقائه الأخير لسميرة... الذكريات التي قطعها عليه جاره المحامي الأنيق المهذب، والكريم.

- ٢ -

من أنور إلى سميرة

سميرة، عزيزتي:

تأخرت عليك بهذه الرسالة، أليس كذلك؟ أشعر بأني تأخرت لأني أود أن أرد بها على سؤال كنت ألقيته عليّ قبل أن نفترق. لم أجبك وقتها على ذلك السؤال. لهذا أعود إلى الكلام بعد يوم وليلة... زمن طويل للإجابة على سؤال بسيط. ولكن ما كان ممكناً لي أن أرد عليك قبل الآن. هل تعذرينني؟

أنت تضحكين. أسمع رنين قهقهتك البلوري وأنا على بعد أربعمائة كيلومتر منك. ليست أربعمائة، بل ثلاثمائة وخمسون. أما لعلها

ثلاثمائة وخمسة وثلاثون كليومتراً هي التي تفصل بين حلب ودمشق؟... بين هذا الفندق وبناء الكلية التي تقرأين في أحد مماشيها هذه السطور. لا يهم. المهم أني سأحدثك عن أشياء كثيرة قبل الجواب الذي تنتظرينه مني.

اسمحي لي بأن أؤجل ذلك الجواب لأقول لك شيئاً عن فندقي الذي أكتب لك في صالونه هذه الكلمات. لا، ليس عن الفندق بالذات، بل عمّن أوصلني إليه. إنه جاري في مقعد سيارة البولمان. ما أن تبادلنا المعرفة في أول الطريق حتى دلّني على مكتبه القريب من موقف السيارة التي أوصلتنا، ولما علم بأني لا أحمل عنوان فندق معين تطوّع فرافقني إلى فندق قريب من مكتبه أيضاً وأوصى مديره بي. لم يتركني إلا بعد أن وعدته بأن أمرّ عليه في مكتبه في التاسعة ليلاً لأشرب معه فنجان قهوة كما قال.

أنا الآن عائد من مكتبه، من مكتب المحامي شكيب مجد الدين، فهذا هو اسمه. قبل أن ألبّي دعوته كان عليّ أن أحمل رسالة الوالد إلى صديقه الحاج نعمان. لم يكن العثور على منزل الحاج صعباً حتى على جاهل بأحياء حلب وشوارعها مثلي. ولكن الحاج نفسه لم يكن في منزله، ولا في كل المدينة. استقبلتني زوجته بلطف زائد وأخبرتني بأنه غائب منذ أسابيع، يتنقل بين طوكيو في اليابان وبين مدن أوروبا الصناعية التي تتوزع فيها أعماله. الصحيح أني فوجئت بهذه الزيارة لمنزل الحاج نعمان. كنت أتصور صديق والدي القديم تاجراً ثرياً من الطراز العتيق، يرخي لحيته ويدير بين أصابعه مسبحة طويلة، وربما يكون مرتدياً الثياب البلدية، وأتصور أن زوجته امرأة من طرازه، متحجبة لا تكلم الغرباء إلا من وراء الباب. كان الأمر غير ذلك. لقد ألحت عليّ السيدة بالدخول، فليس من المعقول

حسب ما قالته أن يكتفي ابن شاكر بك، صديق زوجها الحميم، بإلقاء الرسالة ويذهب دون أن يتناول فنجان قهوة في منزل صديق أبيه الأعز! ما أكرم هؤلاء الناس وألطف طباعهم!

الكلام يجر الكلام. لم يتوقف الأمر عند فنجان قهوة. ألحت عليّ تلك السيدة المضيافة، السيدة شاهناز، بأن أقبل دعوتها إلى الغداء في اليوم المقبل. قالت إن ابنها ربيع الذي سيعود غداً من طرطوس سيغتم إذا عرف أني دخلت بيت أبيه ولم أتناول فيه لقمة. وقالت إني سأسرّ حتماً بمعرفته، فهو من عمري وهي تقدّر أن طباعه تشبه طباعي. بديهي أني اعتذرت عن عدم قبول الدعوة، فأنا مسافر غداً في الصباح. في هذه الأثناء دخلت البهو الذي استقبلتني فيه السيدة شاهناز، ابنتها. فتاة من عمرك يا عزيزتي، أو أنها أكبر عمراً منك بقليل. عليّ أن أعترف بأنها جميلة، إلا أنها ليست بجمالك. كما إني لا أظن أن لها جزءاً ضئيلاً من جاذبيتك. الصحيح، ما صدّقت أن السيدة أمها، فما كان مظهر الأم يوحي بأن لها بنتاً في هذه السن. انضمت الفتاة إلى دعوة أمها لي، ولكن في غير حماس. على أني ما كنت لأقبل الدعوة حتى لو كان حماس الفتاة مثل حماس الأم. عليّ أن أكون قبل مغيب الشمس غداً في مقر عملي في مشروع الاستصلاح.

هل قلت لك إن المحامي شكيب مجد الدين دعاني هو أيضاً إلى تناول الطعام ظهر غد، وفي منزله؟ ألحّ في دعوته، ولكنه كان أكثر تفهماً من السيدة شاهناز لعذري في وجوب السفر. على أنه انتزع مني وعداً بقبول دعوته في مروري المقبل بحلب، فمن المنتظر أن يكثر ترددي على هذه المدينة الكبيرة والمهمة، في طريقي إلى دمشق أو لضرورات العمل. أفكر الآن بالمشتريات التي عليّ أن

أتداركها من السوق هنا غداً. فحقيبتي فارغة كما كنت أخبرتك. أعطاني صاحبي المحامي عناوين محلين أو ثلاثة في شارع اسمه التلل وحي اسمه العزيزية يمكنني أن أجد فيها ما أنا بحاجة إليه. كما دلّني على المرآب الذي أستطيع أن أجد فيه كل وقت سيارة تنقلني إلى مقر العمل. ما أن تبلغ العاشرة صباحاً حتى أكون اشتريت حاجاتي وغادرت المدينة.

أوف. عدت إلى ما كتبته فوجدتني ملأت الورقات الثلاث التي أعطانيها كاتب الفندق، ولم أصل بعد إلى كتابة جوابي على سؤالك ذاك. الجواب سأتركه هذه المرة، وربما في المرات المقبلة... أفضل أن أعطيك إياه في ذات يوم قريب مشافهة، من فمي إلى أذنك. وربما، يا عزيزتي، من فمي إلى فمك!

لك كل أشواقي التي أراها تتأجج في صدري متوقدةً ببعاد نهار واحد وليلتين اثنتين... ترى هل عندك لي مثلها؟

أنور

- ٣ -

لم يستطع أنور تنفيذ عزمه في السفر صباح اليوم التالي. المحلات التي دلّه عليها صاحبه المحامي، ومحلات كثيرة في الأسواق التي قصدها ظلت مغلقة الأبواب في الساعة العاشرة. فكان لا بد أن يعود إلى الفندق في انتظار افتتاح المتاجر وأن يفكر في تأجيل سفره إلى ما بعد الظهر. وانتهى به الأمر إلى أن يؤجله إلى اليوم التالي، الذي هو يوم جمعة، في آخر عزم له.

ذلك أنه ما ولج باب الفندق في عودته من السوق حتى رأى الكاتب يومىء إليه معجلاً، مشيراً إلى أن هناك من يطلب محادثته على الهاتف في تلك اللحظة. كان السيدة شاهناز التي حيّته

مستفهمة عما إذا كان قضى الليلة مرتاحاً، وعما إذا كان لا يزال مصمماً على مغادرة المدينة اليوم. طمأنها على راحته شاكراً، وأجابها بأنه لم يقض كل حوائجه بعد من السوق لأن المتاجر لا تزال مغلقة، لذلك فإنه سيبقى في حلب ساعة أو ساعتين أخريين. انقطع عنه صوت محدثته كأنها انشغلت بمخاطبة إنسان كان إلى جانبها ثم عادت إليه بالكلام قائلة:

ـ لماذا لا تجعلها أربع ساعات أو خمساً يا ولدي؟ ربيع، ابني، سيكون هنا في الواحدة والنصف قادماً بقطار اللاذقية، رحلة استثنائية لهذا القطار اليوم. تتغدّى معنا إذن في نصف ساعة وتسافر في الساعة الثالثة على الأكثر. أمامك النهار بطوله. أليس اليوم هو الخميس؟

قال لها: بلى. إنه الخميس.

قالت: إذن يمكنك أن تبقى اليوم كله وتسافر غداً. الدائرة التي تعمل فيها تجدها مغلقة عند وصولك إليها مساء اليوم، وغداً يوم عطلة. أليس كذلك؟ اتفقنا إذن. نحن في انتظارك في الساعة الواحدة والنصف، وأهلاً بك قبلها متى أنهيت أشغالك. ستحب ربيع من كل قلبك، وهو سيحبك من كل قلبه.

أمام هذا الإلحاح في الدعوة وهذا التلطف وجد الفتى نفسه مسوقاً إلى قبول اقتراح أم ربيع، وإلى القول إنه سيتشرف بمعرفة ابنها الذي لا يشك في أنه أهل لكل محبة وتقدير.

قبل الواحدة والنصف من ذلك اليوم بدقائق قليلة كان أنور أمام باب منزل الحاج نعمان، في الطابق الثاني من عمارة ضخمة في حي الشهباء الجديد. لم يحتج إلى أن يضغط جرس المدخل. فقد فتح الباب أمامه فجأة وبرزت منه فتاة المنزل، تلك التي اعترف

لخطيبته بجمالها مع ملاحظته بضآلة نصيبها من الجاذبية. توقفت الفتاة مواجهة له، قريبة منه جد القرب حتى لكاد أنفها يمس أنفه، فتراجع هو إلى الوراء بحركة عفوية بينما ارتفع صوتها بضحكة عالية وهي تتخطى عتبة الباب متجهة نحو الدرج. قالت وهي تدير سلسلة من المفاتيح أمام عينيه:

ـ هل أخفتك؟ أنا ذاهبة بالسيارة لآتيك بربيع من المحطة. ثم عليك أن تقبل معذرتي إذا لم أحضر معكم الغداء، أنا مدعوة عند واحدة من صديقاتي.

ودون أن تنتظر تعليقاً على أقوالها راحت تقفز الدرجات نحو الطريق، في الوقت الذي أطلّت فيه أمها من باب جانبي في الرواق الذي ينفتح عليه مدخل الدار، وهي تقول:

ـ أهلاً وسهلاً. هذه عادة دلال، بنتي. تتلهى عن مقصدها إلى آخر لحظة، ثم تندفع إليه مسرعة كالسيل، واثقة من أنها ستبلغه في الوقت المطلوب.

وتقدمته مفسحة له الطريق متابعة كلامها بقولها:

ـ ستصل إلى المحطة هي والقطار في الثانية نفسها. تفضل يا بنيّ. استرح في الصالون إلى أن ألقي نظرة على ما تعده لنا طباختنا من طعام.

وتركته خارجة من باب في أقصى البهو الذي قادته إليه. لم يستطع إلا أن يلاحظ رشاقة خطوها على الرغم من امتلاء جسمها. لم تكن السيدة شاهناز بدينة، ولكن عيني أنور اللتين توقفتا قبل قليل على القد المشيق والطويل لفتاة الدار لم يمكنهما إلا أن تتبينا ما عليه جسد الأم من ملاءة. لعله فارق السن. ومع ذلك فإن الناظر إلى

الأم وابنتها لا يجد هذا الفارق كبيراً. ذكر أنور هذا لخطيبته في رسالته. يضائل من هذا الفارق، إلى جانب قامتها الطويلة المعتدلة، وجه صبوح لم تتسلل إلى بشرته التجاعيد، تضيئه عينان واسعتان ولا يبدو أن صاحبته تجور عليه بأصباغ الزينة ومساحيقها. لقد أحس أنور بما يشبه الاستغراب حين سمع زوجة صديق والده تنعته بلفظ البنوّة مرتين: مرة في الهاتف في الصباح، ومرة قبل لحظات حين دعته إلى دخول الصالون والجلوس في مقعده هذا. ابتسم وهو يقول لنفسه: أليس هذا دليلاً على أن السيدة شاهناز لا تزال في مقتبل العمر، وأنها أفتى بكثير من أن تكون أماً لشاب في عمره هو، أنور، ولفتاة مثل ابنتها دلال؟!

وخرج من خواطره لصوت مضيفته التي عادت إلى الصالون فاتخذت مكانها على أحد مقاعده مقابلة له وراحت تقول، متممة الحديث الذي بدأته قبل قليل:

ـ نعم. دلال واثقة من نفسها. إنها من طبع أبيها. تعرف ما تريد وترسم إليه الطريق وتصل إليه في الوقت المعين. أما ربيع، فهو على غير ذلك. ليسامحه الله. يترك للطرق التي يسلكها هوامش عريضة تسمح له بالهروب والتراجع، كأنه غير واثق من نفسه فيما يريد أو في قدرته على الحصول على ما يريد.

قال أنور، متظرفاً:

ـ البنت من طبع أبيها... والولد يا سيدتي، من طبع من يا ترى؟

ارتسمت ابتسامة عريضة على شفتي شاهناز الممتلئتين وقالت:

ـ كأنك منذ الآن تنحاز إلى صف ربيع فتحمّلني أنا أمه مسؤولية

ما لا يرضي من طباعه! اسمح لي... أسمع جرس التلفون في الصالون الآخر.

وخرجت قبل أن تسمع من الفتى اعتذاره أو تبريره لملاحظته عن نسبة ما تشكو من خصال ابنها إليها. راح، في انتظار عودتها، يتلهى بالتطلع إلى جدران البهو المزينة بلوحات زيتية لمناظر طبيعية في بلاد بعيدة في أجوائها عن جو هذه البلاد، وبتقليب نظره في المقاعد المريحة والأثاث الذي يجمع بين الترف وأناقة الطراز. تناهى إليه عبر الجدار صوت السيدة وهي تصيح: آلو آلو، مكررة نداءها كأنها تجد عسراً في إسماع من يكلمها أو في سماع كلامه، قبل أن تنطلق في حديث لم يكن يصل إلى أذني أنور واضحاً. وهمّ بالقيام ليتطلع إلى كتب كانت تحتويها خزانة في زاوية الصالون، إلا أن مضيفته دخلت في هذه اللحظة وعلى ملامحها علائم ارتباك لم تقوَ على محوه ابتسامة شفتيها الضئيلة. قالت:

ـ بماذا نعتذر إليك يا ضيفنا العزيز؟ كان هذا صوت ربيع من اللاذقية. يقول إنه لم يلحق القطار الذي كان يريد أن يأتي به، وإنه سيأتي في سيارة أحد أصحابه. وفوق ذلك لم يستطع مخابرتنا إلا في هذه اللحظة. هذا يعني أنه لن يصل إلى هنا إلا حوالى مغيب الشمس.

وسكتت قليلاً قبل أن تضيف:

ـ كأنه أراد أن يصدّق ما كنت أقوله لك عنه، عن هروبه، وتراجعه وتردده. الحسم ليس من صفاته. طبع أمه ربما...

وانطلقت من حنجرتها ضحكة قصيرة، كأنها تذكّره بما لمحّ إليه قبل قليل. أما هو فقد أحس بالحرج من مقامه في هذه الدار بعد أن تلاشى مبرر قبول دعوة الغداء بتخلف الفتى الذي يريد التعرف

عليه. غمغم كلاماً يبين فيه اعتذاره مستأذناً الذهاب، ومتمنياً أن يلتقي بربيع في وقت قريب. صاحت السيدة مستنكرة:

ـ كيف؟ تذهب دون أن تتناول غداءك؟! كأننا من دون ربيع لسنا قدّ المقام يا ولدي!

مرة ثالثة تضعه هذه الامرأة الشابة في مقام ابنها... لم يملك أن يحول دون الابتسام لهذا الخاطر. قال:

ـ استغفر الله. أنتم جميعاً في هذا المنزل العامر على العين والراس. ولكن...

فقاطعته قائلة، وهي تتطلع إلى ساعة الحائط بنظرها:

ـ لا محل للكن هنا. غداؤنا جاهز. ننتظر قليلاً حتى تأتي دلال التي لا بد أنها تفتش عربات القطار واحدة بعد الأخرى بحثاً عن أخيها. هذا الذي أخرها بلا شك عن العودة بسرعة.

هَمَّ أنور بأن يقول لها إن ابنتها قد لا تأتي، فهي مدعوة عند إحدى صديقاتها، ولكن الباب فتح في هذه اللحظة عن الفتاة، التي دخلت وعلى شفتيها ابتسامة واسعة. كانت تدفع أمامها صبية صغيرة تلبس فستاناً ناصع البياض. قالت:

ـ لم يأت ابنك يا أمي، وهذه أهون فعلاته. أتيت لك بضيفة تقوم مقامه، سلوى بنت أختك. لا، إنها تقوم مقامي أنا، فأنا كما أخبرتك سأتغدّى عند عالية...

تطلع أنور إلى سلوى، تلك الصبية. كانت في نحو العاشرة من عمرها. فستانها الأبيض كان مزنراً بشريط أحمر عريض، وجهها مورد وعيناها زرقاوان، وفي شعرها الأشقر مغروسة وردة حمراء بلون زنارها. ابتسمت له الصبية ابتسامة حيية، فابتسم لها وقد

تبدد حرجه الذي انتابه لما توقع من بقائه وجهاً لوجه، وحيداً، أمام السيدة شاهناز طيلة فترة الغداء.

لم تلبث دلال في البهو غير دقيقة أو دقيقتين. رفعت يدها متوجهة بالاشارة إلى أنور، وابتسامتها لا تزال على اتساعها وفي عينيها الزرقاوين بارقة مكر ضاحكة، وقالت:

ـ باي باي...

ثم استدارت بسرعة، مندفعة في الخروج في مثل اندفاعها الذي رآها عليه حين واجهته على الباب عند وصوله. قال أنور لنفسه: ظلمتها بما وصفتها به في رسالتي لسميرة... هذه الفتاة ليست محرومة من الجاذبية قطعاً!

ردد هذا لنفسه، وأخذ بيد سلوى، الصبية، وهو يجيب دعوة السيدة شاهناز ويتبعها إلى غرفة المائدة.

ـ ٤ ـ

ما كان أنور يظن نفسه بهذه الطلاقة في الحديث، على الأقل في ما يتعلق بنفسه شخصياً. ولكن زوجة الحاج نعمان كانت امرأة ذكية، متلطفة في أسئلتها. لعلها ليست الوحيدة في الثرثرة بين النساء، إلا أن ثرثرتها قريبة من القلب، تُعدي محدثها بها فيجاريها بالإفضاء بكل ما يجول في خاطره في ما تسأل عنه وفي غير ما تسأل.

بدأت كلامها بالاعتذار عن تخلف ابنها عن المجيء وعن تأخره في إبلاغها بذلك التخلف. وكأنها أرادت أن تعوّض عن غياب الولد بتفصيل صفاته وطباعه لضيفها. قالت:

ـ إنه ابن أبيه المدلل. تدليل الوالد له هو الذي دس اللامبالاة إلى

طباعه وجعله قليل الرعاية للمسؤوليات. لست أنا التي أورثته هذه الخصلة كما اتهمتني أنت يا عزيزي.

ابتسم أنور قائلاً في نفسه: إنها لا تنسى شيئاً! ورفع صوته قائلاً:

ـ أنا لم أتهمك بشيء يا سيدتي. كنت أمزح...

فرفعت يدها كأنها تريد أن تسكته قبل أن تتناول من يد الخادمة صحيفة أرز مكللة باللحم والمكسرات وتضعها في وسط المائدة. قالت:

ـ لا تعتذر. فهمت ما لمّحت إليه «على الطاير». أقول لك الصحيح؟ نحن ألفنا ذلك منه. ما كان تأخره يزعجنا لولا أنه كذّبني أمامك، وأزعجك أنت بلا شك.

قال، مهوّناً الأمر أمامها: يمكنك أن تقولي إنه أضاع عليّ متعة كنت أنتظرها من لقائه. أنت حببتني به قبل أن ألتقيه. ومع ذلك فإني لم أحرم من رؤيته تماماً. أليست تلك صورته في إطارها تلك التي رأيتها في الصالون؟ لاحظت شبهه الكبير بالآنسة دلال.

قالت: الشبه في الشكل واضح بينهما. واضح في تقاطيع الوجه ولون البشرة والعيون الزرقاء، لا كعيني أمهما العسليتين. وفي طول القامة أيضاً. ربيع أطول من أخته طبعاً. إنه في طولك. لماذا لا أقول إنه يشبهك؟ وإن كنت أنت أقرب إلى السمرة منه، بلونك الحنطي وعينيك السوداوين.

أحس أنور بشيء من الارتباك حين وصل الحديث إلى شخصه. قال متهرباً:

ـ وماذا يصنع المحروس في طرطوس واللاذقية؟

قالت: إنه يدير مكتب أبيه هناك. في طرطوس. لعل والدك الكريم

أخبرك بأن تجارتنا ومصنوعات معاملنا التي تسلك طريق البحر إلى الخارج اضطرت أبا ربيع أن ينقل مكتبه الرئيسي من حلب إلى طرطوس في الساحل...

قال: الواقع أن المناسبات كانت قليلة ليحدثني عنكم كثيراً. حين صدر قرار تعييني في مؤسسة الاستصلاح وعرف أن ترددي على حلب سيكثر وجدها مناسبة ليحملني تحيته إلى صديقه القديم.

قالت هي: أما زوجي فإن أحاديثه عنكم كثيرة. هو دائم التذكر لصحبته لوالدك منذ تلازمهما في الوظيفة الحكومية في مطلع شبابهما. وحين ترك أبو ربيع الوظيفة لم تنقطع صلته بأبيك. عن زياراته لدمشق كان يقول لي إنه زار شاكر بك في دائرته وإنه تناول غداءه أو عشاءه مرة واحدة على الأقل في داركم. كان والدك مديراً عاماً للمصالح العقارية... أليس كذلك؟

قال: صحيح. هذه كانت آخر وظائفه. أما الآن فهو متقاعد. يقضي أغلب أيامه في الإشراف على زراعة قطعة أرض نملكها في الغوطة، وينتظر مني أن أتولى أمر هذه الأرض بصفتي مهندساً زراعياً...

ابتسمت وهي تقول: تتكلم بلهجة المستاء. أليس الحق مع والدك؟

أجابها: لست مستاء، ولا بد لي من العودة إلى أرضنا في الغوطة. ولكنني استمهلت والدي عاماً، أو عامين على الأكثر، لأتعرف على الدنيا خارج البيت وخارج الكلية وخارج دمشق.

اتسعت ابتسامتها وهي تقول معجلة: اسمح لي أن أمتحن فراستي. أصدقني. أليس لاستمهالك علاقة بمشروع زواج... زواجك أنت؟

فسألها في شبه دهشة: كيف عرفت يا سيدتي؟

أطلقت هي ضحكة قصيرة، ناعمة، وأشارت بإصبعها إلى كفه على المائدة قائلة: قبل قليل، وأنت في الصالون، لم تكن تكف عن إدارة هذا المحبس الذهبي في بنصرك اليمنى. ما اسم صاحبة الحظ الحسن يا أنور بيك؟

احمر وجه الفتى وسكت قليلاً قبل أن يجيب بقوله: سميرة... بنت الجيران! أعلنا خطبتنا في السنة الماضية. تخرجها من الجامعة، حيث تدرس الأدب الفرنسي، لن يكون قبل منتصف العام القادم، كما أن زواجنا لن يتم قبل تخرجها.

قالت في لهجة مرحة: بديع. وتريد أنت أن تتعرف على الدنيا قبل دخولك القفص الذي يصفونه بأنه ذهبي. ولكن عامين مدة طويلة، فحذار...

قال أنور ببراءة: حذار من ماذا سيدتي؟

أجابت: من أن تثير غيرة سميرة. في وظيفتك في المؤسسات الزراعية التي عيّنت فيها، النساء حولك كثيرات. الفلاحات مثلاً...

قال فيما يشبه الاستنكار: الفلاحات؟!

مرة أخرى أطلقت شاهناز ضحكتها القصيرة والناعمة وهي تقول:
- ولم لا؟ بين الفلاحات ذوات العيون السود والبشرة المحروقة بنار الشمس حسناوات كثيرات مغريات. ثم إن هناك، على ما سمعت، شركات أجنبية من مختلف الجنسيات تعمل فيها نساء شقر وحمر ومن كل الألوان. قد تغريهن سمرتك فيحاولن غوايتك.

تورد وجه أنور مرة أخرى وهو يسمع هذا الكلام من مضيفته

الجميلة، بينما غيرت هي فجأة لهجتها الضاحكة متصنعة الجد وقالت:

ـ كان يجب أن لا أقول هذا أمام ابنة أختي التي لم تتم بعد سنتها الحادية عشرة. ولكن بنات اليوم، حتى اللواتي هنّ في عمر سلوى، لا تغيب عنهن الخوافي التي غابت عنا في صبانا...

فالتفت أنور إلى الصبية التي كانت إلى يمينه، وقد وجد في الاهتمام بها مهرباً من حرج ما تطرقت إليه مضيفته من أحاديث، وقال:

ـ الذنب ذنبي. لم تمد سلوى إلى الطعام غير رؤوس أصابعها. هات صحنك لأملأه لك. ماذا تشتهين، الكبب أم الخضار؟

ولم تكن الصبية في الواقع كبيرة الانشداد إلى صحنها الذي كانت ترفع منه إلى شفتيها بضع حبات من الأرز بين الحين والحين. كانت تنقل نظراتها بين عمتها والضيف الشاب، منها إليه ومنه إليها، بتبدل المتكلم من بينهما. وكأن التفات أنور المفاجىء إلى الصبية نبه السيدة شاهناز إلى ابنة أختها بأكثر مما كانت منتبهة، فألقت عليها نظرة حنان غامرة قبل أن تعود إلى موضوع حديثها قائلة:

ـ نعم. عامان مدة طويلة. نحن أكثر استعجالاً منكم لإدخال شبابنا القفص الذهبي.

قال أنور: مبروك. متى سيكون عرس ربيع بيك؟

قالت: العرس ليس لربيع، بل لدلال. كان يمكننا أن نحتفل بالعرس منذ عام لولا شرطها على خطيبها الذي لم يتحقق إلا منذ مدة قريبة.

قال: مبروك مرة أخرى. البنات أسرع تكبيراً لأمهاتهن وآبائهن من الصبيان. والعقبى للصبي بعد البنت. ذكرتِ شرطاً... هل لي أن أسأل عن الشرط، أم أني فضولي أكثر مما يجب؟

قالت، وابتسامتها تملأ وجهها: ترى أني عرّفتك من أخبارنا أكثر مما عرفت من أخبارك. قد لا تصدّق شرط دلال التي رأيتها تلبس فستاناً من صنع باريس، راكضة لتسوق سيارتها السبور... شرطها على خطيبها القادم من دراسة الهندسة في جامعة غرينوبل في فرنسا. تحبه ويحبها، ولكن استخفافه بفرائض دينه لم يعجبها...

قال أنور متسائلاً: فرائض دينه؟

قالت: نعم. لم توافق دلال على تعيين موعد العرس إلا بعد أن تأكدت من أن سهيل، خطيبها، يؤدي صلواته الخمس بانتظام منذ أكثر من شهرين. هل أعجبك هذا؟

قال الفتى في جد: أعجبني كثيراً يا سيدتي... وزادني تقديراً لحسن تربيتك لها حتى أصبحت بهذه العقلية.

فتنفست تنفس ارتياح قبل أن تقول: يسرّني أن أسمع منك هذا. الذين لم يتبسموا استغراباً أو سخرية، حين سمعوا بشرط دلال، قليلون. حتى ممن هم أكبر سناً منك ومنها.

قال: سميرة، خطيبتي، فتاة متحررة في أفكارها. ومع ذلك فإنها لم تنزعج، ولم تسخر، حين قلت لها ذات مرة إن أمي كانت تفضل أن تكون خطيبتي فتاة متحجبة، تعني الحجاب الشرعي. في أول الأمر كانت تشير إلى بعض زميلاتها في مختلف الكليات، وفي كلية الطب بصورة خاصة، ممن يلبسن ثياباً بأكمام طويلة ويخفين شعورهن بعصائب يدرنها حول رؤوسهن، كانت تشير إلى

زميلاتها المتحجبات وتسألني متبسمة: هل تريد امرأة عمي أن ألبس مثلهن؟ ولكنها، يوماً بعد يوم، خففت من ابتسامتها ومن تساؤلها. وأحسبها لن تتقدم إلى العرس إلا مرتدية الحجاب الشرعي.

راح أنور يتحدث عن خطيبته وتطور نظرها إلى تحجب الفتيات في حماس وشبه اعتزاز. وبعد أن استأثرت السيدة شاهناز بأكثر الحديث في أول الجلسة، وجد هو نفسه مندفعاً بالكلام في آخرها. متحدثاً في البداية عن خطيبته، عن خصالها وطباعها، وعن أسرتها، وماضي معرفته بها، ثم متحدثاً عن نفسه وأهله بإسهاب. وكانت ربة الدار تصغي إلى ما تسمع باهتمام غير مصطنع، لا تنطق إلا بكلمات مستفسرة، تفسح بها المجال إلى مزيد من التفاصيل التي ينفضها إليها ضيفها الجميل الملامح الفائض المشاعر والجذاب الحديث.

في رجوع أنور إلى الصالون لتناول القهوة فطن إلى أنه أكثر من الكلام وأسهب فيما تكلم به. أدركه التخوف من أنه تجاوز الحد وأملَّ مضيفته فيما نطق به، فأطبق شفتيه على لسانه وفي نيته أن يلازم الصمت حتى يغادر البيت. وعلى الرغم من إلحاح شاهناز عليه للبقاء ليرتاح، كما قالت، فقد استأذنها بالذهاب. ربت على خد سلوى وتناول يد عمتها مودعاً وشاكراً، فأطبقت هذه بكفيها الاثنتين على كفه وهي تستحلفه بأن يتصل بمنزل عمه الحاج نعمان كلما جاء حلب، وأول ما يصل إليها. وحين أصبح في آخر رواق المدخل، أمام الباب، فُتح هذا فجأة وإذا به مرة أخرى وجهاً لوجه أمام فتاة الدار، دلال...

انطلقت من الفتاة ومن أنور، في الوقت نفسه، قهقهتان ملأتا

حنجرتيهما. تراجع الشاب في الرواق ليسمح للفتاة كي تدخل، وتراجعت هي أمام الباب ليخرج. من جديد ارتفعت من كليهما ضحكة، وتقاربا ليتصافحا قبل أن ينزل أنور الدرج إلى عرض الشارع ولكنه عندما بلغ آخر الدرجات سمع الفتاة تناديه:

- انتظرني... سأوصلك إلى الفندق.

حاول أن يعتذر، فلم يُجْدِ اعتذاره. ووجد نفسه في النهاية جالساً إلى جانب هذه الفتاة الجميلة، في سيارتها الرياضية الحمراء، وهي تسوقها بسرعة غير مألوفة من حيّ الشهباء إلى قلب المدينة وإلى فندقه في قلب المدينة.

- ٥ -

من سميرة إلى أنور

يا عزيزي

اشتريت أول أمس من بائع على الرصيف كتاباً عنوانه «أحلى الكلام في مكاتيب الغرام»، وكنت أنوي أن أنقل منه ثلاث صفحات أوجهها إليك في الرسالة. ولكن مكتوبك الأخير، الثاني، الذي استلمته اليوم من بريد الكلية أوقفني عن ذلك، وقررت أن أبدل حديث الغرام والهيام بخناقة حامية لا يبرد حرها بعد المسافة بيني وبينك... هل هي أربعمائة كليومتر أو ثلاثمائة وخمسون أو ثلاثمائة وثلاثون؟ لا، نسيت. ربما أصبحت ستماية كليومتر ما دامت هذه السطور ستلحقك إلى مقر عملك.

الخناقة سببها أنك ما بعدت عني يومين حتى تغيرت طباعك. في حدائق الجامعة كنت أنبهك إلى جمال صديقاتي اللواتي أعرّفك عليهن، وإلى ظرفهن ورقتهن، فكنت تلوي شفتيك وتقول: ما من واحدة منهن أجمل منك وأظرف... لا أريد أن أعرف غيرك! وها

إن هذه المدينة التي اسمها حلب أفسدتك. في يوم واحد تجلس على مائدة وحولك ثلاث نساء لا تتردد في وصفهن جميعاً بالجمال واللطف والظرف... وتجرؤ كذلك على تسميتهن لي بأسمائهن: شاهناز ودلال وسلوى!

أعرف أنك تضحك الآن. اضحك كما تشاء. وأعرف ما تردّ به عليّ. ستقول عن زوجة الحاج نعمان إنك في عمر ابنها، وعن بنتها إنها مخطوبة، وإنها كذلك متمسكة بفروض الصلاة ولا تقبل من خطيبها أن يقصّر في أداء الفروض، وعن ابنة الأخ إنها طفلة صغيرة. حسناً. خوفي ليس من النساء، مهما كانت أعمارهن، بل منك أنت... أنت الرجل. كنت مثل هذه الصبية التي سميتها سلوى، طفلة، حين سمعت جدتي تشكو لبناتها، ومنهن أمي، غياب زوجها ثلاثة أيام في بيروت بعد الموعد المفروض أنه سيعود فيه. قالت لهن: «الرجال كلهن سواء، لا يؤتمنون حين يبعدون عن أعين زوجاتهم أو حين تبعد زوجاتهم عنهم... احفظن هذا الكلام عني يا بنات!». كان جدي حينذاك في السابعة والسبعين... فقل كم عمرك أنت الآن؟

إضحك. نعم إضحك. ستقول أنت إن كل النساء سواء، ما دمت أنا أتكلم مثل جدتي. كلهن سواء في الغيرة، إذا لم يكنَّ في نقص العقل! وإلا فلماذا تكرر لي هذا الإطراء بالسيدة المحترمة شاهناز؟... على الرغم من أنها أم لشاب في عمرك ولفتاة على عتبة الزواج؟ هي محتفظة بجمالها... وهي مثقفة تستشهد بالشعر في كلامها وتروي الطرائف عن البلاد البعيدة التي يتنقل بينها زوجها. ماذا يفعل حاج بيت الله هذا في أقصى المعمورة تاركاً زوجته تستقبل الشباب وتتطارح معهم الأحاديث في كل فن في

داره؟ أما عنِ البنت التي تجمع بين التناقضات، والتي هي جميلة ولكن جمالاً من غير طراز جمال أمها، فماذا أقول؟...

أكتب إليك صباح الأحد. لم أستطع إتمام الرسالة البارحة لأن الحال أخذني وتحول مكتوبي من رسالة عتاب إلى صواعق غضب. أعدت قراءة ما كتبته أمس فابتسمت لنفسي من نفسي وفكرت بأن أمزق الصفحتين اللتين كتبتهما، إلا أني فضلت أن أحفظهما للتاريخ... ربما لأني وجدت فيهما نفحة أدبية ترشحني إلى أن أصبح كاتبة محترفة. ما رأيك؟

أنا الآن أضحك من نفسي. أليس لي الحق في أن أغار من مضيفاتك الحسناوات، الصغيرة والكبيرة والوسطى بينهن؟ مع ذلك أرجوك... في مكاتيبك المقبلة اترك الحديث عن النساء الجميلات لنفسك، حتى لا تثير فيّ هذا الشعور الذي لا أحب أن أتعذب به. سمعت، أو قرأت، أن بعض الرجال يحبون أن يتأكدوا من عاطفة المرأة التي يحبونها عن طريق ما يرونه عندها من مظاهر الغيرة عليهم. يمكنك أن تكتفي من ذلك بقراءة الجزء الأول من رسالتي واعفني من محاولة التأكد بعد هذه المرة.

أحسن ما في رسالتك الطويلة كان ما ذكرته عن غرفتك في عمارة موظفي الاستصلاح. جدرانها عارية؟ حسناً. بماذا كنت تريدهم أن يزينوها لك؟ بلوحات فنية من دافنشي؟ تستطيع أن تمارس هوايتك بالرسم على هذه الجدران العارية. لا تنسَ أن شقتنا المقبلة، إذا لم يتفضل عمك والدي وعمي والدك، بإهدائنا بعض الأثاث المحترم، ستكون عارية الجدران أيضاً. فراتبك كمهندس زراعي قدّ الدنيا لا أحسبه يكفينا ثمن خبز وزيتون. يبقى راتبي كمدرّسة للغة الفرنسية. إنه مخصص للملابس التي سأشتريها لأظل حلوة في

عينك، لن تنال منه قرشاً واحداً. أما السرير الحديدي الضيق الذي حدثتني بأنك تنام عليه، فإنك تحقق به منطوق الحديث الشريف: اخشوشنوا فإن النعم لا تدوم...

بالمناسبة، سألت امرأة عمي، والدتك، إذا كانت وضعت لك في حقيبتك سجادة صلاة، فضحكت وقالت: لماذا يابنتي؟ هل هو ذاهب إلى بلاد الكفار؟ يا خسارة... كان يمكن أن تفرش بهذه السجادة غرفتك العارية الأرض مثل جدرانها، فتصبح مثل صالون السيدة شاهناز الذي وصفته لي وأطريت فيه ذوقها وترفه.

ستقول: رجعنا إلى حديث شاهناز الكلية الاحترام! حسناً، سأعفيك من هذا الحديث. وفي انتظار رسالتك المقبلة ماذا أقول؟ أقول: أقبّلك!

سميرة

- ٦ -

ما لم يذكره أنور لخطيبته في رسالته التي كتبها بعد وصوله إلى مقر عمله في مركز الاستصلاح رقم ٦، والتي كانت الصفحات الفائتة رد خطيبته عليها، هو أنه في مساء ذلك اليوم الذي بقي فيه في حلب زار الأستاذ شكيب مجد الدين، لأنه رأى من واجبه أن يقوم بتلك الزيارة ما دام سيقضي ليلته الثانية في المدينة. لماذا لم يذكر هذا في رسالته؟ لعل إطالته في الحديث عن السيدة شاهناز وبنتها، وعن المائدة السخية التي تناول عليها غداءه في منزل الحاج نعمان، جعلته يقصر رسالته على ما كتبه مؤجلاً رواية لقائه لصاحبه المحامي إلى فرصة أخرى ورسائل أخرى.

قصد أنور، في نحو السابعة من بعد ظهر يوم بقائه ذاك، مكتب الأستاذ شكيب القريب من الفندق. كان بهو المكتب خالياً، وباب

الغرفة التي يعمل فيها المحامي مفتوحاً، مما جعل هذا يحس بدخول زائره قبل أن يرفع رأسه عن أوراق الملف الذي كان منكباً عليه. ما أن لمح القادم في وسط البهو حتى هب واقفاً وهتف به:

ـ هذا أنت؟ أهلاً وسهلاً. تفضل واسترح. ظننتك تركتنا منذ الصباح.

قال أنور، وهو يتخذ مجلسه على مقعد جلدي عريض إلى جانب منضدة المحامي:

ـ هذا ما كان منتظراً. ولكن شراء بعض حوائجي أخّرني. واليوم خميس، فقلت إن أمامي يوم الجمعة بكامله للسفر.

قال الأستاذ شكيب: حسناً فعلت. أما كان بإمكانك أن تمر عليّ قبل الظهر؟ لا. لو فعلت لما وجدتني هنا. في الصباح قضيت النهار بطوله في قصر العدل. لو عرفت أنك ستتأخر لتغدينا معاً في منزلي المتواضع.

شكره أنور، وأخبره بأن أصدقاء والده غمروه بكرمهم حين دعوه إلى تناول طعام الغداء عندهم. قال المحامي بعد أن عرف اسم صديق والده:

ـ الحاج نعمان الديرباني؟ إذن فقد كان غداؤك في منزله العامر. صحتين. ولكن الحاج نفسه ليس في حلب. بل إن مدينتنا منذ شهور، وربما منذ سنين، لم تر وجه الحاج نعمان فيها خمسة أيام متتالية.

قال الفتى متسائلاً: كيف؟

ارتسمت على شفتي الأستاذ شكيب ابتسامة ضئيلة قبل أن يجيب بقوله:

ـ ما أخبرك به ليس من معلوماتي الشخصية. إنها أقوال الآخرين، وإن كان المفروض أن أعرف عن أحوال الحاج نعمان أكثر من غيري.

سأل أنور، وبلهجة ضيق لشعوره أن ما سيسمعه عن صديق والده ليس فيه ما يسر:

ـ ما هي أقوال الآخرين يا شكيب بك؟

ردّ هذا بقوله: إنهم يقولون: ماذا يفعل الحاج نعمان في حلب؟ هذه المدينة البدائية أضيق من أن تتسع لمشاريع الحاج ونشاطاته وثروته المتزايدة والموزعة على أكثر من مدينة كبيرة من مدن البلاد المتقدمة. تلك الثروة هي التي تمسك به في تلك المدن أو تجعله دائم التنقل بينها.

قال أنور: ولكن أسرته مقيمة هنا. له فيها ابنه وابنته وزوجته. ولا أدري إذا كان له غير هذين الولدين.

اتسعت ابتسامة المحامي وهو يقول: من شاهناز خانم، لا. أما من غيرها، فالله أعلم.

وجد أنور نفسه يجاري صاحبه في الابتسام وهو يقول مستفهماً: ماذا تقصد بهذا الذي تقوله؟ العفو... بل الذي يقوله الآخرون؟!

لم تخف لهجة المكر في هذا السؤال على المحامي، ولكنها لم تضايقه. قال مجيباً:

ـ أنت لا تعرف هؤلاء الحجاج. الذين رأوا سكرتيرة الحاج نعمان في ميلانو يقولون إنها تغار عليه أكثر من غيرة زوجته الشرعية. جائز أن تكون زوجة شرعية له. الزواج عند أمثال الحاج أمر هين: قَبِلْتني وقَبِلْتك! هين مع الإيطاليات الكتابيات في ميلانو، ومع

الفرنسيات الكتابيات في باريس ومع الألمانيات الكتابيات في فرنكفورت. ولكن ذوي الألسن الطويلة يقولون إن سكرتيرة مكتبه في طوكيو فائقة الجمال أيضاً... واليابانيات كما تعرف وثنيات لا يكفي معهن الرضى والقبول ليصبح نكاحهن شرعياً...

وأطلق المحامي هنا ضحكة قصيرة تعقيباً على ما رواه قبل أن يضيف:

ـ هذا ما يتحدث به الآخرون، ولست أنا. كما إني لست شديد الوثوق من صحته. الشائعات في أكثرها ظالمة. وأنا الذي أحدثك لم أسلم، وكذلك من يلوذ بي، من ظلمها.

لم يخفف هذا الاستدراك المتأخر من ضيق أنور بما سمع عن أمور صديق أبيه الشخصية. ما رآه في منزل الحاج نعمان، وبصورة خاصة ما سمعه عن ربط دلال، ابنة الحاج، تنفيذ زواجها بالتزام خطيبها بفروض دينه، جعله يعتقد أن طباع الحاج من طباع أبيه هو في التعلق بالخلق القويم وفي تربية الأبناء على التمسك بالخلق القويم. وراح يسأل نفسه: إذا كان ما سمعه من الأستاذ شكيب صحيحاً، أو أن فيه بعض الصحة، فهل وصل خبره إلى مسامع السيدة شاهناز؟ وإذا كان، فما هو شعورها وتصرفها حياله؟

قال المحامي، بعد أن وجد أن ليس عند أنور ما يقوله عن الحاج نعمان:

ـ أخبرتني أن عملك سيكون في مركز الاستصلاح رقم ٦...

أجاب أنور: صحيح.

قال: رئيس إحدى الإدارات في هذا المركز صديق عزيز لي. هذه

بطاقتي تحمل تحيتي إليه. إنه الأستاذ صبحي زيدان. موظف قديم ومطّلع، وإذا أعوزتك معونة ما فلن يقصّر تجاهك.

قال أنور: أنت تخجلني بالمساعدات التي تكرمني بها. شكراً. لا شك في أني سأكون بحاجة إلى من يعرّفني بالعمل وأجوائه هناك.

قال الأستاذ شكيب: في هذه الأشياء سيكون صبحي أنفع لك من مدير المركز، ومن المدير العام نفسه.

فاعترضه أنور بالكلام قائلاً: والدي يعرف المدير. قال عنه إنه كان في ذات يوم تلميذاً له، يعني أنه كان موظفاً صغيراً في معيته. أراد في أول الأمر أن يعطيني توصية له، ثم غيّر رأيه وقال: لست في حاجة إلى توصية، عملك الجيد هو الذي يفيدك.

قال صاحبه: الحق مع السيد والدك... في بعض الأحيان. وفي أحيان أخرى، عملك الجيد هو الذي يضرّك.

قال أنور: لم أفهم.

نقر المحامي بقلم في يده على المنضدة أمامه وتوقف لحظة عن الكلام، متردداً في شرح الكلمة التي نطق بها. ثم ما لبث أن أضاف:

ـ ستفهم هذا من نفسك بعد أن تباشر عملك. على كل لا أدري ماذا يمكن أن تفيدك توصية والدك عند تلميذه القديم، مديرك العام.

سأله أنور: هل تعرف حضرتك المدير العام لمؤسستنا؟

أجاب: لا أعني مديرك العام ذاته. هؤلاء المديرون العامون بصورة شاملة، إنهم مثل الحجاج الذين تحدثنا عنهم قبل قليل.

عاد إلى خاطر أنور كلام صاحبه عن الحاج نعمان والإشاعات التي تدور حوله، فابتسم وهو يقول:

ـ هل تعني أن لكل منهم عدداً من السكرتيرات، أو عدداً من الزوجات، في كل مكان.

فابتسم الأستاذ شكيب بدوره وأجاب: ليس هذا ما أقصده. أقصد أنهم مثل الحجاج، لا تتوافق خصالهم وتصرفاتهم مع ما تستلزمه ألقابهم. ربما كانت الحال على غير هذا حين كان والدك المحترم مديراً عاماً. وأما الآن...

قال أنور مستفهماً: وأما الآن؟

فأطلق المحامي ضحكة قصيرة متهرباً من الجواب، وقال: هذا حديث يطول. اعتمد على صبحي في ما تريد معرفته مما لا تعرف. ستجده خفيف الدم. علاقاته بالصغار والكبار شديدة وله، كما يقولون، في كل عرس قرص. قل لي، ماذا ستفعل في هذا المساء؟

كانت الساعة قد قاربت الثامنة، فأجابه أنور قائلاً:

رأيت إعلاناً عن فيلم أعجبني في دار للسينما في هذا الشارع. سأحضر حفلة السواريه.

قال الأستاذ شكيب: أنتم في دمشق تسمون الدعوة باللسان إلى الطعام، تلك التي لا يعقبها تنفيذ عملي، تسمونها عزيمة حلبية. نحن هنا نسمي مثل هذه الدعوة عزيمة شامية، دمشقية! في هذا المساء لن أعزم عليك أنا بعزيمة من هذا النوع، شامية كانت أو حلبية، لأني مع الأسف مرتبط بموعد. ولكن لا بد أن تمالحني، أعني أن تتناول غداءك، أو عشاءك، معي في المرة الآتية. ستمرّ عليّ حتماً في مجيئك القادم لتعلمني بأحوالك في العمل، وبصورة خاصة بأخبارك مع أبي منير، أعني صديق صبحي، ولا أشك في أنها ستكون أخباراً سارة.

وهنا استأذن أنور في الانصراف، معتذراً عما أخذ من وقت المحامي في مقامه عنده، وانحدر إلى الشارع وفي نيته أن يطوف بالأسواق القريبة التي ما زالت تعج بالمارة والمشترين، وأن يتناول عشاءً خفيفاً قبل أن يدخل دار السينما التي سماها قبل قليل لصاحبه.

على أن رغبته في رؤية الفيلم تضاءلت بعد تناوله العشاء. فضّل أن يعود إلى الفندق ويبدأ بكتابة رسالته الثانية إلى سميرة قبل أن ينام. ولكنه لم يفعل حتى هذا. كتب من الرسالة سطرها الأول وغلبه النوم، ولم يتمها إلا بعد أن سافر في اليوم التالي وبعد أن مضى يومان آخران على وصوله إلى مقر عمله في مركز الاستصلاح رقم ٦

وعلى هذه الرسالة الثانية كان جواب سميرة، الخطيبة، ذلك الجواب القاسي كما ورد في مكتوبها في الصفحات السابقة. كان جواباً قاسياً، على الأقل في أول المكتوب، تعليقاً على ما قصّه عليها خطيبها في صراحة وبراءة حول زوجة الحاج نعمان وبنته. ترى ماذا كانت تقول لو اطلعت على ما دار بين هاتين بعد أن أوصلت الفتاة ضيفهما إلى فندقه وعادت إلى أمها؟

قالت السيدة شاهناز تسأل ابنتها آنذاك:

ـ كيف رأيته؟ شاب مهذّب وحيي. أليس كذلك؟ بل إن حياءه أكثر مما يجب، مما لم نعد نراه عند فتيان اليوم. ثم إنه جذاب الملامح، قده رياضي ووجهه جميل.

قالت دلال: أما حديثه في السيارة فكان كله تقديراً لك وشكراً للطفك. أعجبته. يبدو أنك قرأت عليه قصيدة شعر من محفوظاتك.

قالت الأم متضاحكة: هل قال لك هذا؟ إنه بيت واحد من شعر الغزل القديم جرى على لساني أمامه حين رأيت مقدار شغفه

بخطيبته التي تنتظره في دمشق، من خلال حديثه عنها. أما عن تقديره لي فالفضل فيه يعود إليك أنت يابنتي.

سألت الفتاة: إليّ أنا؟ كيف؟

أجابت: أخبرته بشرطك على سهيل، خطيبك، فأعجبه ذاك كثيراً. ردّ تمسكك بالدين إليّ، إذ إني، على ما قال، أحسنت تربيتك. هكذا... إذا كان فينا ما يحسن تقديره فهو بسبب أبنائنا...

فتقدمت الفتاة وأحاطت كتفي أمها بذراعيها وهي تقول:

ـ أنت جوهرة يا ماما. لا أظن أنور هذا ضعيف الرؤية، ولكنه الحياء هو الذي منعه من أن يقول لي إن أمي، فوق حفظها للشعر القديم وحسن إلقائها له، امرأة فاتنة، مفرطة في الحسن.

تنهدت شاهناز وقالت كالمتحسرة: ما دخل الفتنة والحسن هنا يا دلال؟

قالت الفتاة في مكر: أنا فخورة بأن تكون لي أم بهذا الجمال، وأحب أن يعرف الناس هذا ويلاحظوه... ولا سيما الناس الذين يعجبونني، لسبب أو آخر... الأستاذ أنور مثلاً!

قالت الأم، متظاهرة بعدم الرضى عما تسمعه: لك في بعض الأحيان أفكار شيطانية. من الأحسن أن لا يعرفها هذا الفتى فيقلل من تقديره لحسن تربيتي إياك. في المرة القادمة، حين يقبل دعوتنا ابن صديق أبيك، لن أدعك تتهربين من حضور الغداء أو العشاء لتتركيني وحدي معه.

فتطلعت الفتاة إلى أمها وعلى شفتيها ابتسامة خفيفة، قبل أن تنفتل متوجهة إلى غرفتها. وعند باب البهو استدارت إليها وقالت:

هذا كلام خطير يا أمي. كأنك تخافين الفتنة والغواية. معك حق.
الذنب كله يقع على عاتق الحاج نعمان...

صاحت الأم مستنكرة: دلال!

فأطلقت الفتاة من حنجرتها ضحكة قصيرة قبل أن تتوارى عن أنظار أمها وراء الباب.

- ٧ -

شيء آخر لم يذكره أنور في رسالته الثانية التي كتبها إلى خطيبته بعد التحاقه بعمله. أو أنه أشار إلى ذلك الشيء بلطف محاذراً أن يشغل بالها أو يثير إشفاقها عليه مما لاقاه في حياته الجديدة. وكانت النتيجة أن سميرة وصفت أكثر ما ساءه بأنه أحسن ما أخبرها به، فقالت: أحسن ما في رسالتك هو ما ذكرته عن غرفتك في عمارة موظفي الاستصلاح في المركز!

إنها في الواقع غرفة بائسة تلك الغرفة. ومع هذا فإن الأستاذ صبحي، ذلك الذي حمل إليه بطاقة صديقه المحامي، ألمح له بأنه استخلصها له من براثن الأسد. وهو يعني بالأسد موظف إسكان العاملين في مركز الاستصلاح، المتشدد كل التشدد في ممارسة وظيفته. قال له إن المفروض أن يقطن العازبون من الموظفين في غرف مشتركة، وفي أحسن الأحوال كل اثنين في غرفة واحدة. ولم يجد أنور بداً من القبول بهذه الحجرة الصغيرة الواقعة في مدخل أحد الأبنية السكنية المتعددة الطوابق، وذلك باعتبار أن ليس في الإمكان أبدع مما كان، وفي انتظار ما همس به في أذنه الأستاذ صبحي، أمام موظف الإسكان، من أنه سيجد له عما قريب حجرة أخرى أوسع من هذه وأحسن موقعاً.

وربما كان على أنور كذلك، في حرصه على أن يطلع خطيبته على

كل ما يمر به، أن يتحدث إليها عن الأستاذ صبحي هذا، فيصف لها مظهره وشيئاً من خصائص شخصيته. لو فعل ذلك لأثار انتباهها ولربما ساق إلى شفتيها الابتسام. الأستاذ صبحي رجل في نحو الخمسين من عمره، أقرب إلى القصر منه إلى الطول، أتى الصلع على معظم شعر رأسه فلم يُبقِ منه إلا شريطاً يحيط بجمجمته من صدغ إلى آخر. السواد الفاحم لهذا الشريط، وهو سواد مكتسب من صبغة دائمة التجديد، يتباين كل التباين مع بريق الصلعة الغالبة على هامة الرجل في بياضها المورّد. على أن هذه الصلعة المنيرة المحاطة بهالة سوداء منتظمة الاستدارة ليست أشد ما يستغرب من خلق الأستاذ صبحي. ما كان غريباً حتى الإضحاك فيه هو عرة تنتابه كلما بدأ الكلام، وأحياناً في منتصف حديثه. يتحرك رأسه آنذاك حركة مفاجئة، فيغوص بين كتفيه مندفعاً في هذا الغوص إلى اليسار، ثم يعود عنقه إلى الاستقامة ورأسه إلى الارتفاع، كأنه في هذا مرتبط بنابض يجره ويطلقه خلال ثانيتين أو ثلاث ثوان من الزمن...

لم يملك أنور نفسه من أن يبتسم وهو يرى تكرر هذه الحركة الغريبة من الرجل الذي حمل إليه توصية صديقه، وفكر في أنه سيملأ بوصفها رسالة كاملة إلى سميرة. وإذا كان تكرر هذه الحركة قد جعله يألفها، بل وينتظرها في بداية كل جملة من حديث الأستاذ صبحي، فإن ميله إلى الابتسام منها لم يتضاءل طول فترة بقائه في مكتبه وهو يستمع إلى ترحيبه وإلى ما يسوقه إليه من تعريف في مركز الاستصلاح. قال له:

ـ حسناً. إذن فأنت صديق عزيز لشكيب...

قاطعه الفتى قائلاً:

ـ الصحيح أن معرفتي بالأستاذ شكيب لا تتعدى مرافقة طريق من دمشق إلى حلب، ثم زيارة مني له في مكتبه. إنه رجل كريم. غمرني بلطفه وتبرع بمساعدتي في أمور كثيرة.

قال مخاطبه، ولم يدر أنور أكان قوله سخرية أو موافقة:

ـ يعجبني رأيك في صديقي، المحامي الكبير الأستاذ شكيب مجد الدين... وسكت قليلاً قبل أن يضيف:

ـ أصارحك بأنه حتى بدون توصية من هذا الصديق العزيز سيكون ترحيبي بك كبيراً. أنت شاب تستحق كل خدمة. هذه فراستي بك. طلعتك تجذب الناظر إليك، والحديث الشريف يقول: اطلبوا الخير من حسان الوجوه!

كانت مجاملة غير متوقعة، جديرة بأن تحرج أنور الحيي بطبعه لو أن منطوق الحديث انعكس على الناطق به. قال الفتى في نفسه وهو يتأمل وجه مخاطبه الذي كانت أخاديده تزداد عمقاً كلما غاص رأسه بين كتفيه في عزّته المعهودة: إذن أيّ خير يرجى من صاحب هذا الوجه!؟ إلا أنه ما لبث أن رفع صوته قائلاً:

ـ آمل أن أكون عند حسن ظنك يا أستاذ، وإن كنت أشك في أني أستطيع أن أقدم لأحد خيراً. إذا كان عن العمل، فإني سأبذل جهدي فيه. وبالمناسبة، فإن الأستاذ شكيب نبهني إلى أن إحساني للعمل قد يضرني في بعض الأحيان. أتراه صحيحاً ما قاله؟

نطق بهذا في سذاجة مصطنعة، وهو يذكر عبارة صاحبه المحامي في تلك الأمسية. قال الأستاذ صبحي وهو يبتسم:

ـ هذه واحدة من فلسفات شكيب في أمور الحياة. لا تستمع إليه.

اعتمد عليّ فتجد نفسك في الطريق الذي يرضيك... والذي ينفعك.

قال هذا وخطا من وراء المنضدة المعدنية التي كان يجلس وراءها، وأخذ بيد مجالسه قائلاً:

ـ تعال معي. قبل كل شيء علينا أن نزور معلمنا الكبير، سيادة المدير العام. أخبرتني أن مديرنا كان تلميذاً لوالدك. قد تحتاج إليه يوماً ما، ولكن تأكد من أنه هو محتاج إلينا دوماً...

تطلع أنور وهو يسير إلى جانب مرافقه القصير القامة، ذي الغرّة الغريبة والوجه الذي هو أقرب إلى الدمامة، وقال في سره: ما أكبر ثقته بنفسه!

ويبدو أن هذه الثقة بالنفس، التي تصورها أنور للأستاذ صبحي، لها ما يبررها. تبين له هذا حين رأى مختلف الموظفين في المكاتب، التي مروا أمامها في طريقهم، يحيونه بإشارات أيديهم أو بصوت عال، أو ينادونه في تحبب لا يخلو من احترام. واحد منهم خرج من غرفته ولحق بهما وهما عند مدخل البناء، وأمسك بذراع الأستاذ صبحي مستوقفاً إياه وهو يقول:

ـ ماذا أفعل يا أبا منير؟ قرار المدير العام لم تتبلغه إدارتنا حتى الآن. هل عليّ أن أستدعي المرأة والأولاد من حلب؟

فأجابه أبو منير، وهو الأستاذ صبحي: القرار وقّعه المدير، وستعود إلى وظيفتك وإلى بيتك في حلب. طمئن بالك. أنت تعرف موظفي الصادرة والواردة ما بيننا وبين حلب وكيف تنام رسائلهم في القرية الخراب يومين... عليك بالصبر. من صبر ظفر.

وحينما ابتعد الأستاذ صبحي بأنور قليلاً عند مدخل البناء توقف

للحظة في الطريق الضيقة المرصوفة بإسمنت مقطع إلى مربعات التي تؤدي إلى بناء الإدارة العامة، وقال معلقاً على ما تكلم به مع الرجل:

ـ يضطر الإنسان أحياناً إلى أن يعمل خيراً لمن لا يعرفه. هذا الرجل مثلاً...

وسكت قليلاً فقال أنور في مكر:

ـ كأن على الإنسان أن لا يعمل الخير إلا لمن يعرفه! والدي يردد دوماً أمامنا هذا الجملة: إعمل معروفاً وألقه في البحر...

فغاص رأس الأستاذ صبحي بين كتفيه لثانية واحدة قبل أن يرتفع به عنقه، وقال وهو يتابع سيره:

ـ والدك المحترم عاش في غير زمننا. تكلم عن ناس غير الذين نعيش بينهم، والذين نحن منهم. أما في هذا الزمن، فعمل الخير يجب أن يكون بحساب. لا تعط إلا من أعطاك، أو من تأمل منه أن يعطيك لقاء ما تقدمه له.

قال أنور، بنفس اللهجة الماكرة: ولكنك تعمل الآن معي معروفاً... أنا لم أعطك شيئاً. ومنذ الآن لا تطمع مني بشيء. لا لبخل بي يا أبا منير، ولكني لا أملك شيئاً أعطيك إياه!

فهزّ الأستاذ صبحي كفه أمام وجهه وقال في لهجة جدٌ مصطنعة:

ـ أنا مثل غيري من أبناء هذا الزمن، لا أعمل شيئاً من دون مقابل. حسابي ليس معك، بل مع شكيب مجد الدين، الرجل الذي أرسلك إليّ.

فوضع أنور يده على كتف صاحبه في تحبب، مضطراً إيّاه إلى أن يبطىء في سيره، وقال:

ـ وأنت الذي أسمعتني قبل قليل أني أستحق كل خدمة حتى لو لم أحمل إليك توصية من صديقك؟!

فقال الأستاذ صبحي بعد قهقهة قصيرة: أنت لا تنسى. تعجبني مرة أخرى، وأظننا سنتفاهم جيداً في الأيام المقبلة. كنت أريد أن أكلمك عن الرجل الذي استوقفني والذي صنعت أنا له معروفاً دون مقابل... لندع هذا الآن، وسأخبرك بأمره بعد مقابلتنا للمدير.

وهنا توقف في مكانه وأشار بأصبعه إلى نافذة بعينها في الطابق الأول من بناء الإدارة العامة، ثم ما لبث أن تابع المشي وهو يضيف:

ـ إنه، أعني سيادة المدير العام، إنسان طيب بقدر ما يمكن لمدير عام أن يكون طيباً. سيلقي عليك محاضرة في واجب الموظف حيال الوطن والمواطن. ولأنه شخصياً يعرف هذا الواجب جيداً، فإنه يعرف كيف يتهرب منه. على كل لا تهتم بما يقوله كثيراً، فالمرجع إليّ أنا أبا منير، صاحبك... بل، إذا شئت، عمك.

قال هذا وسبقه إلى دخول رواق طويل في البناء الجديد الذي يشبه البناء الذي جاءا منه. تطلع أنور إلى صاحب هذا التكوين الضئيل الأشوه، الذي يتحدث عن المدراء والموظفين وناس هذا الزمن كأنه عجن الدهر وأهله عجناً. أهو مدّعٍ ثرثار، أم أنه ذو تجربة ومقام يعطيانه الحق في أن يصدر أحكامَه هذه على الصغير والكبير؟ وكأن الأستاذ صبحي كان يقرأ أفكار الشاب وراءه، إذ توقف فجأة والتفت إليه وقال:

ـ قد تكون قويّ الذاكرة، ولكني أطلب منك أن تنسى ما قلته لك، وبصورة خاصة ما قلته عن معلمنا الذي سنراه الآن... أن تنساه ولو موقتاً. هل تجدني صارحتك بأمور لا تتوقع أن يصارحك

بها إنسان لم يعرفك إلا منذ ساعة من الزمن؟ إذا كان هذا فخذه برهاناً على إعجابي بك. تفضل...

واستدار ليخطو بضع خطوات، يقف بعدها على خشب باب مغلق مثبت في وسطه لافتة صغيرة مكتوب عليها: المدير العام.

قبل أن يدير الأستاذ صبحي بكفه أكرة الباب توقفت نظرة من أنور على صلعة الرجل الواقف أمامه، المحاطة بشعره المصبوغ، بسواده الحالك. ثم أحاطت تلك النظرة بجانب وجه الأستاذ صبحي المخدد، وانحدرت إلى عنقه القصير الذي لا يفتأ يغوص ويرتفع بين كتفيه قاذفاً برأسه إلى كتفه الأيسر. صورة ما كان أبعدها عن التناسق وعن الجمال! لم يدر الفتى كيف تداعت إلى ذاكرته في تلك اللحظة صور أخرى وتساؤلات استدعتها تلك الصور. أصحيح أنه كان أمس في مدينة كبيرة، عريضة الشوارع، متسقة الأبنية، وأنه تناول غداءه في دار مترفة، جالساً إلى سيدة رائعة الحسن عذبة الحديث ومعها فتاتها المشيقة القد الأنيقة الملبس، وهما تتباريان في إعزازه ورعايته؟! ما أبعد اليوم عن أمس، وأبعد هذه القرية البدائية عن تلك الدار المترفة، وأبعد سحنة الأستاذ صبحي الجافية هذه عن طلعتي شاهناز وبنتها النيرتين!

هز أنور رأسه بحركة حادة، من اليمين إلى اليسار، كأنه بها يطرد هذه التساؤلات من تفكيره، وخطا وراء الأستاذ صبحي إلى داخل غرفة المدير العام في المركز رقم ٦ من مراكز مؤسسة الاستصلاح.

ـ ٨ ـ

يتكون مركز الاستصلاح رقم ٦، الذي تحتل أحد أبنيته مكاتب إدارة المؤسسة ومكتب الأستاذ فياض مديرها العام، من ست كتل

من المباني المتشابهة، بطابق واحد أو طابقين، بعضها مسبق الصنع وبعضها أبنية اسمنتية. تؤلف هذه المباني ثلاثة أضلاع من مستطيل ينفتح ضلعه الرابع، في الشمال، حراً على النهر. وتفصل تلك الأبنية عن مجرى النهر أرض مزروعة بشجيرات زينة ذابلة في أكثرها، لم تفلح جهود مهندسي المركز الزراعيين في أن تجعل تربة هذه الأرض صالحة لنمو تلك الشجيرات.

والواقع أن شجيرات الزينة هذه كانت دعاية سيئة للمركز رقم ٦ وللمدير العام الأستاذ فياض. إلا أن الإنصاف يقتضي القول بأن هذه النبتات كانت قد اجتلبت وغرست قبل تعيين الأستاذ فياض في مركزه، وبالأحرى قبل نقله من مديرية الآليات في وزارة الزراعة في العاصمة إلى مديرية الاستصلاح في مشاريع النهر الكبير. فلما جاء إلى وظيفته هذه أراد أن يبعث الحياة في هذه الشجيرات الذابلة، وأوكل بذلك اختصاصيي هندسة الحدائق من مرؤوسيه، باعتباره هو مهندس ميكانيكا. رفع أولئك الاختصاصيون إلى رئيسهم تقارير مطوّلة، تحدثوا فيها عن نسب أملاح الكلس والسيليكات ونوعية الغضار في تربة شاطىء النهر، تلك التي تحول دون اختزان الرطوبة اللازمة لنبتات مجتلبة بذورها من الغابة السوداء في ألمانيا في الغرب، ومن جزر أرخبيل اليابان في الشرق، واقترحوا تغيير التربة بكاملها. وعلى الرغم مما أنفق على تبديل الطبقة الظاهرة من الأرض المزروعة، بمختلف أنواع الأتربة، ظلت شجيرات الزينة مضربة عن النمو، تصفر أوراقها المفروض بها أن تكون دائمة الاخضرار وتيبس سوقها وتتقصف أعوادها.

وربما كانت للمهندسين الزراعيين، حملة الشهادات العليا في المركز، آراؤهم في استعصاء هذه الشجيرات على محاولات

إحيائها. غير أن أبا سعدو، آذن مكتب المدير العام وأكبر موظفي المركز رقم ٦ سناً، له رأيه الخاص في ذبول هذه الشجيرات المغروسة على جانبي المسافة الممتدة من أبنية المركز حتى النهر، وفي تهدم جرف النهر مقابل تلك الأبنية رغم أعمال الدعم المستمرة، وفي تحطم أنابيب السقاية بسبب تهدم ذلك الجرف. كان يقول لمتحدثيه، وبصوت خافت أحياناً كأنه يفضي إليهم بسر: تربة وأملاح ونقص رطوبة... كل هذا كلام يضحك به الأفندية المهندسون على ذقن مديرنا... السبب الصحيح لكل ما يجري هو لعنة السيّاد! فإذا سأله سائل: ومَنْ هم السيّاد؟ يجيب: هم أصحاب الأرض التي بني عليها المركز. أخذتها منهم الإدارة غصباً، وسموا الغصب شراء. دفعت لهم ثمن المتر المربع عشرة قروش، في حين أن ثمنه الصحيح عشرة آلاف قرش! هل تظن الحكومة أن اللقمة التي تسرقها من السياد تمر في بطنها مريّة؟... إنها لقمة زقوم!

كل هذا رواه الأستاذ صبحي لأنور، بعد انتهاء مقابلتهما للأستاذ فياض، وهما يسيران بين شجيرات الزينة الذابلة في طريقهما إلى النهر. وأضاف يقول:

ـ أبو سعدو يقول الصحيح. لا أقصد السياد ولعنتهم، بل سرقة الإدارة لأرض السياد. هل هي سرقة؟ الواقع إنها غباء السياد المساكين الذين ما عرفوا كيف يحوزون رضى مأموري التقدير عند استملاك أراضيهم.

قال أنور، بلهجة مرحة:

ـ لا تؤاخذني. لا أعرف أنا من هم السيّاد ولا من هم مأمورو التقدير. ولكن الأستاذ فياض أعجبني. كان لطيفاً في وعده بأن

يسند إليّ وظيفة تريحني. لذلك فإني لا أحب أن يضحك أحد على ذقنه، كما يعتقد الآذن الذي سميته أبو سعدو يا أستاذ.

قال الأستاذ صبحي: أنت سهل الاستمالة يا أنور. يا أنور... تراني أسقطت عنك لقب المهندس، فأسقط أنت عني لقب الأستاذ.

ردّ عليه الفتى قائلاً: أمرك يا أبا منير.

فتابع صاحبه كلامه، بعد أن غاص رأسه بين كتفيه لثانية واحدة: لا بأس. ولكني أكتفي بأن تناديني باسمي المجرد. نعم أنت سهل الاستمالة. ملت إلى مديرنا لمجرد وعد تلفظ به، قد ينفذه وقد لا يفعل. على كل لا بد أن أخبرك بالصحيح عن حكاية أرض السياد، هذه التي تأبى شجرات الزينة أن تنمو فيها. السيّاد يا عزيزي جماعة، أو أنهم عشيرة صغيرة، يؤمن الناس في هذه النواحي بأن لأفرادها ولاية أو كرامات. لعلهم هم يؤمنون بسذاجة بما ينسب إليهم ويتوهمون أن ما من أحد يسرقهم أو يعتدي على حقهم. ولكن إدارتنا الموقرة فعلتها. سرقتهم وفتحت الباب لآخرين ليسرقوهم أيضاً. سرقة أو غصب أو استملاك... النتيجة واحدة.

بلغ أنور ورفيقه في هذه الأثناء الجرف الذي يجري النهر تحته. في غربي الساحة التي تحفها من الجانبين شجيرات الزينة تلك، كان هناك أنبوب معدني كبير القطر يغوص عمودياً في ماء النهر ويمتد أفقياً على ركائز نحو مضخات مركز الاستصلاح ثم إلى حوض السقاية الكبير الذي تتفرع منه سواقي المزارع القريبة من المركز. استند الأستاذ صبحي على زاوية اتصال القسمين الأفقي والعمودي من الأنبوب، عند حافة الجرف، وراح يتابع حديثه إلى أنور كأنه كان يلقي عليه محاضرة أو درساً. قال:

ـ سرقة، أو غصب سمي استملاكاً، من جانب أو هو غباء من

الجانب الآخر، النتيجة واحدة. أنظر من هنا إلى الغرب، غربي الطريق العام، تجد أرضاً أخرى كانت للسياد أيضاً واشتراها أحدهم. هذه الأرض الأخرى استملكناها كذلك بثمنها. اشترتها الإدارة، ولكن من مالكها الجديد... بكم تظننا اشترينا المتر المربع من الأرض الغربية هذه؟

تطلع أنور إلى حيث أشار مرافقه، إلى غربيّ الطريق العام الذي يقع نفسه غربي أبنية المركز رقم ٦. كانت أرضاً فسيحة ومبسوطة، لا شجر فيها ولا زرع، محاطة بأسلاك شائكة. في ناحيتها الجنوبية تلوح من بعيد معالم مساكن واطئة الجدران لا تزال في مرحلة التشييد. قال مجيباً على السؤال الذي طرح عليه:

ـ بكم اشتريتم المتر من هذه الأرض؟ إذا كان بالثمن الذي دفعتموه إلى أولئك السياد فإن الغبن كبير. عشرة قروش مبلغ تافه على ما أعتقد، على قلة درايتي بأسعار الأراضي في هذه المنطقة.

وقبل أن يتيح لصاحبه أن يتابع إلقاء محاضرته أو درسه، أضاف متسائلاً:

ـ هذه الأبنية التي أراها هناك قيد الإنشاء، ما هي؟ أهي لمديريتنا؟

قال الأستاذ صبحي: إنها تخص فرعاً آخر من فروع مؤسستنا. فرع الصناعة الزراعية. سيُنشَأ في ذلك الموقع معملان، واحد للسكر الذي نستخرجه من الشوندر والثاني للزيت الذي نعصره من بذور عباد الشمس. لا تسألني عن الشوندر وعباد الشمس أين هما. إنهما متوفران بكميات هائلة... متوفران في الخطة.

سأل أنور: في الخطة؟

قال الأستاذ صبحي: نعم، في أوراق الملفات التي تملأ رفوف

خزائن المديرية العامة. هذه حكاية أخرى. المهم، المهم أن الأرض تلك، غربي الدرب، التي اشتراها معلمونا من مالكها الجديد، قد استملكت لينشأ فيها هذان المعملان في القريب، ومعامل غيرها في البعيد. وأنا أسألك: بكم تظن أن هذه الأرض المجاورة لأرضنا في المركز رقم ٦ اشتريت؟

ابتسم أنور وهو يرى إصرار صاحبه على أن يعرف تقديره لثمن المتر المربع في البقعة التي يشير إليها، وقال:

ـ ليس لديّ فكرة ما عما تسألني عنه. لعلهم أنصفوا المالك فزادوا السعر قليلاً عما اشتروا به أرض السياد.

قال الأستاذ صبحي: أصبت. إنهم زادوا السعر حقاً، ولكن ليس قليلاً بل كثيراً، وكثيراً جداً. قبض السياد عن المتر في أرضهم عشرة قروش أو فوقها، وقبض الآخرون، أعني المالك الجديد، في المتر من الأرض التي تراها هناك ألف مرة أكثر، وأكثر من ألف مرة. قبضوا يا عزيزي، عن المتر المربع الواحد، مائة وست عشرة ليرة... أعني أحد عشر ألفاً وستمائة قرش!

سكت أنور لحظة، كأنه كان يستعيد في ذهنه الرقم الأخير، قبل أن يقول:

ـ غير معقول. بين عشرة قروش وأحد عشر ألف قرش فرق كبير لسعر مترين من الأرض متشابهين. أليست الأرضان متشابهتين؟

قال الأستاذ صبحي: لا... فبينهما فرق كبير.

سأله أنور: أيّ فرق؟

أجابه: الفرق ليس بين الأرضين، بل بين مالكيهما. بين السياد، وهم مجموعة من السذّج، وبين المدعو أمير غزلان، مالك الأرض

غربي الطريق العام. هذا الرجل كان اشترى تلك الأرض من السياد بالمبلغ نفسه الذي اشترت به الدولة أرضها منهم قبله. أعني بما يقارب عشرة قروش. لقد أقنع أولئك المساكين، بطريقة أو أخرى، بأن هذا هو السعر الرسمي، وأنه إذا دفع لهم أكثر منه فسيعاقب ويعاقبون هم على تجاوز تقدير الدولة.

قاطع أنور صاحبه قائلاً: أهم أغبياء إلى هذه الدرجة، سيّادك هؤلاء؟ ثم إنك قلت إن السياد أولياء، وإن لهم كرامات... ألم تحمهم كراماتهم من الغبن الذي وقعوا ضحية له؟

قال الأستاذ صبحي: عن الكرامات، لم أقل أنا إنها لهم. قلت إن الناس في هذه النواحي يؤمنون بأنهم يملكونها. هناك فرق بين القولين.

قال أنور: وأي نوع من الكرامات ينسبها الناس إلى سيادك هؤلاء، بينما أنت لا تؤمن بها؟

سكت الأستاذ صبحي قليلاً كأنه يراجع نفسه في ما نطق به قبل قليل، ثم ما لبث أن أجاب بقوله:

ـ الصحيح، إني متردد في الجزم في أمر هؤلاء المساكين. جماعة السياد. لهم تصرفاتهم التي يمكنني تسميتها غرائب، وربما عجائب، بينما يسميها الآخرون ولاية وكرامة. لو كان مبعث هذه التصرفات ولاية لحمتهم، كما قلت أنت، من الظلم الذي تعرضوا له.

قال أنور، مستفهماً في إصرار: ولكن هذه الغرائب والعجائب يا أبا منير، أي شيء هي؟

قال الأستاذ صبحي: إصبر عليّ. سآخذك معي إلى حلقات الذكر

التي يقيمها السياد في قريتهم فترى بعينك غرائبهم. لا زلت معي في أول الطريق. إصبر عليّ.

تضاحك أنور وهو يقول: سأصبر يا معلمي. أنا طوع أمرك.

قال صاحبه: أستغفر الله. ولكنك سألتني عن السياد، هل هم أغبياء ليقتنعوا بحجج هذا الرجل، غزلان، في أنه لا يستطيع أن يدفع لهم بالمتر من أرضهم أكثر من هذا المبلغ الزهيد. ربما كانوا كما تقول. وربما كانت هناك طرق للإقناع لا نعرفها أنا وأنت. المهم، مثلما أقنع هذا السيد المحترم السياد بهذا، أقنع مأموري التقدير بأن في الأرض التي تخصّه، والتي هم مكلفون بوضع سعر لها، أقنعهم بأن في أرضه منجم ذهب يمكنه أن يتقاسمه وإياهم. يتقاسمه مع مأموري التقدير أعني. إنه منجم تمتد عروقه من خزينة الدولة إلى جيوب المنتفعين بخيراته من مواطنيها...

وسكت الأستاذ صبحي، فجاراه أنور بالسكوت. انتبه هذا، بعد ما يقارب دقيقة من الصمت، إلى أنه كان في صمته، بدون قصد أو عن تعمد، ينقّل نظراته بين موطىء قدميه على الأرض تحته شرقيّ الطريق العام وبين الأرض البعيدة المحاطة بالأسلاك الشائكة غربيّه. كأنه كان يتساءل في خلده عن الفرق في تكوين الأرضين، الفرق الذي استدعى أن يكون ثمن أحدهما أكثر بألف ضعف من ثمن الأخرى. وانتبه كذلك إلى ابتسامة ارتسمت على شفتيه وهو يقول في سره: هذه محادثة طويلة دارت بينه وبين الأستاذ صبحي نفض فيها معلومات كثيرة ومستغربة على سمعه... ماذا تراه يريد أن يدخل في ذهنه عن سير الأمور في هذا المركز الذي جاءه من أقصى جنوب البلاد، وعن هذه المنطقة التي لم يكن يعرف عنها غير القليل؟ ثم ماذا يهمه عن كل هؤلاء: السياد ومأموري التقدير

والرجل الذي سماه أمير غزلان؟ لا... هو مخطىء في تساؤله، فهذا يهمه حتماً. على الأقل، عليه أن يتعرف على جوانب الحياة في هذه البقاع وليدهش سميرة فيما سيكتبه لها عما اكتشفه من المفارقات فيها!... ورفع رأسه إلى الأستاذ صبحي وقال:

ـ لولا أنك تروي لي كل هذا، يا أبا منير، بلهجة الواثق، ما صدّقته. لا تؤاخذني. أنا قليل التجربة والاطلاع في هذه المواضيع. وأظن أني في عملي في المركز لن أبيع أرضاً أو أشتريها. أريد أن أسألـك... ترى ما هو العمل الذي ينوي المدير العام أن يسنده إليّ؟

قال الأستاذ صبحي: في هذا دعك من المدير العام واترك الأمر لي. هل تعرف ماذا يخطر بباله لك إذا تركناه على هواه؟

فسأله أنور: ماذا تظن؟

أجاب: في المزرعة الوسطى أحيل زميلان لك، مهندسان زراعيان، إلى لجان التأديب بعد أن كفت أيديهما عن العمل. ربما فكّر الأستاذ فياض في أن يعيّنك مكان واحد منهما في تلك المزرعة التي يغرم بعوضها بجلود المهندسين الزراعيين القادمين مباشرة من المدن الكبيرة، لأنهاجلود ناعمة ومورّدة. هذا لا يرضيني. يكفي أنه أبدى استعداده لرعايتك، إذن فهو لن يرفض ما أقترحه لك. عندي لك في قسم الآليات وظيفة مهيأة.

قال أنور في شبه احتجاج: ولكني مهندس زراعي ولست مهندساً ميكانيكياً.

قال الأستاذ صبحي: والأستاذ فياض ميكانيكي. ومع ذلك فإنه يدير أعمال الزراعة هنا على أرفع مستوى. لا تنسَ أن الآليات في

مرائبنا هي آليات زراعية. ألا تريد أن ترى صديقك شكيب بين الحين والحين؟

سأله أنور: وما دخل شكيب بيك بهذا؟

قال الأستاذ صبحي: آلياتنا يا عزيزي في حاجة دائمة إلى إصلاح تعجز عن إجرائه ورشاتنا هنا، أو إلى قطع تبديل لا تتوفر في مخازن المديرية. في كل أسبوع، أو في كل أسبوعين ربما، سنرسلك إلى حلب لتلافي ما ينقص الورشات والمخازن هنا، ولتحمل إلى شكيب تحياتي وتقدم له تقريراً عن حسن رعايتي لك. وسننظر بعد ذلك في أمر ترقيتك إلى وظيفة مهندس زراعي مرشح أن يأكل بعوض المزارع لحم وجهه! أنت في رعايتي يا أستاذ، وعليك أن تطيعني...

قال الأستاذ صبحي هذا وابتعد عن أنبوب المسقى الكبير الذي كان يتكىء على زاويته تارة ويبتعد عنها تارة أخرى، وهو يضيف:

ـ لنعد إلى المركز. في طريقنا نمر بالمرآب الكبير ونجول فيه جولة صغيرة لتأخذ فكرة عن عملك المقبل. غداً أو بعد غد سيضع الأستاذ فياض توقيعه على أمر فرزك إلى إدارة قسم الآليات في مركز الاستصلاح رقم ٦...

ـ ٩ ـ

لم يكن أنور، قطعاً، فتى غبياً. فذكاؤه فوق المتوسط بلا شك، وإن لم يكن مما يمكن وصفه بالذكاء الحاد. فهو يتلقى الأمر الذي يعرض له، أو الفكرة التي تطرح عليه بخاطر هادىء وعقل متأنّ، فلا يحكم على الأمر أو الفكرة إلا بعد مراجعة وتردد. وكانت سميرة تجد في هذا مجالاً للانتقاد الضاحك على خطيبها عندما

تروي له حكاية مرحة من حكايات صفها في الكلية أو نكتة من النكات التي يتداولها الطلاب فيما بينهم. هي، بحيويتها الطافرة وحدة إدراكها، كانت تفهمها «على الطاير» كما يقولون. أما هو فلا بد له من أن يستعيد الحكاية أو النكتة، أو يسكت لحظة بعد سماعه هذه أو تلك، لينفجر بعدها ضاحكاً أو ليعلق على ما سمع تعليقاً مبتكراً ومثيراً لإعجاب خطيبته.

بمثل هذا الهدوء والتأني عاد أنور في مساء ذلك اليوم إلى التفكير بأحاديث الأستاذ صبحي التي سمعها منه في مشوارهما بين أبنية المركز وشاطىء النهر. أليس غريباً من هذا الرجل، في مرتبته غير الرفيعة من الوظيفة وفي طلعته التي تكاد تكون منفرة، أن تكون له هذه الجرأة في التعرض لقضايا خطيرة لا بد أنها، إذا صح وقوعها، تمس أناساً من ذوي الحول والطول؟! ومهما يكن، فمسارعته بالتكلم عن هذه القضايا الخطيرة بوضوح وصراحة إليه هو، أنور، الذي لم تتجاوز معرفته به غير ساعات قليلة، تدل على أحد أمرين: هوائية في طباعه تدفعه إلى نفض معلوماته إلى أول قادم دون أي اعتبار لخطر ما ينطق به، أو ثقة مفرطة بالنفس إلى جانب ثورة على السلوك المعوج من ذوي المسؤوليات يجعلانه يجهر باستنكاره ما لا يرضيه غير متخوف من عاقبة ولا عقاب.

بين هذين الأمرين رجح أنور الأمر الثاني في دافع الأستاذ صبحي إلى الصراحة والجرأة في ما تحدث به. وهذا ما جعله يحس له بتقدير يتجاوز ما يدعو إليه مظهره وشذوذ تكوينه من الاستهانة أو السخرية. بل إنه، أي أنور، أحس بخجل من أنه، في بعض اللحظات، همّ بالضحك من عرّة الأستاذ صبحي في بدء كلامه أو نهايته، وهو الذي يحيطه بكل رعاية ويعتبره كفؤاً لأن يحدثه عن

تجربته في الحياة ومعرفته بالأمور. وقد آثر، وهو يحرر رسالته تلك إلى سميرة ونفسه تحدثه بأن يخبرها خبر الأستاذ صبحي، آثر أن يرجىء الكلام عنه إلى رسالة لاحقة، يكون قبلها قد اطمأن إلى تحقق ما وعد به من أمر تعيينه في المكان الذي ذكره له. سيدهشها عند ذاك بوصفه لها أسلوب هذا الإنسان الطيب، المتميز في الوعد والتنفيذ مثل أسلوبه في التحدث عن الناس في مجتمعه، سواء كانوا رؤساء أو مرؤوسين، مستغِلِّين أو مستغَلّين.

وحقاً لقد وضع الأستاذ فياض، كما ذكر الأستاذ صبحي، توقيعه على قرار ندب المهندس الزراعي السيد أنور عرفان لوظيفة مدير للآليات في رحبة النقل والصيانة والري في المركز رقم ٦ من مراكز المؤسسة العامة للاستصلاح... تلك الآليات التي لفتت نظر أنور بكثرتها وتعدد أنواعها حين زار مرآبها الكبير في نهاية مشوارهما إلى النهر قبل ثلاثة أيام. في تلك الأيام التي سبقت صدور قرار المدير العام صحب الأستاذ صبحي فتاه مرتين إلى ذلك المرآب، وإلى أقسام الرحبة الأخرى، ليعرفه بما سيعهد إليه من تجهيزات، وبالموظفين الذين سيكون رئيساً لهم من سائقي جرارات وبلدوزرات وعربات تراكس وكريدر وباكر، من مجنزرة ومدولبة، مما تضمه الرحبة إلى جانب سيارات الركوب الصغيرة والكبيرة فيها. وكأن الأستاذ صبحي، بهاتين الجولتين، كان يريد أن يبين لصاحبه أن ما ذكره من توقيع قرار تعيينه أمر مفروغ منه. وإن تأخر يوماً أو يومين عن الموعد الذي ذكره. بل إنه في زيارتهما الثانية للمرآب وقف به أمام سيارة ركوب بيضاء، من طراز بيجو، وسأله وهو يدفن عنقه بين كتفيه ويطلقه بعرته المعهودة:

ـ هل تعجبك هذه العربة؟

قال أنور متسائلاً: تعجبني؟ إنها سيارة مثل غيرها. لماذا تريد أن تعرف رأيي بها؟

فأجابه: لأنها سيارة مدير الآليات في الرحبة... سيارتك!

تبسم أنور وقال في سرّه: إنه متأكد من هذا الذي يعلمه به! ولم يملك أن يحول دون ارتداد نظره إلى العربة متأملاً إياها، متصوراً، بين الشك واليقين، أنه أصبح مالكاً متصرفاً لها...

في آخر تلك الزيارة الثانية لم يكتف الأستاذ صبحي بجولته في ساحات الرحبة وبين مكاتبها مع أنور، بل دار به حول سورها الطويل من خارجه، سائراً بتأن، كأنه كان يتفقد سلامة أجزاء ذلك السور ومتانة عمارته. كان بناء الرحبة الواسع، والمرآب أحد أقسامه، مبعداً عن مستطيل الأبنية الإدارية للمركز رقم ٦، وفي جنوبي ذلك المستطيل، ومحاذياً للطريق العام الذي ينتهي في الشمال بكوع يجعله موازياً لشاطىء النهر. إلى الغرب من الطريق العام، وفي غرب مستطيل الأبنية الإدارية وأبنية الرحبة في الوقت نفسه، تقع الأرض المشتراة لصالح مديرية الصناعة الزراعية من جماعة السياد، تلك التي روى الأستاذ صبحي حكاية استملاكها لصاحبه قبل يومين. لفت نظر أنور، في غربي الطريق العام، جنوبي أرض الصناعة الزراعية، بناء كبير من طابقين، مطلية جدرانه بترابة حمراء، لا نوافذ كبيرة في جدرانه بل فتحات صغيرة كأنها منافذ تهوية. كانت تحيط بذلك البناء صفوف من غرسات شجر تبدو حديثة الزرع، أكثرها في المساحة غربي الطريق في المجال الذي يفصله عن البناء ذي الطابقين. قال أنور مستفهماً:

ـ هذه عمارة مستكملة في أرض مديرية الصناعة الزراعية، وليست كالعمارتين غير المنتهيتين هناك. لا بد أنها أحد معامل هذه المديرية.

قال الأستاذ صبحي، وهو يسير في اتجاه الطريق العام: الحق معك في أنها عمارة مستكملة، وفي كونها بناء لمعمل. ولكنك أخطأت في قولك إنها من معامل الصناعة الزراعية، قائمة في أرضها.

فسأله أنور: لمن هي إذن؟

أجاب: إنها للسيد أمير غزلان... الرجل الذي استملكت منه الصناعة الزراعية أرضها هذه، واستبقى هو فيها له قطعة يستخدمها كمسمار جحا. هذا حديث آخر ستعرفه مني، أو تعرفه بنفسك في يوم مقبل. إذا طالت إقامتك بيننا لا بد أن تجد أمير غزلان في طريقك في واحدة من المناسبات، أو في أكثر من واحدة. يومها، سأضع لك الدرجة التي تستحقها في الامتحان.

نطق الأستاذ صبحي بهذا وهو يتجه بنظره غرباً، إلى حيث كان البناء موضوع الحديث، دون أن يتطلع إلى أنور. لمس هذا في لهجة صاحبه مزيجاً من السخرية والتحدي، وحدثته نفسه أن يسأله عن الامتحان الذي ذكره ما هو. إلا أنه، كعادته في التروي في التفكير وفي التعليق على ما يسمعه، سكت لعدة ثوان لم يترك له الأستاذ صبحي بعدها مجالاً للكلام. فقد استدار وأخذ بيده، جارّاً له، وهو يقول:

ـ لنعد إلى المكاتب. أمامي أنا عمل كثير. وأنت كذلك، عليك أن تثبت وجودك في الإدارة قبل أن تتسلم وظيفتك المقبلة.

لم يدرِ أنور، عند عودته إلى أبنية الإدارة وإلى الغرفة التي كانت واحدة من غرف عديدة مفتوحة أبوابها على جانبي رواق ضيق وطويل، لم يدرِ ماذا يفعل وراء المنضدة التي جلس على كرسيها. كانت هي الغرفة التي قاده الأستاذ صبحي إليها أول أمس، بعد أول جولتيهما في الرحبة، وعرّفه فيها على اثنين من الموظفين سبقاه

إلى الجلوس فيها. شعر بمثل الحرج أن يقعد مكتوف اليدين بلا عمل، بينما كان زميلاه غارقين بين الأوراق والملفات. رفع أحدهما، واسمه، كما عرفه من الأستاذ صبحي، هاني، عينيه عن خارطة مبسوطة أمامه كان يقارن بينها وبين أوراق ملف بجانبها وقال مرحباً بأنور:

ـ أهلا بالباشمهندس. سيكارة؟

ومد يده بعلبة لفائف أخرجها من جيب قميصه. ولما اعتذر أنور بأنه لا يدخن، قال:

ـ كأس شاي إذن...

ابتسم أنور وقال معترضاً: شكراً. أراك يا أخي هاني تعاملني كأني ضيف في هذا المكتب. ربما لأني أجلس معكما بلا عمل. هل أستطيع المساعدة بشيء؟

فرفع الموظف الآخر، وكان يحتل جانب الغرفة مواجهاً المنضدة التي جلس إليها أنور بينما كانت منضدة هاني تتصدر المكان، رفع رأسه وقال في لهجة مرحة:

ـ طبيعي أنك ضيفنا. كل زملائك من المهندسين الزراعيين جلسوا إلى هذا المكتب في المرحلة الانتقالية، بين وصولهم إلى مركزنا رقم ٦ وانتقالهم إلى المزارع النموذجية أو إلى العمل في حقول التنمية. هذه الغرفة خصصناها للضيوف... لذلك تراها خفيفة نظيفة، وترى من حقك علينا أن نسقيك كأس شاي. سأنادي للآذن. يا مرعي...

قال أنور، مجارياً الموظف الآخر الذي كان يعرف أن اسمه أحمد في مرحه:

ـ شكراً مرة أخرى. لست من المغرمين بالشاي، والقهوة شربتها قبل قليل مع الأستاذ صبحي في الرحبة.

قال أحمد: كما تشاء. سمعتك تسأل عن إمكانية المساعدة. إعمل معروفاً إذن ودقق معي هذه الجداول. اعتبرها أجرة إقامتك الموقتة في هذه الغرفة، معنا نحن الكتبة... نحن عمال القرطاسية بينما أنتم، يا معشر المهندسين، كتائب الإبداع والإنتاج.

لم يستأ أنور من اللهجة الساخرة لأحمد في ما نطق به من عبارات، بل ابتسم وخطا نحو المنضدة التي تكومت فيها الملفات والمخططات، مرتاحاً إلى أنه وجد ما يشغله فيما بقي من وقت الدوام. وفي هذه اللحظة ارتفع صوت هاني يسأله:

ـ تقول إنك كنت في الرحبة مع الأستاذ صبحي... ماذا يفعل مهندس زراعي في مجمع للآليات الهندسية والميكانيكية الثقيلة؟

قال أحمد معترضاً: وما يدريك؟ لعل المدير العام، في اهتمامه الكبير بزيادة المساحات المزروعة يريد أن يحول المرآب وساحات الرحبة إلى مزرعة نموذجية وأن يضمّن ذلك إحصائية هذا العام التي نعمل أنا وأنت في إعدادها الآن...

أمسك أنور لسانه عن الاجابة التي هم أن يردّ بها على تساؤل هاني، والتي كان يريد أن يشير فيها إلى توقع تعيينه مديراً لشعبة الآليات في المركز. فطن إلى أن هذه معلومات، عدا أنها لم تصبح واقعاً بعد، يجب أن لا تذاع قبل أن تدخل في حيز التنفيذ. ولا سيما بعد أن لمس في لهجة هاني المستغربة أن وجود مهندس زراعي في مصلحة الآليات أمر غير مألوف. هذا دليل آخر على أن الأستاذ صبحي ذو باع طويل في تصريف الأمور في المديرية،

وعلى أنه يوليه، هو أنور، رعاية غير عادية يخرجه بها عن المألوف في اختصاصه له بهذه الوظيفة. وهز كتفيه وهو يقول لنفسه: كل هذا سابق لأوانه! ثم ما لبث أن رفع صوته وهو يسأل أحمد:

ـ أين هذه الجداول التي تريد أن أدققها معك؟

ـ ١٠ ـ

من أنور إلى سميرة

سميرتي، عزيزتي:

يحسن بي أن أرقّم مكاتيبي إليك حتى لا يضيع ترتيبها في ذاكرتي. هل هذا هو المكتوب السابع أم الثامن منذ قدمت أوراق اعتمادي إلى الرفيق المهندس فياض في مركز الاستصلاح رقم ٦؟ لا يهم. ولا تستغربي حين أسميها أوراق اعتماد. أشعر هنا بأني الممثل الوحيد لعاصمة البلاد في هذه البقعة النائية. كأني سفير للشوام، الدماشقة، فيها. حتى الرفيق المدير العام الذي جاء حقاً من وظيفته في العاصمة، ترفيعاً أو تقليعاً، ليس في الواقع دمشقياً أصيلاً. إنه مجرد وافد كان قد جاء العاصمة من إحدى قرى الريف في الجنوب ثم قذف به إلى واحدة من قرى ريف الشمال.

أخشى إذا استمررت في هذا النوع من الكلام أن يصدق عليّ ما يؤخذ علينا نحن أبناء دمشق من عصبية أنانية لمدينتنا واستهانة واستغلال للآخرين من أبناء المدن والقرى والبوادي في قطرنا. مساكين نحن... حتى في حاراتنا العتيقة من دمشق صرنا أغراباً. ومع ذلك نظل متهمين بأننا نستأثر بخيرات البلاد التي تنصب في بالوعة مدينتنا. الله أعلم إلى أيّ الأفواه تتفرع شعب تلك البالوعة...

ترين أني أهذي اليوم هذياناً لم تألفيه مني. ذلك لأن بي رغبة في كلام كثير لا أجد من يستمع إليه، أو من يستحق أن يسمعه مني، غيرك. ربما ضحكتِ مما أرويه لك وربما رثيتِ لي، وربما شمتِّ بي. أتذكّر كيف تلقيت أنت عزمي على قبول الوظيفة في الشمال البعيد بالاستنكار واتهمتني بأني ضعيف الشعور بتعلقك بي، وكيف حذرتني من أناس لا أعرفهم ولا يعرفونني، ولا أفهمهم ولا يفهمونني، في هذه المنطقة، وكيف كنت أضحك من حججك واحتجاجاتك... أما الآن!

على كل حال لن أترك لك مجالاً للشماتة بأن أقول لك إني نادم. لعلني أندم لولا حظي الحسن الذي كتبه الله لي بدعوات الوالدة حفظها الله، وبدعواتك أنت بلا شك يا عزيزتي، حفظك الله ومتعك بصباك وجمالك... وبحبي لك! هذا الحظ الذي جعل أول من أتعرف عليهم أشخاصاً من طراز رفيق السفر الأستاذ شكيب وصديقه الرجل العجيب الذي كتبت إليك عنه أكثر من مرة، الأستاذ صبحي.

نعم، الأستاذ صبحي مرة أخرى. في رسالة سابقة وصفت لك شكله غير المتناسق وعزّته الغريبة، حين يغوص رأسه بين كتفيه مائلاً إلى اليسار ثم لا يلبث أن يبرز كأنه مدفوع بنابض، عندما يبدأ الكلام وعندما ينهيه وأحياناً عندما يريد أن يثير الاهتمام. قد يبدو تكوينه لبعض الناظرين أشوه، أما أنا فإنه يبدو لعيني أحياناً كأنه بدر الدجى. إنه رجل يعرف كثيراً، وهو قادر كثيراً. يعرف كثيراً، لا شك في ذلك. أما قدرته، فهي تبدو لي أحياناً في الأوج، وفي بعض الظروف أراها على غير ما كنت أحسب. وإلا لماذا لا يستخدم قدرته في الحيلولة دون ما أراه يستنكره وينقم عليه من

الشذوذ والاعوجاج في مختلف المصالح في المركز رقم ٦؟ ترى هل هذا لأن لقدرته حدوداً لا يستطيع تعدّيها؟ إنه، إذا كان الأمر هكذا، معذور. كلنا يعرف أنه مثل ما «فوق كل ذي علم عليم» فإنه «فوق كل ذي قدرة قادر». فكيف إذا كان ذو القدرة هذا، في أصله، مجرد موظف علاقات عامة ليس لتوقيعه من الناحية الرسمية صلاحية في الحل والربط؟!

الأستاذ صبحي، وأظنني أخبرتك بذلك قبل الآن، مدير للعلاقات العامة في مركزنا. إذا كانت هذه الصفة تعطيه الإمكانية التي يطلع بها على الشاردة والواردة في المركز فإنها لا تخوّله أي نوع من القدرة على الأمر والنهي في تسيير الأمور. وهذا ما جعلني أستغرب تدخله الدائم والفعال في إبرام تلك الأمور أو في نقضها. على أن ما أستغربه أنا يعدّه غيري في محيط مديريتنا أمراً مألوفاً، لطول ممارسة الأستاذ صبحي لهذا التدخل وقبول المشتركين في فعاليات المركز به. من أمثلة هذه الممارسة، الاجتماع الذي حضرته ضحى اليوم في مكتب إدارة العلاقات العامة، والذي أصر الأستاذ صبحي أن أكون فيه معه، في استقبال وفد من فلاحي قرية مجاورة، جاؤوا يعرضون شكواهم لمديرية المركز بادئين مراجعتهم بالأستاذ صبحي.

لماذا أصر أبو منير، الأستاذ صبحي، على أن أحضر هذا الاجتماع معه؟ هل فعل ذلك ليعطيني فكرة عن تقدير الآخرين لنفوذه، أم ليطلعني على مشاكل مركز الاستصلاح مع الناس في هذه الناحية ومشاكلهم مع مركز الاستصلاح؟! إنه يريدني دائماً إلى جانبه، وفي أمور لا تتصل بقضايا الرحبة وآليات النقل أو الهندسة أو الزراعة. كأنه يتخذني بهذا تلميذاً له يتعمّد أن يعرّفه بجوانب

الأمور ويطلعه على خوافيها التي لا تبدو للعيان. من ناحيتي لم أجد حتى الآن في صحبته ما يملّني، بل وجدت ما يشوقني ويرضي فضولي ويفتح عيني على أشياء لم أكن أعرفها من أحوال الناس ومصالح الدوائر هنا. ومن هذا اجتماع صباح اليوم في مكتب العلاقات العامة.

عزيزتي... قلت لك في أول الرسالة إن عليك أن تتحمليني في هذياني اليوم. أرجو على كل حال أن لا أكون ألهيتك عن قراءة أشعار لامرتين وفيكتور هوغو في دراستك للأدب الفرنسي. أنا واثق من أن ما من واحد من الفلاحين الذين جاؤونا اليوم سمع باسم هذين الأعجميين. ماذا يهمهم من اللغة الفرنسية وشعرائها، ومن الشعر كله، في ركضهم وراء لقمة الخبز في هذه البقعة الجافية؟ هالة الاحترام والنفوذ هنا ليست للشعراء. إنها لأمثال الأستاذ فياض بين المدراء والكبار، والأستاذ صبحي وأمثاله ممن هم بتماس معهم يومياً، ولهذا الإنسان الذي جاؤوا إلى المركز يشتكون من تصرفاته ضدهم. جاؤوا يقولون إن طريقاً عاماً كانت تسلكه نساؤهم ويسلكه أطفالهم، وتمر به دوابهم وأحمال دوابهم، قد قطعه عليهم بنفوذه هذا الإنسان المحترم الذين جاؤوا يشتكون منه، والذي اسمه السيد أمير.

لست أعرف الشخص المشتكى منه هذا. عندما قص الفلاحون للأستاذ صبحي شكواهم منه وسموه باسمه. تذكرت أن أبا منير ذكر هذا الاسم أمامي مرتين على الأقل، وبلهجة تفيد على أنه لا يحمل له تقديراً كبيراً. قال إن هذا الرجل كان اشترى مئات من دونمات الأرض من قرويين اسمهم السياد بثمن بخس، وأن الدولة، أو إحدى مديرياتها، اشترتها منه دافعة له بها سعراً خيالياً من حيث

ارتفاعه لا يتناسب بشيء مع السعر الذي استملكت به الدولة أرضاً تماثلها من السياد أنفسهم، وهذا السعر الأخير خيالي أيضاً ولكن من حيث انخفاضه وضآلته. من هذا الاختلاف، بين ما دفع للقرويين وما دفع لهذا الرجل، ارتفعت رائحة عفنة جديرة بأن تزكم الأنوف. ولكن الذين عليهم أن يشموا وضعوا المناديل على أنوفهم لئلا تزعجهم الروائح المؤذية. هذا التعبير ليس لي. إنه التعبير الذي استخدمه الأستاذ صبحي في الحديث عن السيد أمير وصفقاته مع مقدري الأسعار في بعض دوائر الدولة...

كأني بك الآن تقولين: أفٍّ منك يا أنور... ما هذا الذي تشغلني به عن قصائد لامرتين وهوغو؟ فلاحين اسمهم سيّاد وإنسان، لعله شيطان، اسمه أمير والأستاذ صبحي الذي هو أبو منير! ماذا يهمني منهم كلهم؟! اصبري عليّ قليلاً يا ضياء العين. بقيت سطور قليلة لتستريحي بعدها من ثرثرتي. ألست أنت التي تطالبينني بأن أعرفك بكل ما يمر بي؟

لقد تبينت في آخر الأمر أن قضية السيد أمير وشكوى السياد عليه ليست، كما ظننتها في البداية، بعيدة عن مهام عملي. وإن واجباتي كمدير للآليات ومشرف على رحبتها تجرني إلى الاهتمام بهذه القضية جراً. كيف؟ سأعفيك من ذكر التفاصيل الآن لئلا أثقل عليك بأكثر مما فعلت. لا بد أن أعود إلى التحدث عن هذا الموضوع في وقت آخر. فأنا أتوقع أن يكون أحد مشاغلي في الأيام الآتية، ولا بد لك من أن تشاركيني به، ولو بمعرفته وتمنياتك الطيبة لي فيه.

قبل أن أنهي هذه الرسالة أود أن أخبرك شيئاً ترددت في الحديث إليك عنه في أول الأمر. خشيت أن أتعرض منك لثورة كالتي ثرت

بها عليّ حين تكلمت لك عن السيدة شاهناز وبنتها وابنة أخيها. جاءتني مؤخراً رسالة من عائلة الحاج نعمان!... ليست من زوجته على كل حال، بل من ابنه ربيع. يعتذر الفتى في رسالته عن تخلفه عن الاجتماع بي تلك المرة، ويرجوني أن أسأل عنه فيما إذا كانت لي زيارة لحلب في خلال هذين الأسبوعين. سيبقى في المدينة هذه المدة وهو حريص كما يقول، على أن نلتقي أثناء ذلك. ما رأيك؟ على كل حال، ليطمئن بالك. أعمال الرحبة وجداول تنقلات الآليات الثقيلة ومركبات النقل لا تترك لي وقتاً لحك رأسي. لذلك فأنا باق في المركز رقم ٦ طيلة الأسبوعين القادمين ولأكثر منهما بلا شك.

كفاني هذا. لم أسألك سؤالاً واحد عن أحوالك. اعتبري كل ما كتبته مقدمة لسؤال مثل هذا... كيف حالك؟ أما تزالين تذكرينني؟

كل الشوق، وكل الحب.... من

أنور

حاشية مستدركة: لا بد أن أضيف إلى ما قلته أن من يسمون السياد أناس بسطاء، يقتلهم الفقر، إلا أن الناس في هذه المنطقة يعتقدون بأنهم أولياء لهم كراماتهم التي يبرهنون عليها في حلقات ذكر يقيمونها بين الحين والحين. لما قلت لأبي منير: إذا كانوا كذلك، فلماذا لا يستفيدون من كراماتهم في أخذ حقهم من ظالميهم؟ هز أبو منير كتفيه وقال: إسألهم! أن يكونوا أولياء لا يمنع أن يكونوا أغبياء! وقال لي: سآخذك معي في ذات يوم إلى قريتهم لأحضرك إحدى حفلاتهم. انتظري إذن مني وصفاً لتلك الحفلة. هذا إذا وفى أبو منير بوعده، وأنا واثق بأنه سيفعل.

- ١١ -

أبت الظروف إلا أن تكذّب أنور فيما كتبه إلى خطيبته من أن أعمال الرحبة وجداول تنقلات الآليات الثقيلة والخفيفة تحول بينه وبين إجابة دعوة الفتى ربيع، ابن الحاج نعمان، إلى زيارته في حلب. ففي اليوم الذي تلا وضعه رسالته إلى سميرة في البريد جاءه المعلم شاهين، أحد رؤساء الورشات في الرحبة، ليقول له إن التراكس ـ الباكر رقم ٣، الآلية الضخمة ثنائية الغرض، قد انكسر أحد المحاور فيه، وإن إصلاحه لا يمكن أن يتم في رحبة المركز، فلا بد من نقله إلى حلب ليصلح في رحبة المشاريع الكبرى أو في إحدى ورشات القطاع الخاص في المدينة الكبيرة. وكان رأي المدير العام، منقولاً على لسان الأستاذ صبحي، أن لا يترك أمر التبديل أو الإصلاح إلى سائق عادي أو للمعلم شاهين نفسه، بل أن على مدير شعبة الآليات بالذات، يعني المهندس أنور، أن يشرف على نقل الآلية مرافقاً لها وأن يتخذ الإجراءات اللازمة لعودتها إلى العمل في أسرع ما يمكن من الوقت وبأقل ما يمكن من النفقات.

هذه كانت أول مهمة خارج مركز الاستصلاح رقم ٦ لأنور. أفهمه الأستاذ صبحي أن المعلم شاهين، الذي سيرافقه كسائق لسيارة البيجو، على دراية كاملة بكل ما يحتاجه إصلاح التراكس ـ باكر، وأن عمله هو ينحصر بالإشراف والتأكد من أن ما ينفق على الآلية مطابق لمقتضى الحاجة. ولم يفت الأستاذ صبحي أن يشير إليه بأن هذه واحدة من الفرص التي كان ذكرها له بأنها تروّح عن نفسه من إقامته الخشنة في مركز الاستصلاح وتتيح له أن يرى الأستاذ شكيب فينقل إليه تحياته ويبلغه بأنه لم يقصر في رعايته، هو أنور. وفي سرّه، أضاف أنور أن هذه الفرصة ستسمح له

فوق ذلك بالتعرف على ربيع وإجابة دعوته، بعد أن همّ بالكتابة إليه معتذراً عن عدم تمكنه من لقائه في الفترة التي عيّنها له.

قال له المعلم شاهين، ويده على المقود، وهما يخرجان بالسيارة من المركز إلى الطريق العام باتجاه حلب:

ـ هل تحب أن أعطيك مكاني لتسوق السيارة يا أستاذ؟

قال أنور: ليس الآن. أنت سائق ماهر، وما أنا من الذين يتضايقون من ركوب سيارة لا يسوقونها بأنفسهم. في حلب سأريحك منها إذ آخذها منك هناك. كم تظن مهمتنا تأخذ من الوقت يا معلم؟

قال المعلم شاهين: لن يصل سائق الشاحنة الحاملة للباكر قبل طلوع الفجر. يجب أن نضع في الحساب أن الإصلاح لن يتم غداً. لا بد من يوم آخر، إذا لم يكن أكثر من يوم. سأتركك أمام رحبة المشاريع الكبرى، وفي صباح غد نلتقي إن شاء الله. إذا سمحت إعطني اسم فندقك. قد نحتاج إليك قبل أن تأتي إلينا.

قال أنور: بل توصلني بنفسك إلى الفندق لتعرف مكانه ولأعطيك رقم هاتفه.

وهكذا كان. كانت الشمس قد قاربت المغيب حين ترك المعلم شاهين السيارة في عهدة أنور أمام الفندق نفسه الذي قاده إليه الأستاذ شكيب في أول قدومه. تفقد الغرفة التي أعطاه مفتاحها موظف الاستقبال ونزل إلى الشارع وفي نيته أن يتمشى في أسواق المدينة، في انتظار أن يحين موعد مجيء المحامي إلى مكتبه القريب. كان عليه أن يبدأ بزيارة صاحبه هذا كما وعد الأستاذ صبحي، وسيكون له بعد ذلك متسع من الوقت ليتصل بدار الحاج نعمان ورؤية ربيع، ما دام حراً كل الأمسية.

هتف به الأستاذ شكيب مرحباً حين دلف إلى مكتبه، وكانت الساعة قد تجاوزت السادسة بيضع دقائق، قائلاً:

ـ أهذا أنت؟! أرى صبحي لم يراع توصيتي بك. كنت أنتظر أن يعيدك إلينا بعد يومين من وصولك إليه.

قال أنور: بالعكس يا شكيب بك. عناية الأستاذ صبحي بي فوق ما كنت أقدّر، وفوق ما أستحق. الفضل كله لك. جئت إليك مباشرة لأشكرك، ولأحمل إليك تحياته الحارة.

قام المحامي من وراء منضدته فاقترب من أنور وقال له وهو يربت على كتفه:

ـ حسناً، وأهلا بك. طبّق هذا الرجل عليك سحره كما طبّقه على الآخرين فصرت تغفر له سيئاته. لماذا طالت غيبتك إذن؟ هل أعجبتك الحياة في تلك الصحراء؟

ردّ الفتى قائلاً: صحراء؟ حقاً هي ليست جنات وبساتين، ولكنها ليست صحراء أيضاً. وهناك الأستاذ صبحي والمعرفة التي أتزود بها من تجاربه ومعلوماته.

قال المحامي ضاحكاً: ما شاء الله... ما شاء الله! أصبح صبحي يفيض بالمعرفة حتى على خريجي الجامعة من أمثالك.

قال أنور: إذا لم تخنّي ذاكرتي فإنك قلت لي إن عليّ أن أتعلم من الأستاذ صبحي أشياء كثيرة...

مرة أخرى أطلق المحامي ضحكة قصيرة، وقال: أنت لا تنسى شيئاً. ستخبرني بالعلم الذي لقنك إياه في فرصة أخرى. أما الآن فقل لي: ما رأيك بأن نتعشى معاً؟ ليس في الدار بل في النادي.

تردد أنور في الجواب. فكّر في أن عليه أن يتصل بربيع ويتفق وإياه

على موعد لقاء. على كل حال لن يأخذ عليه لقاؤه بابن الحاج نعمان كل الأمسية، هكذا قال لنفسه. وتابع المحامي عرضه قائلاً:

ـ لا تفكر بالاعتذار، ما دمت وصلت الآن فأنت لم ترتبط بموعد بعد. ما رأيك في أن ترجع إلي في الثامنة والنصف؟ حتى ذلك الحين أكون أنهيت شغلي هنا. النادي ليس بعيداً... يمكننا أن نقصده مشياً على الأقدام.

لم يجد أنور بداً من قبول الدعوة، فحيا الأستاذ شكيب مودعاً وانفتل عائداً إلى الفندق.

في الفندق أعطى عامل المقسم رقم هاتف منزل الحاج نعمان وطلب إليه أن يصله به في غرفته. وحين رنّ جرس الهاتف في الغرفة ورفع السماعة ملأت أذنه أنغام موسيقى كانت تبث قرب الجهاز، ثم علا على الأنغام صوت نسائي:

ـ آلو... آلو.

كان صوت الفتاة، دلال، التي ما حياها وعرفها بنفسه حتى سمعها تنادي أمها:

ـ إنه أنور يا أمي.

ومضت ثوان تناهى إليه بعدها صوت السيدة شاهناز تقول له، وبحرارة:

ـ أهلاً أنور بك. الحمد لله على السلامة. أطلت الغياب علينا.

ردّ عليها شاكراً وسائلاً عن الأستاذ ربيع. سكتت محدثته وخفتت الأنغام التي كانت تتسرب إليه من الهاتف، مما يدل على أن السماعة في الجانب الآخر قد حجبت لئلا يصل إليه من خلالها

الكلام المتبادل بين الأم وابنتها. ومرت ثوان عديدة قبل أن ترد عليه السيدة شاهناز قائلة في عجل:

ـ نعم، ربيع... أخبرني أنه كتب إليك معتذراً عن تخلفه تلك المرة، وليدعوك. سيسر حتماً بقدومك اليوم. إنه الآن في الضيعة. نرجو أن لا يشغله شاغل هناك فيتأخر عن المجيء، فنحن ننتظره على العشاء... وأنت تتعشى معنا طبعاً.

لم يتعجل أنور في الرد. ليس من المؤكد إذن حضور ربيع هذا المساء... لحسن الحظ هو مرتبط بموعد صاحبه المحامي. سيوفر عليه هذا اعتذاراً كاذباً عن عدم حضوره وليمة يكون فيها، مرة أخرى، وحيداً مع نساء دار الحاج نعمان. قال أخيراً:

ـ يؤسفني يا سيدتي أن لا أستطيع أن أكون معكم هذا المساء. سبق أن ارتبطت بموعد على العشاء مع صديق لي. لعلي ألتقي بالأخ ربيع غداً.

ردّت عليه قائلة: إذن، سبقنا إلى دعوتك اليوم غيرنا. لا بأس. موعدنا غداً على الغداء. أليس كذلك؟

فأجابها قائلاً: ولا هذا يا سيدتي، مع الأسف. في الغد أنا مرتبط بمهمة عمل لا أدري متى تنتهي. ربما حجزتني حتى المساء. يكفيني أن أشرب فنجان قهوة مع النجل الكريم في دارك العامرة مساء.

انقطع عنه صوتها لثوان تصور أنها كانت تتبادل النظرات أو الكلمات، فيها مع ابنتها. وما لبثت أن عادت إليه تقول، متضاحكة.

ـ ما هذا يا عزيزنا أنور؟ كأن الأكل عندنا لم يعجبك تلك المرة. في هذه المرة لن أعتمد على الطباخة سأهيىء الطعام بيدي.

أجابها، بنفس اللهجة المتضاحكة: ولا كل هذا يا سيدتي. ما يسرني هي رؤيتكم أما الأكل...

وتوقف عن الكلام. قالت له: حسناً. لا أدري لِمَ لمْ تكمل ملاحظتك عن الأكل. يبدو أنك تحفظ بيتاً يتكرر في قصص ألف ليلة وليلة، سأقرأه عليك حين تتفضل وتزورنا. سأعفيك من الغداء والعشاء، ولكني لن أعفيك من الزيارة. ذكرتني دلال بشيء نحن في انتظارٍ له غداً مساء. ألست باقياً ليلة الغد؟

قال: نعم. ليس من المنتظر أن ينتهي إصلاح الآلية التي جئت بها نهار الغد.

قالت: اتفقنا. نحن في انتظارك في التاسعة من مساء الغد. إذا شئت أن تتعشى في المطاعم قبل أن تأتي فأنت حر. لن نتكلف من أجلك شيئاً. سنذهب بعد أن تأتي معاً إلى...

وسكتت فجأة دون أن تتم جملتها. سأل هو:

- إلى أين نذهب يا سيدتي؟

فارتفع صوتها قائلة: لن أخبرك. إنها مفاجأة.

فسألها مرة أخرى: وربيع، هل أراه غداً؟

عاودت سكوتها لبضع ثوان قبل أن تقول: عن ربيع، أصبحت تعرف طبعه الهوائي المتردد. على أني لا أظن الضيعة قادرة على أن تستبقيه أكثر مما بقي. أنت في كل حال آت إلينا الساعة التاسعة. بل تعال في الثامنة والنصف إذا قدرت. ستأتي بلا شك. أليس كذلك؟

وأطبقت سماعتها قبل أن تسمع ردّه. لم تتح له أن يسألها عن

المفاجأة التي أشارت إليها، ولا أن يزيد في الاستفهام عن ربيع ومتى يمكنه أن يلتقي به. ولم يجد إلا أن يطبق هو سماعته بدوره ويترك الغرفة ثم الفندق، منحدراً إلى الشارع مرة أخرى.

ـ ١٢ ـ

أطبق الأستاذ شكيب مجلد قائمة الطعام والتفت إلى الأركيلة التي حملها إليه النادل. قال لأنور قبل أن يضع مبسم النربيش في فمه:

ـ الطعام هنا جيد، ولكن الخدمة بطيئة. كأن الخدم يحرصون على إبقائنا أطول مدة في ناديهم. في انتظار أن يعود إلينا أحدهم حدثني عن الدروس التي لقنك إياها أبو منير، أخونا صبحي.

قال المحامي هذا بلهجته المرحة، القريبة من السخرية، فكرر أنور عليه رده في هذا الموضع عندما زاره في مكتبه قبل ساعتين. قال:

ـ ألست أنت يا شكيب بك قلت لي إني سأتعلم من الأستاذ صبحي أشياء كثيرة؟

قال الأستاذ شكيب: بلى. لا تظنني أقول لك هذا ساخراً. في بعض الأحيان أجدني أنا نفسي بحاجة إلى التعلم من صبحي. الذي آخذه عليه هو أنه يعرف، ولكنه لا يستفيد شخصياً من معرفته الغزيرة. أهو غباء منه؟ أبو منير ليس غبياً دون شك. أم هي فلسفة له خاصة في الحياة؟ ربما كان هذا...

قال أنور: أنا معك في هذه الملاحظة. كتبت عنها منذ أيام إلى...

وتوقف عند هذه الكلمة. فطن إلى أن لسانه سبقه إلى ما لا يريده من ذكر اسم خطيبته في سياق الحديث. سأله المحامي:

ـ لمن تراك كتبت عن صبحي، إلى والدك؟

أجاب: بل إلى بعض أصحابي في دمشق، وأنا أعرّفهم بأخباري في مركز الاستصلاح.

قال الأستاذ شكيب: حسناً. وصلت أخبار أبي منير إلى العاصمة. بماذا تكلمت عنه لأصحابك؟ هل لي أن أسألك هذا السؤال؟

قال أنور: الواقع أني اطّلعْتُ في مرافقتي له على أمور لا أظنها تثير اهتمامهم بشيء، لبعدهم عن موقعها وعن أجوائها. أما أنا فإن هذه الأمور أثارت في نفسي مشاعر متعددة تصل إلى حد الاستغراب، بل إلى الاستنكار والنقمة...

قال المحامي، متسائلاً: مثلاً؟

قال أنور: مثلاً، حكاية عشيرة السياد مع شخص يبدو أنه يتمتع بنفوذ يجعله يبيح لنفسه ما لا يباح، غير حاسب حساباً لرقيب أو مؤاخذة. هل سمعت يا شكيب بك بإنسان اسمه أمير غزلان؟

فابتسم الأستاذ شكيب وهو يجيب على السؤال، قائلاً: ولا بحيوان بهذا الاسم. من لهجتك في لفظ اسمه أستنتج أن لك عنده ثأراً.

لم يرد أنور مباشرة. انتظر انصراف النادل الذي كان يقف على رأسيهما ليسجل طلبهما من ألوان الطعام. فلما ابتعد عنهما قال:

ـ ثأر؟ لعل الأصح أن يظن الثأر بأنه للأستاذ صبحي. إنه يتعقب تصرفات ذلك الرجل بإصرار، على الرغم من أنها لا تدخل ضمن مسؤوليات إدارة العلاقات العامة التي يتولاها هو، أبو منير. مع الإقرار بأنها تصرفات تثير حنق أي إنسان يحمل شعوراً بالعدل والانصاف.

سأله الأستاذ شكيب: من هذا الرجل، ما هي تصرفاته التي تثير كما أنت وصبحي إلى هذه الدرجة؟

قال: الحكاية وما فيها أن هذا الرجل اشترى من قرويين اسمهم السياد مئات من الدونمات بسعر بخس. وبعد فترة قصيرة باع جزءاً مما اشتراه إلى إحدى مصالح الدولة، أو أن تلك المصلحة استملكت منه ذلك الجزء ودفعت به ثمناً خيالياً لا مقارنة بينه وبين ثمن شرائه من القرويين.

قال المحامي: وأيّ غرابة في هذه العملية؟

أجاب أنور: ليس فيها ما يريب. شطارة من الرجل حين اشترى برخيص وباع بغال. ولكن المريب أن مصلحة أخرى من مصالح الدولة، وهي مركزنا رقم ٦، كانت استملكت أرضاً مجاورة من السياد أنفسهم، لا تختلف عن الأرض المشتراة من الرجل بشيء، وقدرت لها في الاستملاك سعراً بالغ الضآلة بالنسبة لما قبضه ذلك الإنسان ثمناً لأرضه المشابهة.

قال الأستاذ شكيب، بلهجة المساير الذي لا يجد في ما يحدثه به ضيفه شيئاً يستحق الاهتمام:

ـ ما هو مقدار الفرق بين سعري الاستملاك في هذه الأرض والأرض الأخرى؟

أجاب أنور: لن تصدق ما أقوله لك. اللجنة التي قدّرت ثمن المتر المربع من أرض القرويين بعشرة قروش، أعني بعشر الليرة، دفعت لأمير غزلان مائة ليرة وست عشرة ليرات بالمتر من أرضه. الأرض المستملكة واحدة هنا وهناك، والفرق هو بين عشرة قروش وأحد

عشر ألف وستمائة قرش... كيف يمكن أن نفسر هذا، وكيف نقبله؟

فابتسم الأستاذ شكيب وهو يقرع الصحن أمامه بسكين في يده، وقال:

ـ هذا يحدث يا عزيزي... يحدث في أكبر العائلات.

سأله أنور: أيّ عائلات تعني يا شكيب بك؟

قال المحامي: أوه... إنها كلمة تقال. أعني أنك جديد في الصنعة ولا يخطر ببالك أن مثل هذا الأمر كثير الحدوث في الدنيا التي نعيش فيها. نرجع إلى سؤالك كيف نفسر هذا ونقبله. عن القبول، هل سألكما أحد، أنت وصبحي، رأيكما في الموضوع؟

أجاب أنور: قطعاً لا. بالنسبة لي، حدث تقدير الأثمان والبيع والاستملاك قبل قدومي إلى المركز. وحتى لو أنه حدث وأنا موجود فإنه لا يدخل في اختصاص العمل الموكل إليّ بصفتي مديراً للآليات.

أضاف المحامي: إذن فلماذا تحطمان رأسيكما بالتفكير في موضوع لا دخل لكما فيه ولا خرج؟ اسمح لي... هذا تحرش وفضول لا مبرر لهما من كليكما. أما عن الشق الثاني من السؤال، وهو كيف نفسر هذا فجوابه سهل. إذا عرف السبب بطل العجب: ما دام التقدير حصل في فترتين متقاربتين وعلى أرضين متشابهتين فالسبب واضح. الذي سميته الأمير دفع، أما البسطاء الذين سميتهم السياد فلم يدفعوا! عجيب من صبحي كيف لم يوضح لك الأمر ويريح وجدانك من التساؤل.

كان رئيس ندل النادي قد عاد في هذه الأثناء ومعه تابع له يحمل

طبقاً واسعاً صفت عليه صحون صغيرة تعددت فيها ألوان المقبّلات. فقال المحامي، بعد أن لف حبل الأركيلة على جسمها، وهو يصب قليلاً من الماء على قدح امتلأ نصفه عرقاً أمامه:

ـ أنت لا تشرب ولا تدخن. تربية ممتازة. اسمح لي بالشرب معك. لست مدمناً ولكن قليلاً من الخمر، كما لا بد أنك سمعت، يفرح قلب الإنسان.

وتضاحك قبل أن يضيف: أخشى، إذا طالت إقامتك في مركزك النائي، أن يفلت زمامك من يد صبحي فتنجر إلى ما ينجر إليه غيرك في الجو الجافي الذي تعيشون فيه هناك. تتعرف عندئذ على الدخان والعرق، وربما تعلقت بالراقصات النوريات اللواتي يسمونهن الحجيّات. ألم تحضر مع رفاقك من الموظفين سهرات هاتيك الحجيات؟

بدا الأستاذ شكيب كأنه يريد بهذا السؤال أن يبعد ضيفه عن أحاديث وظيفته التي ليس فيها ما يشوق السامع. أحس أنور لهذا بما يشبه خيبة الأمل. لقد كان ينتظر من الأستاذ شكيب، بصفته محامياً، أن يرى في التصرفات التي يحدّثه هو عنها جناية تستحق أن يعلق عليها بالاستنكار لتحديها القوانين وتجاوزها اعتبارات السلوك القويم. ومع ذلك فقد تصنع المرح وهو يجيب على آخر أسئلة مضيفه، قائلاً:

ـ الحجيات؟ لم أسمع بهذه التسمية من قبل. لم يحدثني أبو منير عنهن. أما مرؤوسيّ في الرحبة، فليس بيني وبينهم خصوصيات تتيح لهم الدخول معي في الكلام عن الراقصين والراقصات. من يدري؟ ربما سألت المعلم شاهين في ذات يوم أن يصطحبني إلى واحدة من تلك السهرات.

غير أنه لم يلبث أن عاد إلى لهجته الجادة، وإلى الموضوع الذي كان يلح على تفكيره، مصراً على جر المحامي إلى الاهتمام به معه. قال:

ـ اعذرني إذا عدت إلى قصة السياد وأمير، على الرغم من معرفتي بأني أزعجك بها بلا طائل. صحيح أن كل ما جرى كان قبل مجيئي ولا علاقة لنا به، أنا والأستاذ صبحي، ولكن أمر أمير لم يتوقف عند هذا. إنه تمادى في تصرفاته المستنكرة حتى وصل بها إليّ شخصياً.

وهنا سأله المحامي، وهو يحمل إلى فمه قطعة سجق برأس الشوكة، وفي لهجته بوادر اهتمام لم تكن فيها قبل:

ـ أنت شخصياً؟ كيف؟

أجاب أنور: هذا ما تبيّن لنا منذ يومين. أول أمس جاء جماعة من أولئك السياد إلى مكتب مديرية العلاقات العامة ليطلبوا من الأستاذ صبحي رفع شكواهم إلى إدارة المركز. كنت عند أبي منير لما جاؤوا إليه فتبينت كيف حشرت أنا، كمدير للآليات ومشرف على الرحبة، في مشاكل أمير غزلان مع فلاحي القرية المجاورة لأرضه وأرض مصلحة حكومية أخرى هي مديرية الصناعة الزراعية. شكواهم لم تكن تتعلق بمكسبه من الأرض التي اشتراها منهم بثمن زهيد وباعها للدولة بسعر فاحش. قالوا: الله يهنّي أمير أفندي بما أكرمته به الحكومة. الحكومة على العين والراس. لا أحد يمنعها من أن تعمل ما تريد، ولا أحد يجبرها على أن تعمل ما لا تريد. ولكن يا سيد راسنا يا أبا منير، أنت تعرف الأرض التي ظلت لنا، بين أيدينا، بعد الذي اشتراه منها أمير وباعه للصناعة الزراعية، وبعد الذي استملكته منا الحكومة وبنيتم عليه مركزكم. أرضنا نمر

بها إلى الطريق العام من درب مفتوح من أيام آبائنا وأجدادنا. نسير فيه في أرضنا الباقية لنا، وبعدها في أرض منير أفندي، وبعدها في أرض الصناعة الزراعية، حتى نصل إلى الطريق العام. البارحة وجدنا الدرب، عند أول ملك غزلان، مقطوعاً علينا. وجدناه مسدوداً بعمود حديد يدور من جانب على مفصل، ومعلقاً به من الجانب الآخر ثقل كبير من حجر وحديد. لا رجل ولا امرأة، ولا دابة من دواب القرية، يمكنه أن يمر ليصل إلى الطريق العام إلا إذا جاء حارس معمل أمير غزلان، الذي يقولون عنه أنه معصرة زيوت، ليرفع العمود ويحركه على مفصله. قلنا للحارس: ما هذا يا رجل؟ لماذا تسدون طريقنا؟ قال الرجل: ابحثوا لكم عن درب غيره... هذا درب مخصص لآليات المركز، ممنوع على الفلاحين!

وسكت أنور عند هذا، متصوراً أنه وصل في رواية الموضوع إلى نقطة لا بد أن تثير اهتمام جليسه. ولكن بادرة الاهتمام التي بدت على هذا الجليس قبل قليل كانت قد تلاشت وعاد إلى ملامحه طابع المسايرة التي كان يستمع بها إلى ما يقصه عليه ضيفه دون كبير انتباه. صفق للنادل ليستبدل صحون المقبلات الفارغة بأخرى غيرها مليئة، وتشاغل لثوان بحبل الأركيلة محاولاً أن يجذب بعض الأنفاس منه، ثم ما لبث أن ألقاه من بين أصابعه والتفت إلى أنور ليقول له:

ـ لا تؤاخذني. غفلت عما ذكرته في آخر كلامك. لماذا أغلق هذا الدرب الذي أشرت إليه؟

من جديد عاد إلى الشاب الشعور بخيبة الأمل لقلة اهتمام صاحبه بما هو مهتم به بقوة. ومع ذلك لم يتوقف عن التحدث فقال مجيباً على السؤال:

ـ لا بد أنك تعجب من إلحاحي على هذا الموضوع يا شكيب بك. إذا كنت عجزت عن إفهامك شكوى أولئك المساكين فلا بد لي من الإقرار بأني أنا أيضاً لم أفهم شكواهم في البدء حين كانوا يتصايحون أمام الأستاذ صبحي بلهجات ومفردات لم تعتد عليها أذني. ولكنني بتكرار أقوالهم، ومن خلال ما كان أبو منير يرد على تلك الأقوال، فهمت الشيء الذي رويته لك. عرفت كيف أصبح الموضع يمسني شخصياً. عرفت ذلك حين جاء ذكر آليات المركز، وهي الآليات التي في عهدتي أنا رئيس الرحبة. آنذاك التفت أبو منير إليّ وسألني: هل سمعت ما قالوا؟ وهل عندك علم بتخصيص طريق معين لآلياتك في الأرض التي تجاور أرض أمير غزلان ويقوم فيها معمله، أو في أرضه، أو في أرض الصناعة الزراعية؟ بالطبع أجبت على هذا السؤال بالنفي. لم يبلغني أحد شيئاً من ذاك، ثم إن آلياتي، فيما أذكر، لم يعهد إليها في يوم من الأيام سلوك درب يقع في تلك الأرض...

وهنا قال الأستاذ شكيب، معجلاً:

ـ الآن وضح لي الأمر. إنه تجاوز على صلاحياتك أو انتحال لسلطتك. أفهم حساسيتك ولك العذر إذا ثرت... لا لأن الأمر يستدعي الثورة، بل لأنك شاب ولأنك، كما قلت لك قبل قليل، جديد في الصنعة.

نطق المحامي بعبارته هذه بلهجة من يريد أن يقف عند هذا الحد في التحدث في الموضوع، مما عزّز الشعور بخيبة الأمل والإحباط في نفس أنور لاستهانة صاحبه بما هو متأثر منه. رأى أن يتوقف عند هذا ويسكت عن الكلام فيه. غير أن المحامي لم يترك له مجالاً

لذلك. فبعد أن أفرغ بقية كأس العرق في حلقه والتفت إلى صحنه الذي ملأه النادل بوجبة الليلة، رفع رأسه إلى أنور وسأله:

ـ ماذا كان موقفك أمام هذا التجاوز الذي أثارك؟

تردد أنور قبل أن يجيب، وقد فارقت عباراته الحماسة التي كانت لها قبل قليل، وما لبث أن قال:

ـ أنا؟ لم يتسع لي الوقت لأتخذ موقفاً أو أتصرف. رأى الأستاذ صبحي، أن نقوم نحن، قبل نقل الشكوى إلى المدير العام، بكشف على الموقع الذي قيل إنه مخصص لمرور آلياتنا، مع العلم بأنه لم يسبق فمرت آلية لنا منه. ثم جاءت هذه المهمة التي قدمت من أجلها إلى حلب، فأرجأنا الكشف إلى بعد عودتي.

قال المحامي، كالمستريح إلى أن القضية توقف سيرها بذاته عند هذه النقطة:

ـ حسناً. ربما سمعت منك في المرة القادمة عن تدابيركم مع السيد غزلان... أنت وصبحي ورئيسكم المهندس فياض بك. أليس اسمه فياض، مديركم المحترم؟ أما الآن فأحب أن أسألك عن أخبار دار الحاج نعمان التي زرتها في المرة الماضية.

فوجىء أنور بهذا السؤال، وتلكأ في الاجابة عليه. لا يزال يذكر تعليقات مضيفه على سلوك صديق أبيه وما رواه عن سكرتيراته المتعددات الجنسية في البلدان المتباعدة. لن يخبره الآن، قطعاً، بالحديث الهاتفي الذي تبادله وزوجة الحاج، فقد يدعوه ذلك إلى أن يصل بتعليقاته الجارحة إلى السيدة شاهناز نفسها. إلا أنه رأى أن لا بد من إخباره بارتباطه بموعد الغد، فقال بعد تردد:

ـ نعم. تلقيت من ربيع، ابن الحاج نعمان، رسالة يعتذر فيها عن

غيابه عن منزل أهله في المرة الفائتة. كان المنتظر أن نلتقي آنذاك. وهو في هذه الأيام هنا، وسنلتقي غداً مساء.

قال المحامي: غداً مساء؟ وأنا الذي كنت أحب أن أعرّفك بأولادي مساء الغد! لا بأس. أعتقد أن رجلك ستجر إلى حلب كثيراً، ستشرّف داري المتواضعة في زيارة قادمة.

ردّ أنور بقوله: إن شاء الله. أنت تغمرني دوماً بلطفك وبكرمك. وأنا عاجز عن مقابلة فضلك إلا بالشكر، والشكر الجزيل.

كان الوقت قد قارب منتصف الليل حين نزل المحامي وضيفه من درج النادي إلى الشارع. سارا أول الأمر ببطء وفي صمت، لا يجد أنور بصورة خاصة ما يقوله بعد كلمات الشكر التي رددها على مسامع مضيفه. قطعا ما يقرب من نصف المسافة عن الفندق، في الهدوء الذي لم يكن يعكره غير عبور سيارات تضاءل عددها في هذه الساعة المتأخرة. وفجأة، وقف المحامي وأمسك بمرفق أنور، موقفاً إياه معه، وقال:

ـ أعرف يا صديقي العزيز أني خيبت ظنك. وجدتني لاهياً بأركيلتي، وبكأس العرق والتهام الطعام، عن حديث صاحبك الذي سميته غزلان وأصحابك القرويين السياد. لم أكن غافلاً عما تشعر به، ولكن...

وقطع هنا كلامه وسكت، فوجد أنور نفسه يردد كلمته الأخيرة بصورة عفوية، قائلاً:

ـ ولكن؟

فتابع المحامي كلامه، وقال: ولكن، أنت مقذوف رأساً من الجامعة إلى ساحة الحياة العملية. وأية ساحة؟ ساحة المصالح العامة

والإدارات البعيدة عن الأعين. تلك التي لا تنفذ منها أصوات الاستقامة والصدق إلا خافتة ومحشرجة. ألف أمير مثل أميرك ذاك... لا عندك في مراكز الاستصلاح وإدارات الصناعة الزراعية وحدها، بل عندنا وعند أمثالنا كذلك. وكلٌّ همّه على قدّه يا أنور يا عزيزي.

وأفلت المحامي هنا ذراع رفيقه الشاب وتابع سيره، فقال له هذا متسائلاً:

ـ ماذا تقصد يا شكيب بك؟

فأجابه بقوله: أعطيك مثالاً ناطقاً. هل تذكر حين خرجت من مكتبي في أول هذا المساء بمن التقيت على الدرج وأنت تنزله؟

قال أنور: أذكر. رأيت شاباً وفتاة... بل امرأة في متوسط العمر، يبدو عليها أنها من طبقة مترفة. كانا يصعدان السلم حين كنت أنا أنزله. كانا يقصدان مكتبك دون شك.

قال المحامي: هذا صحيح. وأنا أخبرك لماذا قصداني. إن لي بابن عم هذه السيدة المترفة معرفة وثيقة، وهو مهندس يدير شركة مقاولات مشهورة. إنه الآن في السجن. لماذا؟ هو متهم بمحاولة رشوة مسؤول ضخم في إدارة أحد المشاريع الكبيرة التابعة للدولة. متهم بأنه حاول رشوة ذلك المسؤول ليفضّل عطاء شركته في إحدى المناقصات التي تسيل أرقامها لعاب المتعهدين.

سأل أنور: المهندس هو الراشي... والمرتشي، هل قبض عليه أيضاً؟

فرد عليه المحامي مجيباً: لم تكن رشوة مقبوضة. إنها محاولة رشوة كما ادعاها المسؤول. أنا أعرف صاحب السيادة ذلك المسؤول

وسمعته، كما أعرفها، ليست فوق الشبهات. ولكن الذي جرى أنه بلَّغ عن المحاولة، فسجن المحاول.

قال أنور، وهو يوازن خطاه مع خطى صاحبه البطيئة على الرصيف:

ـ وجاءتك ابنة عم المهندس لتوكللك في القضية. ما هو حكم القانون في مثل هذه الحالة؟

توقف الأستاذ شكيب عن السير مجدداً وأمسك مرة أخرى بذراع رفيقه، وقال:

ـ السيدة التي وصفتها بأنها مترفة لم تأت لتسألني، أنا المحامي، عن حكم القانون. جاءت كي أساعدها في قضية ابن عمها، ولكن بأسلوب آخر. سمعتْ أن فلاناً من أصحابي في العاصمة هو من أهل الحل والربط، وأن له سوابقه في حل أزمات مشابهة، فجاءت تطلب مني أن أقصده وأرجوه المساعدة في حل أزمة ابن عمها... في إطلاق سراحه من السجن.

فسأله أنور: وبماذا أجبتها؟

فتابع المحامي مسيره، وهو لا يزال يشد على ساعد أنور، وقال مجيباً:

ـ هنا بيت القصيد. قلت لها القول الذي لا أردده إلا على الأخصّاء، وأنت معدود منهم الآن يا عزيزي. قلت لها إن كل زيارة لهذا الصاحب المحترم في عاصمة بلادنا تكلفني أربعين ألف ليرة أو ما يقاربها... أما في هذه الحالة، على ما سمعت من شائعات حولها، فإن هذا المبلغ يبدو غير مناسب مع الحل المطلوب.

قال المحامي هذا وأفلت يد الشاب من قبضته، كأنه فيما نطق به قد

فرغ من أداء ما يريد تأديته، في حين عقّب أنور على ما سمعه بقوله:

ـ لا أظنني فهمت كثيراً على ما رددت به على طلب السيدة. هذه المبالغ التي تذكرها، لماذا؟

تضاحك الأستاذ شكيب وهو يجيبه: ألم أقل لك إنك جديد على الصنعة؟ هناك محاولة رشوة، قد تكون ملفقة أو أنها حتى الآن لم تثبت بدليل قاطع... كي نخلّص المتهم بهذه المحاولة من عواقب التهمة علينا أن ندفع مبلغاً من المال. أعني أن علينا أن ندفع رشوة! هل فهمت؟

سكت أنور بعد سماعه هذه الكلمة من المحامي، وقد قرع بها أذنه بقوة. نعم، لقد فهم! امتلأ صدره بشعور يشبه ذاك الذي ملأته به أقوال الفلاحين السياد وهم يتصايحون في مكتب العلاقات العامة بشكواهم أمام الأستاذ صبحي... شعور الاستغراب والاستنكار والحنق. كانا قد قاربا المنعطف الذي يؤدي من الشارع الكبير إلى الشارع الفرعي، حيث مدخل الفندق. توقف هو هذه المرّة وسأل صاحبه:

ـ ليس هذا أسلوباً يقبل به محام مثلك يا شكيب بك على ما أظن. بماذا رددت على طلب تلك السيدة؟

أخذ المحامي بيده وجره ليتابع المسير، وهو يقول:

ـ بل قبلت يا أنور. قبلت، وقبلت السيدة بأن تدفع المبلغ الذي عينتـه، مقدراً أنه سيكلفنا لقاء زيارتي لصاحبي ذي الحول والطول!

فلم يملك الشاب نفسه عن أن يسأل مخاطبه، فيما يشبه الأسى:

ـ كيف يا شكيب بك؟ كيف تقبل هذا؟

تضاحك المحامي من جديد وهو يقول:

ـ وهل تظنني معلمك الأستاذ صبحي؟ حين تصبح عتيقاً في الكار، كما يقولون، ستعرف أن عقدة مثل عقد مهندسنا المسجون، في أيامنا هذه، لا تحل إلا بمثل هذا الأسلوب. فلكي تتخلص من عواقب تهمة برشوة لم تتحقق، عليك أن تدفع رشوة محققة!

سكت أنور. لم يجد على لسانه تعليقاً على ما سمعه من أقوال يعبر فيه عن مشاعره دون أن يجرح به إحساس صاحبه. كانا قد بلغا باب الفندق، فمد المحامي يده مصافحاً وقال وهو يبتسم:

ـ أرجوك، لا تحكم عليّ، أنا صاحبك، منذ الآن بصرامة. لا تنس أني محام، فأنا أطلب منك الإمهال ريثما تحقق وتدقق في هذه القضية وفي ظروفها من كل الوجوه. تصبح على خير يا عزيزي.

ـ ١٣ ـ

على الهاتف كانت السيدة شاهناز حدثته عن مفاجأة تعدها له عند مجيئه إليهم في موعد السهرة هذه الليلة. والحقيقة أنها لم تكن مفاجأة واحدة بل سلسلة من المفاجآت.

كان قد أمضى نهاره في صحبة المعلم شاهين، متنقلاً بين الرحبة الكبرى وحي الميدان في شمالي شرقي المدينة، حيث تحتشد الحوانيت المتخصصة ببيع قطع التبديل للآليات المختلفة. صحيح أن مهمته، كما أوضحه له الأستاذ صبحي، تقتصر على توقيع فواتير القطع المشتراة وأجور تصليح التراكس ـ باكر المكسور أحد محاوره، إلا أنه كان مدفوعاً بحب الاطلاع إلى معرفة دقائق العمل

الذي قصد المدينة لإتمامه. لم تكن معلوماته في الهندسة الزراعية تتيح له غير إلمام نظري بآلات تنفيذ العمل الزراعي وأعمال الاستصلاح الضخمة، كما أن إدارته لرحبة المركز لم تعطه أكثر من القدرة على التفريق بين الباكر والكريدر والتراكس، من مجنزر ومدولب، في هذه الآليات. ولذا كانت كل خطوة يخطوها مع المعلم شاهين في رحبة المشاريع وفي حي الميدان تزيد من معرفته الميكانيكية في عمل أصبح يدخل في صميم اختصاصه.

أرضاه كل هذا وسرّه. ووجد الرضى والسرور أيضاً في تناوله طعام الغداء، بمرافقة المعلم شاهين وسائق الشاحنة الذي نقل الآلية الضخمة، في أحد مطاعم حيّ الميدان. كان مطعماً صغيراً صاحبه أرمني، وجل زبائنه من الأرمن أصحاب الحوانيت ورؤساء ورشات الصيانة والتصليح، ممن كانت أيديهم وثيابهم ملطخة بزيوت المحركات. ولكن تصرفاتهم في المطعم وأحاديثهم كانت تدل على أن غالبيتهم من مستوى لا يقل بكثير عن مستوى الذين رآهم أمس يتناولون طعامهم في النادي، إذا لم يكن يعادله.

وقبل التاسعة بدقائق قليلة وقف أنور أمام بناء منزل الحاج نعمان. أمضى نحواً من ربع ساعة ليثبت مكان البناء وهو يسوق السيارة بنفسه، بينما كان مجيئه قبل الآن في سيارة أجرة لا يضيع سائقها وقتاً في معرفة المكان المقصود. عادت إلى خاطره، وهو يضع أصبعه على جرس المدخل، ذكرى انفتاح الباب أمامه في زيارته السابقة عن وجه الفتاة دلال مرتين، وكيف كان أنفه يصدم أنفها في المرتين. كانت مفاجأة مضاعفة في ذلك اليوم، أترى مفاجأة اليوم ستكون من هذا القبيل؟ على أن الباب فتح هذه المرة عن وجه ربة الدار، السيدة شاهناز نفسها. استقبلته في فتحة الباب بوجهها

الصبيح، واسعة الابتسامة، أنيقة اللباس، في زينة تلفت النظر... زينة سيدة مترفة متهيئة لسهرة في محفل راق لأناس من علية القوم.

تبع أنور مضيفته إلى داخل الدار وهو يغمغم كلمات حيية يرد بها على ترحيبها به. ورد نظره إلى البزة التي يرتديها هو، متسائلاً إذا كانت هذه البزة، على نظافتها وحسن كيها، تليق بالسهرة التي تزينت السيدة شاهناز لها بالزينة التي يراها. استدارت إليه هي، حين توسط الصالون الذي عرفه بكل أثاثه المترف في المرة الماضية، وقالت:

ـ تفضل واسترح قليلاً. لا يزال أمامنا متسع من الوقت. أدلاؤنا إلى سهرة الليلة تأخروا في المجيء على ما أرى. أما أنا فاعذرني لدقيقتين.

وتهيأت لتتركه، إلا أنه بادرها مسائلاً بقوله:

ـ وربيع بك؟

فتوقفت عن الخطو وعلت شفتيها ابتسامة رأى فيها أنور، كما رأى في نظرة عينيها الواسعتين، طابع مكر أو تخابث لم يسبق له أن رآه منها قبل الآن. قالت:

ـ ربيع؟ هذا الهوائي؟ أخته تخبرك عنه...

وأسرعت في الخروج من الباب المقابل، كأنها تخشى من ضيفها أن يعاود عليها السؤال.

ولم تتأخر ابنة السيدة شاهناز في الدخول. كانت كذلك في زينة ملفتة للنظر. تلفت النظر بأناقتها وطراز هذه الأناقة المغايرة لأناقة أمها. جذب هذا انتباه أنور حين حيته الفتاة ووقفت أمامه، على

بعد خطوتين، بقدها المشيق، في ثوب سماوي الزرقة تصل أكمامه إلى معصمها وتنسدل أطرافه منحدرة إلى أسفل حتى تمس وجه حذائها الذهبي البراق. زاد هذا الثوب قامتها الطويلة طولاً، وأخفت ثناياه الفضفاضة دقائق التناسق في أعضاء جسدها الشاب التي ما كان ينقصها جمال التكوين. ثوب محتشم على ثمين نسجه وحسن تفصيله، مختلف عما كانت ترتديه السيدة شاهناز. كانت هذه تردي ثوباً مشجراً، بألوان يغلب عليها الوردي، يهصر قدها المليء، مرتفعة أكمامه إلى ما فوق مرفقيها، وتلامس حواشيه في الأدنى استدارة ركبتيها. لم يكن ثوب الأم مزموماً على الرقبة كثوب ابنتها، بل كان مقوراً تحت العنق يكشف عن أعلى صدرٍ لابسته الناصع بياض البشرة، العريض، وعن أوائل منكبيها المليئين الحسني الاستدارة.

ملاحظات أثبتها نظر أنور، في مقارنته بين ما ترتديه الفتاة وأمها، ابتسم لها لنفسه أول الأمر وشعر بعدها بمثل الخجل أن شغل أفكاره بها. تقدمت الفتاة منه بعد وقفتها القصيرة أمامه، ومدت كفها إليه مصافحة وهي تقول:

ـ سمعتك تسأل عن ربيع.

قال متضاحكاً، وهو يرد على تحيتها: أهلاً بك. وحقاً أنا أسأل عن شقيقك الكريم. إنه يتدلل عليّ، أنا الذي جئت من مسافة مائتي كليومتر لأراه.

قالت، بعد أن جلست على مقعد في مواجهته:

ـ تفضل واجلس. سأخبرك بالحقيقة التي لا أتحمّل إخفاءها كما تتحمله أمي. كنا نعرف أنه لن يأتي اليوم، وخفنا أن لا تشرّفنا

بقدومك إذا لم يكن موجوداً. نحن حريصون على أن تحضر معنا سهرة الليلة. هل فاجأك هذا؟ هل أزعجك هذا؟

ويبدو أن الشعور الذي داخل أنور وهو يسمع هذا من الفتاة قد انعكس على وجهه بشكل واضح فسألته سؤالها الأخير. هل فاجأه هذا أو أزعجه؟ لا يعرف كيف يجيب على هذا، بالسلب أو بالايجاب. الأصح أن يعترف بأنه أحرجه. قال في سره: مرة أخرى سيكون عليّ أن أقضي ساعتين، وربما أكثر من ساعتين، بين نساء دار الحاج نعمان وحدي! ماذا سيكون رأي سميرة، خطيبتي، بهذا؟ ولكن، أمن الضروري أن أخبرها، فيما أكتبه إليها، به؟ لن أفعل، فلو فعلت لكانت ثورتها عليّ جارفة! وخرج أخيراً من تردده في الإجابة على سؤالها الأخير بأن قال متظرفاً:

ـ الإزعاج غير وارد يا آنسة دلال. حظي كبير بأن تجدني الوالدة جديراً بصحبتكما إلى السهرة التي تتحدثين عنها. أيّ سهرة هذه؟

قالت: لن تتأخر عليك معرفتها. أمي، كما قالت لك، تريدها مفاجأة. نحن بانتظار خطيبي وأخته وصهره، زوج الأخت. سهيل، خطيبي، هو دليلنا هذه الليلة.

دخلت السيدة شاهناز في هذه الأثناء البهو. كانت تلف على عنقها وشاحاً بلون الزهر غطى الصدر العريض الذي كشفت عنه تقويرة فستانها قبل قليل، وتحمل على ذراعها سترة سوداء مطرزة بنثرات براقة. قالت:

ـ يحسن يا دلال أن تأخذي ما تضعينه على كتفيك. ربما بردنا في آخر الليل. هل اعتذرت لك دلال عن غياب أخيها؟

وقبل أن يجيب أنور على سؤالها له، قالت الفتاة:

ـ لا تقلقي عليّ. معطفي في السيارة. أما عن ربيع، فلنتركه لحاله. سيتعرف الأستاذ أنور على سهيل بدلاً منه. ها... إنهم وصلوا.

قالت جملتها الأخيرة بعد أن ارتفع من الشارع صوت نفير سيارة في دقات متقطعة. قالت الأم لابنتها:

ـ لننزل إذن ونتبعه في سيارتك. فالدليل هو، ولا حاجة إلى أن ننحشر كلنا في سيارة واحدة. تفضل يا ضيفنا العزيز...

وتقدمت الأم بنتها وضيفها إلى الباب ثم منحدرة إلى الشارع. قالت دلال وهي تهبط الدرج وراء أنور:

ـ نحن نقصد مكاناً يقع في قلب حارة من حارات حلب القديمة، ذات الأزقة الضيقة والمتعرجة، بجانب قلعتنا المشهورة. هل سبق ورقيت قلعة حلب يا أستاذ أنور؟

قال: نعم. منذ ثلاث سنوات أو أربع. جئت مع رفاقي الطلاب في رحلة جامعية آنذاك.

قالت: أما أنا فلا أعرفها. وأظن كثيراً من بنات حلب وبنيها مثلي، لم يرقوا أدراج قلعة بلدتهم. ما رأيك أن تزيرني إياها في ذات يوم؟

أجابها قائلاً: هذا يسعدني، وإن كنت أظن أن هذا من واجب الأستاذ سهيل...

قالت: هذه غمزة عليه سأنقلها إليه الآن. هذا هو في السيارة. تراه لم ينتظر أن نقول له مساء الخير، بل تهيأ ليسبقنا. حين نصل، سيكون حسابه عسيراً.

وحقاً تحرّكت السيارة التي يسوقها خطيب دلال منذ لاحت شخوص القادمين الثلاثة في باب العمارة. في نصف الظلام الذي

كان يلف الشارع لم يميز أنور منها غير هيكلها الصغير وأشباح الركاب الثلاثة فيها. وقالت الأم معلقة على الجملة الأخيرة من ابنتها:

ـ لا تلوميه. تأخرنا كثيراً عن ميعاد الجماعة. علينا أن نتبعه لئلا نتيه في أزقة حي الفرافرة.

السيارة الرياضية الحمراء، ذات المقعد الواحد، كانت أمام باب العمارة مباشرة. جلست دلال وراء المقود، وإلى جانبها أمها، ثم رقى أنور إلى جانب الأم. ومع أن المقعد يتسع بكل راحة للركاب الثلاثة، فقد التصق أنور بجذعه بالباب الأيمن ليبعد بعض الشيء عن جذع جارته. كان هذا ممكناً والسيارة في مكانها قبل أن تتحرك. إلا أنه، حين تحركت، وجد جهده في محاولته ذاك ضائعاً. فكلما انعطفت السائقة بعربتها وراء سيارة خطيبها في أحد الشوارع، أحس أنور بجسد السيدة شاهناز المليء، اللدن، يزحم جسده، وملأت أنفه رائحة العطر الناعم الذي كانت متطيبة به. ولم يخف إحساسه بملاصقة جسد جارته إلا حين رفعت ذراعها الأيسر وألقته على المسند وراء كتفي ابنتها، بينما ظلت يدها اليمنى ممسكة بحقيبتها الصغيرة على ركبتيها. قالت:

ـ أنت تسرعين يا دلال. خلصنا من الشوارع العريضة، وأخاف أن يطلع علينا من هذه الأزقة عربة أو إنسان على غير توقع.

قالت الفتاة: ليس في هذه الساعة. أنت ترين سهيل كيف يسرع أمامي. كأنه يستثيرني. ها نحن الآن حول القلعة، وسيبطىء على الرغم منه.

وحقاً تباطأ الضوء الأحمر المتوهج في مؤخرة سيارة خطيب دلال

حين انحرفت هذه إلى اليمين، سالكة الطريق الدائري المحيط بخندق قلعة حلب، فتباطأت مضطرة كذلك دلال بسيارتها. انشغل أنور في هذه الآونة بالتطلع إلى اليسار، من وراء ظهر رفيقتيه، إلى هيكل القلعة الشامخ وسورها المقطع بأبراجه، الذي كان يلقي على السفح دونه ظلاله المسننة. ظلالاً كان يصنعها على السفح ضوء القمر في عروجه المتأخر على صفحة السماء في الثلث الأخير من الشهر. انشغل أنور بتطلعه ذاك فلم ينتبه إلى خروج السيارة عن الطريق الدائري إلا حين سلكت زقاقاً ضيقاً لا يكاد يتسع لمرورها. من هذا الزقاق المحصور بين جدارين عاليين لا ثغرة فيهما غير أبواب حديدية مغلقة المصاريع على الدور وراءهما، انعطفت السيارة بركابها إلى أزقة أخرى تشابهه، إلى أن انتهت إلى ساحة صغيرة وقفت فيها وراء سيارة خطيب دلال. تلك الساحة، على صغرها، بدت بالغة السعة بعد الأزقة الضيقة التي مر بها أنور ورفاقه قبل قليل. وكان فيها عدد آخر من السيارات، بين السبع والثمان، لا بد إنهاعربات الساهرين الذين بكروا في الحضور إلى هذا المكان قبل السيدة شاهناز وصحبها.

ما أن وقفت دلال بسيارتها حتى نزل خطيبها سهيل من عربته، يتبعه راكباها الآخران، وتقدم إلى القادمين وراءه وعلى شفتيه ابتسامة واسعة. كان فتى مربوع القامة، أزهر الوجه، أنيق الملبس. بدأ فقبل يد السيدة شاهناز، ثم تحول فأمسك بكفيه كفي خطيبته وهز ذراعيها دون أن يقربها منه، بينما التفت بوجهه إلى أنور وقال:

ـ أهلاً بك وسهلاً يا أستاذ أنور حدثتني عنك امرأة عمي كثيراً. رقت لها إلى درجة حسدتك عليها. نعم، أهلاً وسهلاً. أهلاً بك في سراي إسماعيل باشا...

- ١٤ -

سراي إسماعيل باشا!

ألا يزال في هذه الأيام وجود لباشوات وسراياتهم؟ وأين؟ في هذا الحي القديم المبعد عن قلب المدينة بدروبه الضيقة التي لا تكاد تتسع لمروز سيارة، وبجدرانه العالية المطبقة على ما ورائها من دور مانعة عنها الضوء وكاتمة أنفاسها عن الهواء؟!

قال هذا أنور لنفسه في سره وهو يسير وراء المهندس سهيل، بين خطيبته وأمها، وأمام أخت المهندس وزوجها. ساروا جميعاً وراء سهيل إلى جانب الباب المنفتح على الساحة الصغيرة، وهو باب خشبي كبير، ذو مصراعين عريضين، لا يشبه الأبواب الحديدية الضيقة المغلقة على جانبي الأزقة التي سلكوها إلى هذه الساحة. وراء الباب امتد ممر طويل، في أرض مكشوفة، مرصوف بالحجارة، صقلت بلاطاته أقدام المارة في سنين كثيرة وأضاعت استواءها. كانت أرضه تلتمع تحت أنوار بدت باهرة بالنسبة لشحوب الإضاءة في الساحة والأزقة المتعرجة قبلها. وتناهى إلى سمع الجماعة أصوات آلات موسيقية مكتومة آتية من آخر الممر، حيث كان باب خشبي آخر، أصغر من باب المدخل، مغلقاً.

خطا سهيل أمام جماعته، في الممر، بضع خطوات ثم توقف واستدار إليهم، وقال:

ـ مع أننا تأخرنا بعض الشيء عن الآخرين، لا يزال لدينا وقت أستطيع فيه أن أعرّف ضيفنا بهذه السراي وبتاريخها.

نطق بهذا وهو متجه إلى أنور بوجهه وبإشارة يده، متخذاً هيئة دليل السائحين في زيارة الأمكنة الأثرية ولهجته. أطرق أنور

مستكثراً على نفسه أن يكون هو وحده محط الاهتمام في هذه الجولة، بينما تابع المتحدث كلامه قائلاً:

ـ إسماعيل باشا، الذي هذه سرايه، كان والياً على مدينتنا منذ أكثر من قرن من الزمن. كان مولعاً بالخيل الأصائل. وهذا القسم، الذي ترونه على اليمين، جناح طويل كان اسطبل خيول الباشا. واجهته لم تكن مسدودة كما ترونها الآن. لو فتحت لكم بابها الحديدي الصدىء ذاك لوجدتم وراءه أثراً لمعالف ومساقٍ متعددة للمياه، مستقل واحدها عن الآخر ومفصول بعضها عن الآخر بمرابط الخيول إلى معالفها.

وهنا قاطعت دلال خطيبها، قائلة:

ـ كأنك يا سهيل تعرف هذه السراي معرفتك لدار أهلك. لم تزرني إياها قبل اليوم، ولا حدثتني عنها... تعرف أني أحب الخيول الأصيلة!

قال سهيل، بلهجة مرحة:

ـ كنت أخبىء لك هذا إلى يوم العرس. ولكن المناسبة سنحت اليوم بوجود ضيفنا العزيز، الأستاذ أنور. على كل، يا دلال، لو فتحت لكم الباب لما وجدتم على المعالف خيولاً أصيلة، بل لوجدتم عليها أكواماً من ألواح صابون الغار مصفوفة بشكل أهرامات...

قالت السيدة شاهناز، متسائلة: صابون الغار؟

فالتفت إليها سهيل، ورد قائلاً: نعم. على اليمين صابون الغار. أما على الشمال، حيث كان مقر حرس الباشا، فإنكم تجدون أكياساً مليئة بالفحم، فحم خشب الزيتون. أنت يا امرأة عمي تدركين أن

إسماعيل باشا مات من زمن بعيد. وكذلك تفرقت خيوله قبل أن تموت، وتوزع حرسه قبل أن يفارقوا وراء باشاهم هذه الدنيا.

لم يشأ أنور أن يظل ساكتاً وهو ضيف الشرف الذي كان معظم الكلام يوجه إليه، فسأل:

ـ إذن من هو مالك هذه السراي اليوم؟

أجاب سهيل: يملكها أبو محمود، الحاج عبد الله. الحاج عبد الله رجل في السبعين من عمره، في بسطة من الرزق، كان في شبابه، إلى أول كهولته، حجّاراً. أعني أنه كان يمتهن قطع الحجارة وتسويتها لتبنى بها بيوت حلب القديمة، الراسخة، الشاهدة على التاريخ. ذلك، بالطبع، قبل أن يتسلل الباطون المسلح إلى عمائرنا فنسكن علب الكبريت التي نسكنها اليوم. من حسن الحظ أن سراي إسماعيل باشا أصبحت في يد قاطع أحجار عايش الصخور فأحبها وأصبح خبيراً بها. إتبعوني...

قال هذا واستدار ليسبقهم متجهاً نحو الباب المغلق، الذي كانت تنبعث من ورائه أنغام الآلات الموسيقية في آخر الممر. لحقت به خطيبته وأمسكت بكمه موقفة إياه عن المسير، وقالت:

ـ لا تستعجل. الحاج، مالك هذه السراي، هل هو حاضر السهرة معنا؟ ثم، هناك على اليسار بناء مستقل عن جسم السراي، ما هو؟

أجابها بقوله: ليس مستقلاً كل الاستقلال، ولكنه معزول بفسحة تحتها سرداب. إنه الحرملك، جناح الحريم. نستطيع أن نلقي عليه نظرة، ولكن السرداب الذي يصله بجسم السراي مسدود. أما عن الحاج عبد الله، أبو محمود، فهو لا يحضر سهراتنا. نعم، لا يحضر

سهراتنا ولكنه إنسان طيب. رضي أن يعيرنا إيوان القصر هذا مرتين كل شهر لنحيي فيه سهرتنا... ليلة سبت من كل أسبوعين.

فقالت دلال: ما أكرمه!... أحب أن تعرّفني على هذا الرجل يا سهيل.

قال خطيبها: وهذه أيضاً تركتها لما بعد العرس يا عزيزتي. تفضلوا.

وهنا قال صهره، مستوقفاً إياه بدوره عن المسير:

ـ لحظة يا ابن عمي. قلت إنه من حسن حظ هذا القصر أنه صار إلى يد حجار... ماذا تقصد؟

لم يجب المهندس على السؤال. تقدم خطوات باتجاه البناء الذي سماه حرملك، وأسند ظهره إلى الجدار الصخري بين بابين، أحدهما منفذ مفتوح لا مصاريع له، والآخر مغلق بمصراع حديدي واحد. قال، متوجهاً مرة أخرى بكلامه إلى أنور:

ـ الواقع أن ما يشكر عليه أبو محمود، ويقدّر له، ليس إعارته إيوان سرايه إلينا، نحو محبي الموسيقى من الهواة ليلة كل أسبوعين، بل هو يشكر على محافظته على القصر ورعايته رعاية «صاحب كار»، كما يقولون، ليظل في حالة سليمة. مرة واحدة، كما اعترف هو لي بلسانه، اقترف جناية بحق هذه السراي، ولا يزال ضميره يؤنبه عليها. جاء سماسرة ثري بيروتي كبير، مشهور بحبه الآثار القديمة وبذله الأموال في اقتنائها، فزينوا للحاج عبد الله أن يبيعهم الخشب المزخرف الذي يزيّن سقف إحدى قاعات القصر المهجورة. كان الحاج في ضائقة مالية فقبل الصفقة التي عرضت عليه. ظل الصنّاع الذين أرسلهم ذلك الثري يعملون أكثر من شهر في نزع ذلك الخشب. حقنوه في البدء بمواد مثبتة، ثم قلعوه شريطاً وراء شريط،

ولفوه بالقطن وعصائب الشاش فوق المواد الحافظة، قبل أن يودعوه الصناديق ويشحنوه إلى بيروت. كان خشباً مهترئاً في ركن مهجور، ولكن أبو محمود مازال نادماً على بيعه له.

قالت أخت المهندس سهيل، متدخلة في الحديث لأول مرة:

ـ يخطيء في ندمه. سراي كبيرة مهجورة، وغرف لا يسكنها أحد، الأخشاب فيها بالية ومهترئة... لماذا يحتفظ بهذه الأخشاب، خصوصاً إذا حملت إليه شيئاً من المال؟

قال أخوها، بلهجة المتهكم: المال... المال! لتعلمي أن المال ليس كل شيء في الحياة يا شقيقتي العزيزة. هل تحب يا أستاذ أنور أن ترى القاعة التي انتزعت من سقفها تلك الأخشاب؟ القاعة، وإن كانت خالية، لا تزال في مكانها. ولا تزال في أعلى حيطانها بقايا من الزخارف. سترى كم هي جميلة.

قال أنور: إذا لم يثقل عليك هذا، فأنا يسرني أن أراها.

قال سهيل: إذن اتبعوني. لا بد أن أقول لكم إن الحاج عبد الله يسكن وأسرته هنا. ولكن في الجانب الآخر من السراي، وراء الحرملك. في جزء ينفتح بابه على زقاق غير الذي جئنا منه. اتبعوني.

وسبق جماعته إلى المنفذ الذي كان واقفاً قربه في جدار جناح الحرملك. لم يكن المنفذ مضاءً إلا بأنوار ممر المدخل الكبير المتسربة إليه. فقالت أخته:

ـ لا أرى ضوءاً حيث تريد أن تدخلنا. لا أحب العتمة يا سهيل. إذهب أنت والأستاذ أنور، ونحن ننتظركما هنا.

قال السيدة شاهناز: بل خذني معك يا سهيل... ألا تأتين مع خطيبك يا دلال؟

بقيت أخت سهيل، مع زوجها، في الممر المكشوف المضاء، بينما تسلل الآخرون وراء دليلهم من المنفذ إلى رواق مسقوف، ضئيل الإنارة، مفض إلى غرف الحرملك. استوقفهم سهيل في أولى تلك الغرف، وهي التي ذكر أن خشبها بيع إلى الثري البيروتي، وقال وهو يشير إلى سقفها:

ـ تأملي يا امرأة عمي. تحت السقف ترين الإطار الخشبي المحفور والملون يزنّر الجدران الأربعة من أعلاها. تأملي... على الرغم من خفة الضوء واضح كم هي جميلة ألوانه وكم هي دقيقة رسومه. هل تراها يا أستاذ أنور؟ ألا تعجبك؟

قال أنور: أراها جيداً، وتعجبني كثيراً. ذكرتني بزخارف بيوتنا القديمة في دمشق. في هذه الأيام يتحمّس الكثيرون عندنا في الدعوة إلى الحفاظ على أمثالها من عبث الجاهلين بقيمتها، ومن جشع متصيدي التحف الأثرية الجاهدين في استلابها.

قال سهيل: حسناً. سنمر مسرعين بأقسام الحرملك لتأخذوا فكرة عن سعة السراي وتعدد قاعاتها ومقاصيرها. هذا جناح مهجور منذ عشرات السنين. انتبهوا لئلا يتعثر أحدكم في العتمة بحجر أو بحفرة مهملة. هاتي يدك يا دلال وأمسكي بيد أمك.

ضحكت دلال ضحكة قصيرة وقالت، وهي تلتصق بخطيبها:

ـ كأنك تحاول إخافتنا. هل تظننا أولاداً صغاراً؟ إعطيني يدك يا أمي وأطبقي على يد ضيفك لئلا يضيع منك في هذه المتاهة...

وكما طلبت منها ابنتها، أطبقت السيدة شاهناز بأصابها المليئة

اللدنة على كف أنور وجرته إليها وهي تلحق بابنتها المسرعة وراء خطيبها. مرة أخرى، بعد تلك المرة في السيارة، عاد عطرها الناعم يفغمه كما عاد جسدها المليء يزحم جذعه في هذه الممرات المتلاحقة. عاوده الشعور بالحرج وهو يجد أنها، بعد إمساكها كفه، أدنته إليها أكثر فتأبطت ذراعه، شادة عليها، حتى لأحس بحرارة ساعدها العاري تخترق نسيج سترته وتدفىء بشرته. أتراها صدّقت تحذير ابنتها لها من أن يضيع منها فالتصقت به بهذا الشكل؟ همّ بأن يعيد عليها ما قالته دلال لخطيبها قبل قليل، فيلفت نظرها إلى أنه ليس ولداً صغيراً لتخشى عليه الضياع. ولكنه لم يجد هذا لائقاً، فظل صامتاً يستمع إلى شروح المهندس سهيل وتعليقاته، وهو يقودهم في ممرات الحرملك، وقد اختلطت في خاطره وصدره الأفكار والمشاعر حتى لخفّ فهمه لما كان يسمعه من هذه التعليقات وتلك الشروح.

وأخيراً انتهى بهم سهيل إلى الممر المضاء خارج الحرملك، حيث كان في انتظارهم صهره وأخته. قالت له السيدة شاهناز، وكانت قد أفلتت ذراع أنور منذ ما سطع عليهم النور:

ـ أريد أن أسألك... كم عمر هذه السراي؟

أجابها: لا أحد منا يدري على التحقيق يا امرأة عمي. ترين أنها تقع بين حي الفرافرة وحي تحت القلعة. كل بيت من هذين الحيين له من العمر مئات السنين. وهذا ما يميز عمارات مدينتنا عن عمارات مدن بلادنا الأخرى. دمشق مثلاً. جدران قصور دمشق القديمة، على جمال هندستها ودقة زخارفها، مبنية من طين وخشب. ربما أرضت العين، ولكنها هشة سريعة الانهيار ثم الزوال. لا تأخذ على خاطرك يا ضيفنا الكريم...

قال سهيل جملته الأخيرة بلهجة المعتذر، ولكن الغمزة فيها لم تخف على أنور. تبادرت إلى لسانه كلمة هم بأن يرد بها على الانتقاد الذي سيق إلى عمران بلده، ولكن سهيل لم يترك له مجالاً لذلك. كان هذا قد انتهى بالجماعة إلى الباب المغلق، الذي كانت تنبعث من ورائه أصوات الآلات الموسيقية، في صدر الممر، فدفعه بيده، بقوة.

انفتح الباب بالدفعة القوية من يد سهيل فارتفعت فجأة أصوات الآلات الموسيقية مالئة الأسماع بأنغامها، وسط ضوء أكثر إبهاراً من ضوء الممر المكشوف الذي يصل بين باب السراي الخارجي وهذا الباب الأخير. في ذلك الضوء الساطع وفي ضجة أنغام الآلات أبصر الوافدون الجدد أمامهم قاعة فسيحة الجنبات، مرتفعة السقف، يتصدرها إيوان مرتفع عن أرضها، مملوءة حضوراً توزعوا بين قلب الإيوان وجنبات القاعة. كان ذلك في أعين هؤلاء الوافدين شبه مفاجأة شعروا بها بعد تسللهم في الأزقة الضيقة الشاحبة الأنوار وتجولهم في ممرات الحرملك المعتمة واستماعهم الطويل إلى شروح دليلهم عن ماضي سراي إسماعيل باشا وحاضرها.

في شبه المفاجأة هذا وقفت السيدة شاهناز ووقف معها مرافقوها على عتبة الباب المفتوح، كالمترددين في الدخول. وما لبث أن ساد الصمت القاعة إذ توقفت الآلات الموسيقية عن العزف في آن واحد. ربما كان توقفها تهيؤاً من العازفين للترحيب بهؤلاء القادمين، أو كان لأن الوصلة المعزوفة كانت قد بلغت ختامها. وانتصب في صدر القاعة، تحت مصطبة الأيوان، شاب طويل القامة، دقيق الشاربين، أنيق الملبس، صاح بأعلى صوته:

ـ أستاذ سهيل أهلاً ومرحباً. أهلاً بك وبضيوفك. تفضلوا.

- ١٥ -

من أنور إلى سميرة

عزيزتي:

بعد التحيات والأشواق، أكتب إليك هذه السطور متردداً. هل ستثورين في وجهي كما ثرت عليّ في تلك الرسالة، يوم كتبت لك عن زيارتي لأسرة الحاج نعمان وتناولي الغداء في داره؟

مهما كان خوفي من ثورتك، لا أستطيع إلا أن أشركك، ولو عن طريق الوصف، بمتعة السهرة التي حضرتها في صحبة أسرة الحاج نعمان نفسها... بكاملها أو، على الأصح، بغالبية أفرادها: الأم والبنت، وخطيب البنت، وأخت هذا الخطيب وصهره زوج تلك الأخت. قولي الآن ما تقولين، وأمري إلى الله! الحاج نعمان لم يكن حاضراً فهو مشغول بأعماله الموزعة في بلاد ثلاث قارات على الأقل. أما الصبي المدلل، ربيع، الذي كتب إليّ رسالة يدعوني فيها إلى أن نلتقي في حلب، فقد اختفى أو هرب لا أدري إلى أين حين وصلت إلى مدينته.

نعم، كانت سهرة ممتعة. في مرات عديدة التفتّ إلى يميني، متخيلاً أنك إلى جانبي، لأرى تعابير محياك وأنت تستمعين إلى صوت صبري أفندي، ذلك المغني الشائب، وهو يترنم بلياليه معيداً ومكرراً لها، في كل مرة بنغمة تختلف عن التي قبلها وبطبقة صوت تختلف عن التي قبلها. ولكنك مع الأسف لم تكوني إلى جانبي. كان على يميني سهيل، خطيب الآنسة دلال، وكان يمسك بمنكبي ويهز جذعي عند كل آهة يطلقها في طربه، كأنه يظنني غافلاً عن جمال ما أسمع فينبهني إليه...

لم أصف لك المكان الذي قضينا فيه سهرتنا. المكان هو سراي

إسماعيل باشا، بين حي الفرافرة وحي تحت القلعة. أعرف أن هذه الأسماء تمرّ عليك بالكرشوني، إذ لم تطرق سمعك قبل اليوم. إسماعيل باشا ليس رجلاً حياً. مات منذ مائة وعشر سنوات أو مائة وعشرين. مات وترك سرايه لقاطع أحجار من بسطاء الناس، صاحب مروءة وصاحب ذوق، يعيرها في كل أسبوعين لمجموعة من هواة الطرب والموسيقى، مختلفي الأعمال والأعمار. فهم بين مهندس وطبيب، وشيخ خريج المدرسة الخسروية، وهي مدرسة الشرع الحنيف في هذه المدينة، وتاجر، وصاحب مصنع نسيج، وعامل في ذلك المصنع! تتباعد دروب حياتهم في النهار، ولكنهم في مساء أول سبت وثالث سبت من كل شهر يجتمعون في إيوان سراي إسماعيل باشا. هم ونساؤهم وأصدقاؤهم ونساء أولئك الأصدقاء... يجتمعون ليعزفوا البشارف ويغنوا التواشيح والقدود الحلبية، وربما دبكوا ورقصوا على أنغام العود والقانون والدربكة حتى يطلع عليهم الفجر.

أعرف أنك تقولين الآن: هذا أنت الذي تشكو من جفاف حياتك في وظيفتك العقيمة! احلمي عليّ، أرجوك. إنها ليلة واحدة في كل هذه الأسابيع الطويلة التي كان أنيسي فيها وجه الأستاذ صبحي، وقد وصفت لك في مكاتيبي السابقة جماله الأخاذ! ليلة واحدة، لن أعيدها إلا وأنت معي. افتقدتك إلى درجة أني رسمت في رأسي خطة لاجتذابك إلى هذه المدينة التي تبدو للعابر بها جافة كل الجفاف، أما الذي يحظى بالاطلاع على خوافيها فيكتشف كم هي حافلة بكل ما يحلو للعين والنفس.. خطتي هي أن أدعوك في ذات يوم، أنت وأخاك ماجد، إلى زيارتي في المركز. عندئذ أطلب من صديقنا سهيل، صهر آل الحاج نعمان، أن يرتب لنا

سهرة في إحدى ليالي السبت في سراي إسماعيل باشا. طربي آنذاك سيكون في قمته حين تكونين بقربي وتقولين آه كلما مدّ صبري أفندي صوته بإحدى سحباته المسكرة بياليل ويا عين.

الله، كما يكتشف الإنسان خطأ تقديراته حين يحكم على الآخرين من النظرة الأولى إليهم، أو من مظاهرهم الشكلية. حدث هذا لي مرة أولى في حكمي على الأستاذ صبحي من دمامة خلقه، قبل أن أكتشف أيّ ثروة من نضج التجربة وطيب النفس وراء تلك الدمامة. وحدث لي هذه المرة أيضاً حين وقعت عيني على ملامح صبري أفندي، قبل أن أسمع صوته. أصفه لك: وجه أصفر صفرة شمعية كأن الدم الأحمر ما مر في عروقه يوماً ما، بذقن غير حليقة عمر أشعارها أربعة أيام أو خمسة، توحي بالتهاون والاهمال لا بأن صاحبها من الذين يطيلون لحاهم. حين أكرمونا، نحن الوافدين الجدد، فقرّب كرسيّي من الإيوان ومن مجلس صبري أفندي، خيل إليّ أن جلدة وجهه المغضن والشاحب، المشدودة على عظام وجنتيه، من جنس جلد الدف الصغير ذي الصفحات النحاسية الذي كان ينقر عليه بأصابعه. اصفرار وجهه كان ينعكس على بياض عينيه وبياض أسنانه فتبدو كلها مصفرة بشحوب. لم يخطر لي أبداً أن في حنجرة فقير الدم الشائب هذا تلك الأوتار التي انطلقت فجأة في صيحة مطربة، رنانة وعالية، تكذب أشد التكذيب مظهر صاحبها الموميائي.

هل ترينني أحسنت وصف صبري أفندي فقربت صورته إلى مخيلتك؟ لو كانت أقلامي الملونة وصفحة الورق أمامي آنذاك لكنت رسمته لك بطربوشه المطعوج، المائل إلى الخلف واليسار فوق أذنه، كأنه بقية من مطربي قصر إسماعيل باشا يرحمه الله، نسي أن

يصحبه معه حين مات، فبقي في صدر إيوانه. هذا ما يوحيه عمره وشكله ونوع هندامه. أما في غنائه وإطرابه فإنه بقية من جماعة زرياب وإبراهيم الموصلي وابن سريج وبقية المغنين الذين عدّدهم كتاب الأغاني في طبعته الصفراء الموجودة في مكتبة والدك أطال الله عمره، والذي طالما جعلت حجتي للتردد على منزل أهلك رغبتي في استشارة مجلداته العتيقة...

حاصله... كانت ليلة لا تنسى. لا أدري إذا كان صبري أفندي متعلماً، أعني ذا ثقافة تعينه في اختيار الكلام المغنّى. بعض التواشيح التي غناها كانت منتقاة بمعانيها مثلما هي مطربة بألحانها. ولكن الأمر لم يخل من أدوار قديمة بمعان مبتذلة يكثر فيها التذلل للحبيب وسكب الدموع على الهجر والصدود. معان كنا نتناقش حولها أنا ووالدك فأنزل فيها على رأيه، لا عن قناعة ولكن إكراماً لعينيك! إلا أن بعض القصائد التي غناها صبري أفندي كانت حقاً قطعاً أدبية جميلة. هل سمعت بقصيدة أولها: ما أقصر الليل على الراقد، وأهون السقم على العائد؟ طبعاً، لا. سأقرأها لك حين نلتقي. لا أستحل كتابتها على الورق إليك، خشية من أن يظن رقيب المراسلات أني أروي حكاية جرت لي ولك في ليلة ما!

نعم، لا بد أن أجد طريقة أسهّرك بها في حفلة يوم سبت في سراي إسماعيل باشا. ستطربين معي بلا شك. لن أخشى عليك بأن تفتني بصبري أفندي أو من أن يفتن هو بك. إنه شيخ موميائي الوجه، وإن كانت حنجرته من ذهب. ثم... لم أره في كل سهرتنا تطلع إلى حسناء من الكثيرات فيه. بل أحسبه من طراز الفنانين في تلك الأيام القديمة... وربما في أيامنا هذه أيضاً... فقد لاحظته يختص بنظراته بعض الفتيان المرد الذين كانوا بين الجلوس! أم لعلي آثمٌ في

ظني هذا؟ استغفر الله إذن، وأرجو من صبري أفندي المعذرة على الشك الخاطىء...

هل أطلت عليك؟ كيف إذن لو فصلت لك كل ما فعلته ورأيته في إقامة ثلاثة أيام في حلب لإصلاح التراكس ـ باكر؟ لن تنامي ليلتك حينئذ. أو لعلك تطبقين أوراق رسالتي قائلة: يا له من ثرثار، ومن واسع الخيال يجعل من الحبة قبة ومن القشة الهزيلة شجرة سنديان!

إلى الرسالة المقبلة إذن. وفي انتظار تعليقك على ما كتبته لك، أعلن لك، من فوق سطوح أعلى بنايات المركز رقم ٦، حبي...

أنور

لم يبالغ أنور فيما وصف به سهرته وطربه فيها. القصيدة التي كتب لخطيبته مطلعها، كانت مقطوعة جميلة أحسن صبري أفندي وجوقته إنشادها، وقطعها هو بترديد ياليل ويا عين بصوت على صفائه وعلو طبقته لا يخلو من شجى ورنة حزينة. ولعل الذي أوقف أنور عن الاستمرار في الحديث عن تلك السهرة لم يكن خوف الإطالة وحده، وإنما خشيته من أن يثير هواجس الخطيبة إذا فصّل لها الكلام في كل ما رآه وما سمعه تلك الليلة. فماذا لو أنه حدثها عن جولته ورفاق سهرته في آخر الليل في أحياء المدينة المقفرة؟ وماذا، بصورة خاصة، لو أنه نقل لها الكلمة التي همست بها السيدة شاهناز لنفسها والتقطها سمعه هو، وظلت بعد ذلك تتردد في خاطره حتى وهو يحرر لها، لسميرة، رسالته هذه بعد وصوله إلى المركز رقم ٦؟

جولة آخر الليل لم تكن في برنامج الساهرين، سهيل وشلته، ولا كانت عند أنور، لو استشير فيها، شيئاً يهواه. إلا أنه كان ضيف

زوجة الحاج نعمان وابنتها، فكان لا بد أن يقبل بما قبلت به مضيفتاه. خرجت دلال بسيارتها، ووراء سيارة خطيبها، من زقاق غير الزقاق الذي دخلتاه في الحي الذي تقوم فيه السراي، وإن كان لا يقل عنه ضيقاً وعتمة. وانتهت السيارتان من هذا الزقاق إلى شارع عريض معبد ومنار راح يبعد منحرفاً عن القلعة التي بدت كتلتها الضخمة تسد الأفق إلى يمينه. كان في حسبان أنور أن السيارتين ستنعطفان إلى اليسار آخذتين في جادة الخندق نحو غرب المدينة حيث يقوم فندقه. فرفاقه سيوصلونه إليه بلا شك قبل اتجاههم إلى الأحياء الجديدة. ولكن العربة المتقدمة، عربة سهيل، اخترقت الجادة العريضة واجتازت منعطف جادة الخندق متجهة شمالاً في شارع تصور أنور أنه سينتهي إلى المنطقة الصناعية في حي الميدان، حيث كثر تردده في هذين اليومين. سألت السيدة شاهناز ابنتها:

ـ أين يأخذنا خطيبك؟

أجابت الفتاة: رأيته أركب معه ضارب العود في فرقة الليلة. أظنه سيوصله إلى بيته. أما بعد ذلك فلا أدري أين... تعرفين عقلياته.

تضاحكت الأم والتفتت إلى أنور، الذي أخذ مكانه في المقعد إلى يمينها في العودة كما في المجيء، وقالت:

ـ هل نعست يا أستاذ أنور؟ الذين يسهرون هذه السهرات في بلدنا ينهونها أحياناً بإفطار فول مدمس ومامونية حلبية في إحدى الحارات الشعبية. ربما كان هذا ما ينويه لنا سهيل الآن.

لم يجب أنور على سؤالها عما إذا كان قد نعس. كان النعاس، بالفعل، قد أثقل أجفانه بعد توقف صبري أفندي عن الانشاد، وبعد ما دار أحد الشباب على الحضور بكأس الشاي الأخيرة قبل

الانصراف. أما في هذه اللحظة فقد تطايرت غلالة الوسن عن عينيه وأحس بنفسه ناشطة وبأنفاسه خفيفة، وذلك منذ لفح نسيم آخر الليلة وجهه وملأت خيشومه رائحة الرطوبة في الشوارع التي بدأت العربات رشها استعداداً للصباح القادم. على أنه تمنى أن لا تكون نية سهيل ما قالته أم خطيبته. فما كان يشوقه أن يعود فيجلس بين أربعة جدران، أو أن يتناول أي طعام، بعد النشوة التي عاد بها من سهرته، والتي كان يحس بأنها لا تزال تفيض بها مشاعره. وبينما كانت السيارة السبور تتابع سابقتها، من شارع إلى زقاق إلى جادة عريضة باتجاهين، في دروب مظلمة أو نصف مضاءة أو غارقة بأنوار مصابيح كشافة، مسترخياً في مقعده مغمض العينين، لا عن رغبة في النوم، وإنما استسلاماً إلى بقايا تلك النشوة التي ما زال يحس بها، بين برودة نسيم الفجر المقبل والدفء المتسرب إلى جسمه من جسد جارته المليء واللدن، الذي كان يزحمه في كل حركة من حركات مبدل السرعة من يد السائقة الشابة.

بعد ذلك السؤال، لم تنبس شفتا السيدة شاهناز بكلمة. سكتت وألقت رأسها على ظهر المقعد كأن النوم غلبها. إلا أنها لم تكن في الواقع نائمة. كانت عيناها مفتوحتين، تتطلعان إلى سقف السيارة الذي لم يكن يبين منه في الظلمة إلا سواده. بماذا كانت السيدة شاهناز، في سكوتها وتحديقها بسقف السيارة، تفكر؟ أتراها، في هذه الآونة، كانت تردد لنفسها تلك الكلمة التي همست بها بصوت خفيض، لنفسها أيضاً، والتي لم يحل خفوت صوتها بها أن يلتقطها سمع أنور؟

تلك الكلمة سمعها منها أنور حين خرج هو ورفاقه، في آخر

السهرة، من قاعة الإيوان إلى الممر المضاء الذي على أحد جانبيه يقع اسطبل الخيول ومقر الحرس، وتمتد على جانبه الثاني أبنية جناح الحرملك. في أسماعهم كانت لا تزال تتردد أصداء نقرات الأوتار في العود والقانون، وأصداء ليالي صبري أفندي وكلمات الغزل التي كانت تفيض بها أغانيه متحدثة بألسنة العشاق المعاميد. عندما خرجوا، سار سهيل وخطيبته في المقدمة، ووراءهما سارت أخته وزوجها وتبعهم أنور، ووراء الجميع السيدة شاهناز. أحسن أنور أن مضيفته تأخرت في لحاقها بهم،فالتفت إليها. رآها واقفة أمام المنفذ الذي كانوا خرجوا منه، قبل دخولهم قاعة الإيوان، بعد تفقد قاعات جناح الحرملك. كان رأسها مرفوعاً في اتجاه سطح الجناح كأنها كانت تتطلع إلى السماء فوقه. شعر أن ليس من اللياقة أن يتركها وحيدة في موقفها بعد أن سبقهما الجميع، فعاد إليها. وعندما صار قربها، ولعلها هي في تطلعها لم تلحظ عودته، تناهت إلى سمعه كلمتها تلك. سمعها تقول بصوت خفيض، ولكنه واضح، كأنها تحدث نفسها، وفي شبه تحسر:

ـ حرام... حرام أن يعيش الإنسان ولا يحب!

وخفضت رأسها فرأته. علت شفتيها ابتسامة خفيفة لرؤيته لم تلبث أن تحوّلت ضحكة قصيرة، ثم أسرعت بخطاها لاحقة بالجماعة دون أن تنطق بكلمة.

«حرام... حرام أن يعيش الإنسان دون حب!» تلك الكلمة أكانت إعجاباً وتصديقاً لأقوال الشعراء الذين غنّى قصائدهم صبري أفندي بصوته المثير، أم كانت شكوى حال من السيدة شاهناز؟ هو، أنور، ليس ممن يشكو ويأسف في هذا المجال. إن له حبه، وله حبيبته... سميرة!

أحس بشعور النشوة يغمره مرة أخرى لمرور هذه الخاطرة في باله. أم تراه أحس بذلك الشعور لأن نسيم الليل المنتهي قد ازداد برودة، أو لأن الجسد المليء واللدن الذي يجاوره ازداد حرارة والتصاقاً به كلما انعطفت سيارة دلال من شارع إلى شارع مسرعة وراء سيارة خطيبها؟!

في زحمة المشاعر والخواطر التي ملأت صدر أنور ورأسه ضاع حساب الوقت عليه ولم ينتبه لنفسه كل الانتباه إلا حين وقفت سيارة السبور الحمراء به أمام الفندق. ولعل سنة من النوم الخفيف رانت على عينيه فلم يثبت حقيقة أن السيارتين لم تتخذا طريقاً قصيراً إلى الفندق، بل التفّتا حول المدينة في الطريق الدائري حولها قبل أن تصلا إليه. ما يذكره أنه تطلع إلى يساره، وهو في السيارة، في ذلك الطريق الدائري، فشاهد أنوار المدينة في وهدتها دونه، كأنها سبحات ضوء متقاطعة في شوارعها الطويلة، ورأى إلى يساره مضيفته لا تزال في تطلعها إلى سقف السيارة وكفها اليسرى ممسكة بحقيبة يدها على ركبتيها. أما عند وقوف السيارة أمام باب الفندق فقد دهش حين أحس بأنها سحبت ذراعها الأيمن، نصف العاري، من وراء رأسه وأن أصابعها تخللت شعره الأسود الكث أثناء ذلك. لا بد أن غفوة قصيرة استغرقته فأذهلته عن الساعد الرخص الذي كان يحضن رأسه، بينه وبين مسند المقعد. نعم لا شك في أنه كان غافياً...

الفصل الثاني

- ١ -

قال الأستاذ صبحي لأنور حين دخل عليه غرفة المكتب في الصباح:

ـ افتقدناك كثيراً. كأنها ثلاثة شهور هذه الأيام الثلاثة. يبدو أنك أصبحت دعامة لا يستغنى عنها في مركزنا يا بك.

احمر وجه الفتى وهو يسمع هذه الكلمات من راعيه، متخوفاً أن يكون في إطرائه أثر من السخرية. قال:

ـ لم أكن لأتأخر لولا أن إصلاح الباكر احتاج كل هذا الوقت. اسأل المعلم شاهين. فوق معالجة كسر المحور كان علينا أن نصنّع المسننات ونصلح بكر الجنزير.

قال صاحبه: وهل تظنني ألومك؟ ربما حسدتك على أنك خلصت من عاصفة العجاج التي هبت علينا في غيابك. يا لها من عاصفة... أمست الرؤية معدومة على بعد خمسة أمتار من الواحد. أوقفنا الآليات عن العمل كل بعد الظهر أول أمس، وقضينا صباح أمس في كنس الغبار عن مناضدنا وعن أرضية المكاتب. قل لي، ما هي أخبار شكيب؟

قال أنور: هو بكل خير، يرسل إليك تحيته ويشكرك... يشكرك على رعايتك لي واهتمامك الزائد بي.

غطس رأس الأستاذ صبحي بين كتفيه قبل أن يندفع به عنقه إلى الأعلى، علامة تأثره، تواضعاً أو استنكاراً، بما سمعه وقال:

ـ وماذا عملت أنا؟ أنت شاب طيب وذكي وعالي التهذيب. أعجبت مديرنا الأستاذ فياض نفسه، فسألني عنك متفقداً.

قال أنور، مستغرباً: الأستاذ فياض؟ ماذا يريد مني؟

ابتسم الأستاذ صبحي وقال: لماذا ارتعت هكذا؟ إنها قضية ذلك الرجل، أمير غزلان، وأولئك الناس، السياد. يريد منا الأستاذ فياض أن نذهب، أنا وأنت، إلى الغزلان ونستفهم منه عن ملابسات حكاية مرور السياد في أرضه.

هذه الكلمات كانت لأنور وخزة نبّهته من غفوة كان ينعم فيها بحلم جميل. ها هو إذن في المركز رقم ٦ مرة أخرى، قد عاد إلى رحبة الآليات وإلى الأستاذ فياض، وإلى أمير غزلان المتسلط وأولئك البؤساء السياد. أين أجواء الألحان الشجية بالشعر الجميل، ومشاوير آخر الليل إلى جانب السيدة شاهناز وابنتها دلال؟! كان ذلك حلماً جميلاً في غفوة خاطفة. أما الآن فقد عاد إلى واقع عمله الجاد والجاف، وعليه أن يعيش هذا الواقع الذي يمثله الأستاذ صبحي خير تمثيل: الخير بكل معانيه، ولكنه خير كريه المظهر مرّ المذاق.

وكأن الأستاذ صبحي استبطأ تعليق فتاه على رغبة مديرهما العام، فأردف يقول:

ـ سنذهب إلى هذا الأمير. لا بد أن تتعرف عليه، إذا لم يكن اليوم

فغداً أو بعد غد، فتتعرف عن طريقه على صنف من الناس جديد عليك. ما رأيك؟ نتصل به الآن فنعين له موعداً صباح الغد، في الساعة الثامنة، في مكتبه في ذلك البناء الذي يقول إنه سيكون معمل زيوت.

تساءل أنور: أليس هذا موعداً مبكراً بالنسبة إليه؟ قلت لي مرة أنه ينام في البلدة، عبر النهر.

قال الأستاذ صبحي: سنضطره إلى أن يبكر في المجيء للقائنا. هل علينا وحدنا أن نكون على رأس العمل في السابعة صباحاً؟ سأتلفن له الآن. وبالمناسبة... ربما استغربت أن يكون في معمل السيد غزلان تلفون، وهو على هذا البعد الكبير من أقرب مقسم للهاتف. هذه حكاية أخرى تسمعها مني غداً ونحن في الطريق إليه. أتلفن إليه قبل أن يغادر معمله إلى البلدة.

في صباح اليوم التالي كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة ببضع دقائق حين دخل أنور وراء الأستاذ صبحي مكتب السيد أمير غزلان في جناح جانبي من بناء الزيوت. المكتب كان غرفة كبيرة تتصدرها قبالة الباب منضدة عريضة وعالية، حجبت وراءها أغلب جسد الجالس وراءها فلم يبن منه إلا رأسه وأعلى منكبيه. وحتى حين قام أمير غزلان في وجه زائريه ظل أكثر جسده مختفياً وراء تلك المنضدة، لقصر قامته من ناحية ولأنه، من ناحية أخرى، لم ينهض بكل طوله، كأن منزلة هذين الزائرين عنده لا تستحق منه القيام الكامل لهما. الصحيح أن أنور لم يعر هذه الظاهرة التفاتاً كبيراً. فقد كان انتباهه منصرفاً إلى أمر آخر. ظل واقفاً بالقرب من أحد مقاعد المكتب يدير رأسه يميناً ويساراً، متأملاً في جدران الغرفة الواسعة وسقفها، وحتى في أرضيتها، كالمتعجب من أنه يجد في

هذه البقعة النائية والمنقطعة مكاناً بهذا الغنى في الأثاث والزينة. وسمع صوت الأستاذ صبحي إلى جانبه يقول له:

ـ تفضل واجلس يا أستاذ أنور.

أسرع عندئذ في الجلوس في المقعد القريب منه، أو أنه غاص بجسمه في ذلك المقعد الوثير. وحين تلاشى التعجب الذي خامره في البدء فطن إلى ما لم يعره اهتماماً من سمات هذا اللقاء الأول بصاحب معمل الزيوت. لاحظ أن جفاء أمير غزلان في استقبالهما، هما موفدي دائرة رسمية من دوائر الدولة، قد قوبل بجفاء أشد من الأستاذ صبحي. لم يتلفظ هذا بكلمة تحية من مثل صباح الخير، بل اكتفى بأن لوح كفه إلى جانب رأسه ثم أخذ مجلسه في واحد من المقاعد، غير منتظر من صاحب المكان أن يدعوه إلى هذا. بل إنه زاد، كالمتعمد، أن دعا زميله إلى الجلوس بصوت عال، وبلهجة تفيد أنه هو الآمر في هذه اللحظة وهذا المكان وليس الرجل المتكوّم وراء منضدته العريضة والعالية...

بدأ الأستاذ صبحي الحديث بقوله:

ـ سيد أمير. كلفنا سيادة المدير العام بأن نقف على موضوع الخلاف بينك وبين جماعة من أصحاب الحقوق حول الطريق الذي سلكناه الآن. أقول لك إن الانطباع الذي أخذناه ونحن قادمون إليك غير مرضٍ. تأخرنا عشر دقائق في الوصول إليك، لأننا وجدنا الدرب مغلقاً بحاجز عند انتهاء محاذاته لأرض الصناعة الزراعية وبدء محاذاته لأرض معملك. حاجز فتحه لنا واحد من رجالك بعد انتظار طويل. هذا ممر عام، كيف تسمح لنفسك بأن تضع حاجزاً مانعاً للسير عليه؟

قال أمير غزلان: هذا ليس ممراً عاماً. إنه طريق خاص بمعملي، وأنا الذي أمرت بإغلاقه أمام المارة، إلا إذا كانوا يعملون عندي.

كان جل انتباه أنور في هذه اللحظة منصرفاً إلى تأمل سحنة الرجل البارز رأسه فوق المنضدة العالية أمامه. كان مكور الوجه غليظ الملامح، بأنف مفلطح وشفتين ثخينتين. وكان شاربه مفرطاً في السواد، كما كان مفرطاً في السواد أيضاً شعر رأسه الكثيف المجعد. وحين ردّ على استنكار الأستاذ صبحي، وجد أنور أن لهجته في عباراته، على كون مفرداتها عادية وغير منفرة، كانت بخشونتها وجفائها متلائمة تمام التلاؤم مع السحنة الغليظة للمتكلم بها. دفعته ملاحظته هذه إلى أن يجيل نظره من جديد في الغرفة، متأملاً في أثاثها الأنيق المترف وجدرانها الملفعة بالخشب الثمين والمزين، كأنه يرى عجيباً أن يكون كل هذا ملكاً لمن له هذه السحنة وهذه الطريقة في الكلام. ثم ما لبث أن التفت إلى صاحبه الأستاذ صبحي، منتظراً تعقيبه على ادعاء أمير غزلان ملكيته للممر.

قال أبو منير، وبلهجة هادئة:

ـ عجيب ما تقوله يا سيد أمير. واللافتة الموضوعة إلى جانب الحاجز؟

سأل الرجل: أي لافتة؟

قال الأستاذ صبحي: كأنك لم تمر بها هذا الصباح!... لافتة طويلة عريضة مكتوب عليها: ممنوع الدخول... طريق مخصص لآليات مركز الاستصلاح! مركز الاستصلاح؟! نحن مركز الاستصلاح يا سيد أمير... من سمح لنفسه أن يتكلم باسم مؤسسة رسمية بدون إذن؟

قال الأستاذ صبحي جملته الأخيرة بصوت مرتفع ونبرة حادة

تضاربا مع هدوئه في أول كلامه. وبدا لأنور أن صاحبه كان صادق الانفعال في حدته، إذ ترافقت كلماته بارتفاع كتفه وانخفاضها بسرعة في عرّته المعهودة. وبدا لأنور كذلك أن أمير غزلان قد فوجىء بهذا الاحتداد من مخاطبه، إذ رآه يباعد بين شفتيه الغليظتين كمن يريد الكلام ثم لا ينطق بلفظة وإن ظل فمه مفتوحاً. أما الأستاذ صبحي فقد أعاد سؤاله الأخير متبعاً إياه بحركة كتفه وعنقه، وهو يقول:

ـ نعم، أمير أفندي، من سمح لنفسه بهذا؟

وتحرك أخيراً لسان أمير غزلان بين شفتيه الغليظتين فقال:

ـ ليس في اللافتة ما يسيء لأحد يا صاحبي... يا أبا منير. على كل لست أنا الذي أمر بوضعها.

قال الأستاذ صبحي: من إذن؟

أجاب الرجل، بلهجة متطامنة لا تمت بصلة إلى لهجته في أول الحديث:

ـ إنها فكرة المهندس نجيب، مدير المعمل... معملنا لاستخلاص الزيوت من بذور عباد الشمس والفستق السوداني. صحيح أن الدرب في أرضنا ولنا الحق في منع من نشاء من استخدامه، ولكنك تعرف هؤلاء الفلاحين. إنهم لا يحترمون حقاً لإنسان إلا إذا دعمته القوة أو السلطة، سلطة الحكومة. كتب المهندس هذه اللافتة ليستريح من مرور أهل القرية بنسائهم وصبيانهم وحميرهم أمام بناء المعمل، فلا نضطر إلى زجرهم وإلى الأخذ والعطاء معهم. لم يقصد أحد أن يتخذ له صفة رسمية بوضع اللافتة.

أدرك أنور من هذا الشرح الطويل انكسار عنفوان الرجل أمام هجمة

الأستاذ صبحي المفاجئة عليه. ومع ذلك فإن نظرة عينيه الماكرتين بين أجفانه المتنفخة لم تكن توحي بأنه هش إلى درجة الاستسلام من أول جولة. على أن أبا منير، وكأنه أرضاه ما لمسه من تطامن محدثه، عاد إلى التكلم بهدوء، فقال:

ـ حسناً يا سيد أمير. ليكن بعلمك أننا عند عودتنا سنحمل اللافتة معنا لنحجزها في مخازن المركز. بعد هذا نريد، أنا والمهندس أنور، الذي تدخل الآليات في اختصاصه بصفته مشرفاً على الرحبة، أن نبحث معك في صلب الموضوع الذي جئنا من أجله.

تململ الرجل في مقعده فغاب جزء كبير من جثته وراء المنضدة، ولم يعد يرى منه إلا ذقنه وما فوقها. قال:

ـ ما دمت يا أبا منير ستأخذ اللافتة، لم يعد بيننا خلاف. لو كنت كلفت نفسك وخبّرت بالتلفون لأرسلتها إليك بدلاً من أن تتعذب أنت والأستاذ المهندس في المجيء إلينا.

قال الأستاذ صبحي متظرفاً:

ـ ليس هذا عذاباً. كسبنا رؤيتك ورؤية هذا المقر الفخم الذي لا أظن أحداً في هذه المنطقة، حتى الرئيس الأعلى في المحافظة، قد زيّن مكتبه على طريقته. ما قولك يا أستاذ أنور؟

كانت هذه لفتة من الأستاذ صبحي لإشراك أنور في الحديث. وعلى الرغم من نفور هذا من صاحب المكان منذ النظرة الأولى، فإنه لم يرد أن يخفي الشعور الذي أحس به عند رؤيته مكتباً بهذه الفخامة في بقعة أفخم ما فيها براكات مسبقة الصنع. قال مجيباً على السؤال:

ـ لو رأيت المهندس الذي صمم أثاث هذه القاعة لهنأته من كل قلبي. كل شيء فيها يلفت النظر بجماله وحسن تنسيقه.

قال الأستاذ صبحي، وعلى شفتيه ابتسامة ماكرة:

ـ والأستاذ أمير، ألا تهنّؤه؟ إنه هو الذي يتنعم بهذا المقر الملوكي. تهنؤه وتشكره على أنه زرع في صحرائنا الجافة هذه التحفة الفنية الفريدة...

فعلت هنا ضحكة من وراء المنضدة العالية، أطلقها أمير غزلان وهو يرفع جذعه فوق حافتها ويقول:

ـ يا أبا منير، المسألة مسألة مصريات... دراهم! افتح كفك، تجعل من الصحراء جنة. لو تعرف يا عزيز عيني كم كلفت هذه القاعة... كم أخذ مهندس الديكور، وكم قبض النجارون والدهانون...

بدا أن أثر اللهجة الزاجرة، التي طامن بها الأستاذ صبحي من اعتداد أمير غزلان قبل قليل، قد تلاشى الآن، وأن الرجل استعاد زهوه بنفسه. اعتدل في جلسته فارتفع كتفاه فوق حافة المنضدة، علامة ذلك الزهو. وكأن الأستاذ صبحي أحسّ بهذا، فتحول بموضوع الحديث وقال له، بعبارات اختفى منها طابع التظرف الذي اتسمت به كلماته الأخيرة:

ـ هذا صحيح. ولكن يجب أن لا ننسى ما جئنا من أجله يا سيد أمير. أعني الدرب الفرعي يا سيد. أنت تقول إنه طريق خاص لأنه يقع في أرض تملكها. ولكن الذي نعرفه أنك تملك أرضاً على جانبي الدرب. أما الدرب نفسه فهو طريق عام.

تراءى لأنور أن وجنتي أمير غزلان زادتا غلظاً عما كانتا عليه، وأن

عينيه غارتا في وقبيهما وراء غلظ تلكما الوجنتين. وعلا صوته وهو يقول:

ـ من يقول هذا؟ الأرض لي بكل ما فيها... بأبنيتها وطريقها، وحتى بالناس الذين يعيشون فيها. اشتريتها وما فيها بمالي. سنداتها ملك يميني، وهي في هذه الخزانة. ملكي أنا أمير غزلان. كأنكم صدقتم أولئك المهابيل الذين اسمهم السياد؟!

توقع أنور أن ينفجر الأستاذ صبحي في وجه أمير غزلان بمثل الحدة التي تحدث بها إليه فأجبره على التخاذل قبل قليل. ولكن هذا لم يحدث. ظل أبو منير هادئاً وهو يرد على الرجل، قائلاً:

ـ على هونك يا سيد أمير. أولاً، نحن لا علاقة لنا بالسياد، وإن كنت معك في أنهم مهابيل حين باعوك أرضهم بثمن بخس وبعت أنت بعض تلك الأرض للدولة بأثمان خيالية. نحن جئناك موفدين من قبل الأستاذ فياض، مديرنا العام، الذي قال له خبراؤنا إن الدرب المختلف عليه كان موجوداً ومسلوكاً قبل أن تشتري أنت الأرض وتبني فيها عمارة المصنع ومقرك الفخم هذا.

وبدا أن هدوء كلمات الأستاذ صبحي أوحى إلى الرجل أنه في موقع قوة في حواره مع هذين الموفدين، فقد ردّ على مخاطبه بالصوت العالي نفسه قائلاً:

ـ الأستاذ فياض؟ على عيني الأستاذ فياض، ولكني لا أعرفه وليس لي علاقة به. علاقتي بمن هو أعلى مقاماً من الأستاذ فياض... بأناس يعرفون أن الدرب لي، وأن لي الحق في أن أفتحه لمن أريد وأغلقه أمام من أريد. إذا أحب حضرة المدير العام أن يرى بعينه المستندات التي تعطيني هذا الحق فليتفضل ليشرب فنجان قهوة عندي هنا، وسأبسط المستندات أمامه على هذه الطاولة.

عجب أنور، وقد كان في جلسته إلى جانب صاحبه مراقباً أكثر منه مشاركاً، من أن أبا منير لم يرد على علو صوت أمير غزلان وعنف عبارته بمثلهما، فقد ظل متمسكاً بهدوئه حين راح يقول له:

ـ على هونك مرة أخرى يا سيد. عليّ أن أبين لك حقيقة مهمتنا لتفهمها جيداً ولا تتهمنا بعدئذ بأننا غششناك.هل تعرف أن تقرأ مخططاً إذا رسمته لك؟

أجاب هذا بحدة: مخطط؟ أي مخطط هذا؟

قال الأستاذ صبحي: المهمة التي جئنا بها ليست متعلقة بخلافك مع السياد المهابيل، وإن كان خلافك معهم هو الذي أثارها. عندما كلفنا سيادة المدير العام بالاستفسار عن الخلاف كان لا بد لنا من الرجوع إلى الخرائط التي بحوزتنا عن أرض الاستصلاح وأرض الصناعة الزراعية وعن أرض السياد وعن أرضك. سأبين لك ما وجدناه في تلك الخرائط وفي المستندات المتعلقة بها. اسمح لي بورقة من أوراق مكتبك.

كان الأستاذ صبحي قد نهض من مقعده وتقدم من المنضدة العالية وهو يقول هذا، فأخذ من دفتر كان عليها ورقة راح يخط عليها خطوطاً متوازية ويقطعها بخطوط متعامدة عليها ومتوازية أيضاً. هذا التصرف لم يتحدث به أبو منير قبل الآن إلى أنور. فوجد هذا نفسه مسوقاً إلى أن ينهض هو من مكانه كذلك ويقف إلى جانب صاحبه متأملاً ما كان يرسمه على تلك الورقة. قال الأستاذ صبحي:

ـ هذا مخطط الأرض التي اشتريتها يا محترم من السياد. اشتريتها بثمانية عشر قرشاً للمتر المربع. أليس هذا صحيحاً؟ فرزت قسماً من هذه الأرض المشتراة بثمانية عشر قرشاً للمتر، من الشمال وبعته

للصناعة الزراعية. بكم بعت المتر المربع من هذا القسم للصناعة الزراعية؟ بمائة وست عشرة ليرة كاملة. وهذا صحيح كذلك. كم بين شرائك من السياد وبيعك لواحدة من مؤسسات الدولة الأرض نفسها؟ ثلاثة شهور وثلاثة أيام... صحيح أيضاً! عليّ أن أنبهك يا سيد أمير إلى أنه ستقام عليك دعويان في آن واحد، كلتاهما دعوى غبن. من السياد لأنك خدعتهم في شراء أرض بثمن بخس فيما يشبه الاحتيال. ومن الدولة، ممثلة بمديرية الصناعة الزراعية، لبيعك إياها الأرض نفسها بثمن خيالي لا مبرر له. لا... لا ترفع يدك وتعترض يا سيد أمير. حتى إذا لم يحكم القضاء للسياد بالغبن فإنه سيحكم للدولة. لا سيما حين يطلع القضاء على معاملة الشراء التي تتخللها ثغرات لم تفطن إليها. من هذه الثغرات ما يتعلق بشكليات عقد البيع ومنها ما يتعلق باللجنة التي أبرمت معك الصفقة. هذه اللجنة...

وهنا قاطع أمير غزلان الأستاذ صبحي، وقال بعجلة:

ـ أرجوك يا أبا منير... هذا كلام أسمعه لأول مرة. غبن واحتيال؟ غبن مِمَّنْ واحتيال على مَنْ؟ أنا اشتريت حسب القوانين وبعت حسب القوانين. ثم إنك تقول اللجنة... ما دخل اللجنة في معاملات أجريتها معها ومع غيرها ضمن ما تقضي به القوانين؟

قال أمير غزلان هذا بصوت أبح كأنه يصدر من حنجرة جف الريق فيها. ولاحظ أنور أن تعابير وجه الرجل أخذت تتغير بسماعه لكلمات أبي منير وهو يشير بقلمه إلى الخطوط المتوازية والمتقاطعة على الورقة أمامه. تهدّلت وجنتاه الغليظتان وكمدت نظرات عينيه. ولما انتهى الكلام إلى إقامة الدعوى، أو الدعويين، هبط كتفاه إلى مستوى حافة المنضدة، غير أنه تحامل على نفسه ليقاطع بجملته

الاعتراضية الأستاذ صبحي. استقام هذا عندئذ من انحناءته على المنضدة وقال، وهو يتراجع ليجلس في مقعده:

ـ واجبنا أن ننبهك، يا سيد أمير... لمصلحتك الشخصية وللمصلحة العامة. أنت بقضية هذا الدرب الذي تدّعي ملكيته أهجت عليك عش دبابير. الثغرات التي تركتها في معاملات البيع والشراء واضحة. كان عليك أن تكون أكثر تمهلاً في الصفقات التي عقدتها مع السياد ومع مديرية الصناعة الزراعية... أكثر تمهلاً، وأقل جشعاً. من ناحيتنا، المهندس أنور وأنا، سنقدم تقريرنا إلى السيد المدير العام خلال مدة قريبة. في أسبوع، أو في عشرة أيام على أكبر تقدير. سنتركك الآن، ولنا لقاء قريب، ليس هنا على كل حال، بل في الإدارة التي ستأتيك منها دعوة رسمية. نسلم عليك.

ـ ٢ ـ

المسافة بين جناح معمل الزيوت الذي يضم مقر أمير غزلان الفخم وبين أبنية المركز رقم ٦، حيث مكتب العلاقات العامة، ليست طويلة. بضعة كيلومترات، قطعتها سيارة اللاندروفر التي تحمل الأستاذ صبحي والمهندس أنور بدقائق قليلة. كان الحاجز مرفوعاً في العودة، فلم تتوقف السيارة أمامه، كما أن الأستاذ صبحي لم يوقفها ليحمل معه اللافتة كما أنذر أمير غزلان بأن يفعل. خطر لأنور أن ينبهه إلى هذا ولكنه سكت عنه، كما سكت عن أسئلة كان يريد أن يطرحها منذ تركا وراءهما صاحب معمل الزيوت متهالكاً على مقعده العريض وراء منضدته العالية. أحجم عن أن يلقي أسئلته على صاحبه بمسمع من سائق اللاندروفر، وكانا يجلسان معاً إلى جانبه في المقعد الأمامي، لأنها ستنم عن دهشته

وعن جهله، هو أنور، بالمهمة التي عاد منها، مما لا يجب أن يظهره عن نفسه أمام إنسان غير أبي منير. ولهذا سكت في تململ طيلة الطريق، في انتظار أن يغلق باب مكتب مديرية العلاقات العامة وراءهما فينفض اندهاشه وفضوله مرة واحدة على صاحبه.

وهذا ما فعله أنور حين بلغا المكتب. لم ينتظر أن يجلس الأستاذ صبحي وراء منضدته أو أن يجلس هو نفسه على الكرسي القريب منها. بل بادره بالكلام بقوله:

ـ لا تؤاخذني يا أبا منير. قطعت قلب الرجل بكلامك عن أمور لم أسمع منك قبلاً شيئاً عنها... عن المستندات والمخططات المتعلقة بأرض معمل الزيوت وأرض السياد. لا تؤاخذني على جهلي. ليست لديّ أية معلومات عن هذه المستندات والمخططات.

ابتسم الأستاذ صبحي وهز رأسه قبل أن يقول:

ـ وأنا كذلك، لا أعرف عنها شيئاً.

قال أنور: كيف؟ لم أفهم.

أراح الأستاذ صبحي ظهره على مسند كرسيه قبل أن يقول موضحاً:

ـ أمثال هذا الغزلان، يا عزيزي، لا يمكن معالجتهم إلا بأن تخيفهم بما لا تبلغ إليه عقولهم الضيقة ويدركه فهمهم القاصر.

قال أنور: ولكنك أخفته بأمر معين. بثغرات في معاملات الشراء من السيّاد ثم البيع إلى الصناعة الزراعية. الرجل لا يعمل بمفرده بلا شك، فلا بد أن له محامين يجنبونه المزالق ويكتشفون أن تهديدك لا مبرر له.

قال الأستاذ صبحي: تقديرك في محله. هددناه بالثغرات فعلينا أن نجد هذه الثغرات. أنا واثق من وجودها، وإن لم أقع عليها بعد.

سأله أنور: ما الذي تقصد قوله يا أبا منير؟

أجاب هذا: إسمع يا ولدي. الاستغلال والغبن في هذه القضية واضحان. وما داما استغلالاً وغبناً، فلا بدَّ أن يكونا قد حصلا بطرق وأساليب لا تتماشى مع القانون. أعني أنهما تسللا إلى الواقع من ثغرات في المعاملات التي تكلمت عنها. ثغرات أخفاها من أخفاها فعميت عنها العيون، أو تعامت. علينا أن نجدها ونكشفها، أنت وأنا.

ابتسم أنور وهو يقول متسائلاً: أنا؟ ما الذي أستطيع فعله أنا؟ أخشى من أنك تقدرني بأكثر مما أستحق يا أبا منير.

وسكت قليلاً قبل أن يضيف: من كل قلبي أتمنى أن أفعل شيئاً لإنصاف هؤلاء السياد.

فابتسم الأستاذ صبحي بدوره وقال: وأمير غزلان، ألا يوحي لك بأن تفعل شيئاً له؟

أجاب أنور: تعني شيئاً ضده؟ من كل قلبي أتمنى أن أفعل ذلك الشيء. أؤمرني تجدني سامعاً مطيعاً.

فضحك الاثنان في آن واحد، بينما تظاهرت عزّة الأستاذ صبحي بأجلى ما تكون قبل أن يقول:

ـ منذ هذه الليلة سأبدأ في تقليب إضبارة شراء الصناعة الزراعية للأرض. صحيح أن لهذه المديرية استقلالها بعض الشيء عن مديريتنا، ولكن الشراء لم يحصل إلا بعد مراسلات جرت بين

المديريتين. سيسمح لي هذا بالاطلاع على مختلف ملفات العقود، ومن ذلك سأصل إلى ما أريده.

قال أنور: أمامك جهد كبير، لا بد أن أحمل نصيبي منه.

قال الأستاذ صبحي: طبعاً يا سيادة الباشمهندس، طبعاً. سيأتيك نصيبك في وقته. لنترك هذا الآن، ولنبحث في قضية أخرى تختص بك أنت شخصياً.

قال أنور متسائلاً: بي أنا؟ أيّ قضية شخصية هذه؟

مدّ الأستاذ صبحي يده إلى أنور، الذي كان في كرسيه قريباً منه، وتناول كفه اليمنى فوضعها على المنضدة أمامه، وقال وهو يبتسم:

ـ قضية هذا الخاتم في إصبعك البنصر يا عزيزي.

لم يفهم أنور لهذه العبارة من صاحبه معنى. كانت بنصره تحمل خاتم خطوبته لسميرة، وهي أمر يعرفه أبو منير بلا شك. فما الذي جعل من هذا الخاتم قضية تحتاج إلى بحث؟ قال، كالموضح لأمر لا يحتاج إلى توضيح:

ـ إنه خاتم خطوبتي كما تعرف. لم يحن الوقت بعد لأنقله من كفي اليمنى إلى اليسرى. منذ الآن أرجو أن تقبل يا أبا منير دعوتي لحضور العرس، حين يحين ذلك الوقت!

اتسعت ابتسامة الأستاذ صبحي وهو يقول: أقبلها بكل سرور. لكن أنت لا تدري بماذا تتحدث عنك البنات في جناح العازبات في مديريتنا...

ردّ أنور قائلاً: قطعاً أنا لا أدري. وأستغرب أن أكون موضوع حديث للبنات في ذلك الجناح.

قال أبو منير، وقد ارتفع كتفه وغاص رأسه بحركة خفيفة من عزّته، وهو يطلق زفرة من صدره:

ـ يعطي الإجاص، لمن ما له أضراس!

قال أنور: مرة أخرى أنا لم أفهم يا أبا منير.

قال الأستاذ صبحي: أولاً، ليكن في علمك أن حديث البنات لم يكن منهن إليّ بصورة مباشرة، ولكنه نقل إليّ. نقلته إليّ من لا تستطيع أن تطبق شفتيها على سر. إنها امرأة عمك العزيزة... زوجتي، أم منير!

أحس أنور يبعض الضيق، وبأن أثراً من الحرارة قد لفح وجهه. لا بد أن وجهه قد احمرّ. كان ذلك للحرج الذي تولاه حين سمع من صاحبه لأول مرة حديثاً شخصياً له صلة بسميرة، خطيبته، وبالفتيات الموظفات في المديرية، وبأسرة الأستاذ صبحي نفسه حين يذكر زوجته أمامه. حرج لم يطل تأثيره عليه، إذ ما لبث أن اصطنع المرح وهو يقول:

ـ الذنب ذنبك يا معلمي. أظن أن السيدة أم منير لم تكن لتعلم بوجودي في هذه المديرية لولا أنك تزعجها بترداد اسمي على سمعها في كل يوم، ومرات كثيرة.

رد الأستاذ صبحي بقول: صحيح. في أول الأمر اهتممت بك لإرضاء الأستاذ شكيب، صديقي. ولكنك فرضت نفسك عليّ، بصفاتك التي أعجبتني وقربتك مني بأكثر مما فعلت توصية صديقي ذاك. كان لا بد أن يرد اسمك على لساني في مناسبات كثيرة في البيت. وأنت تعرف النسوان...

ابتسم أنور لهذه الكلمات الجديرة بأن ترضي غروره، وقاطع صاحبه قائلاً:

ـ عند هذا أظنك تخطىء. معرفتي بالنسوان قليلة يا أبا منير. حتى سميرة ابنة الجيران منذ الصغر وخطيبتي اليوم، تبدو لي أحياناً لغزاً.

قال صاحبه: إذا كنتِ لا تعرفهن فأنا أعرفهن جيداً. أول ما فكرت أم منير. وأنا أمتدح خصالك وسلوكك، فكرت بأن تجد لك فتاة تليق بك كعروس، بين الموظفات في مديريتنا.

لم يستطع أنور غير أن يضحك. قال وهو يدير بأصابع يده اليسرى، بصورة لاشعورية، خاتم الخطوبة في بنصره اليمنى:

ـ عروس؟! وسميرة؟

قال: اعذر أم منير. لم ترك معي لترى الخاتم في إصبعك. هذا ذنبك. أظل أدعوك لتشرب فنجان قهوة عندي في البيت وتظل أنت تعتذر. وحين أخبرت زوجتي العزيزة أنك، من ناحية الخطبة والزواج، مشغول كان السيف قد سبق العذل.

ضحك أنور مرة أخرى وهو يسأل:

ـ بماذا سبق السيف العذل؟

أجابه الأستاذ صبحي: كانت أم منير، قبل إخباري لها، قد حدثت كل زائراتها من فتيات جناح العازبات بأنها تبحث للمهندس أنور عن بنت حلال. الفتيات صدقن ما قالته، حتى هاتيك اللواتي رأين بأعينهن بريق الخاتم في إصبعك اليمنى أكثر من مرة...

قال أنور: ومن هن الفتيات اللواتي شاهدنني ولاحظن أني ألبس خاتماً في بنصري؟ من ناحيتي لا أذكر أن عيني وقعت على فتاة في هذا المركز. رأيت أشباح نساء وراء زجاج نوافذ البناء المقابل، الذي

تفصلنا عنه ساحة عرضها أكثر من مائتي متر. ولمحت هياكلهن وهن يتراكضن إلى الباصات عند انتهاء الدوام. وبالمناسبة: لماذا أرى مكاتبنا في هذا الجانب من المركز محرومة من موظفات من الجنس اللطيف؟

انطلقت ضحكة قصيرة من أبي منير، لم ترافقها في هذه المرة عرته المعهودة، قبل أن يقول:

ـ يبدو أني أدخلت الدب إلى الكرم بكلامي معك عن فتيات جناح العازبات. لك الحق في سؤالك. مكتب العلاقات العامة أول مكان يجب أن يزدحم بالموظفات. ولكن ماذا أفعل؟ ما من فتاة جميلة رضيت بالعمل معي... أما غير الجميلات فأنا لا أرضى بالعمل معهن!

وسكت قليلاً قبل أن يضيف: ثم يبدو أنك نسيت. كأن طلعة الآنسة أسمهان، سكرتيرة مديرنا العام، لم تعجبك. هل نسيت تحيتها الحارة لك عندما خرجنا عن طريق مكتبها بعد مقابلتك الأولى للأستاذ فياض؟ قالت لك يومها إنك ستكون على الرحب والسعة كلما أردت أن تقابل المدير العام... يكفي أن تعلمها برغبتك بكلمة في الهاتف قبل ذلك.

قال أنور، بعد لحظة من السكوت: وهل قابلنا فتاة في ذلك اليوم؟... صحيح... كان هناك فتاة. ولكن يا أبا منير كان اهتمامي، وربما قلقي بمقابلة المدير العام آنذاك يأخذ كل فكري. الآن تذكرتها، وتذكرت أنها كانت في مقتبل العمر، حلوة وناعمة، وأنيقة في ما ترتديه أيضاً.

قال صبحي: مرة أخرى أقول: يعطي الإجاص لمن ما له أضراس! أسمهان كانت واحدة ممن حدثتهن أم منير عن تطوعها في البحث

لأنور بك، الذي يعزّه أبو منير ويعتبره مثل ابنه، عن عروس! وحين ذكرت أسمهان أنها لمحت في إصبعك، في اليمين، خاتماً ذهبياً يشير إلى أنك لست فارغاً، لم تتراجع أم منير. قالت للفتيات المجتمعات حولها، واللواتي أصبن بخيبة أمل من ملاحظة أسمهان: وماذا يهم يا بنات؟ البعيد عن العين بعيد عن القلب... هذا الشاب الحلو سيبقى في مركز الاستصلاح سنتين لا تراه فيهما خطيبته. سنتان يقلب فيهما قلب الرجل ألف قلْبة، وقلب المرأة كذلك.

لم يملك أنور نفسه عن أن يطلق ضحكة عالية قبل أن يقول:

ـ هذه الفلسفة من أم منير تخيفني يا معلمي. يحسن بي أن أطلب إجازة مستعجلة وأسافر في دمشق في الحال. لست خائفاً من قلبي، ولكن من قلب سميرة.

جاراه الأستاذ صبحي في ضحكه، وقال: القلوب بيد الله، يقلّبها كيف يشاء. ها أنت ترى كيف عُديتْ أم منير باهتمامي بك، فهي حريصة على أن لا تمر عليك سنتان وأنت عازب. يجب أن تكافئها على هذا الاهتمام بأن تزورها في بيتها، فتشرب عندها فنجان قهوة وتعلمها بأن لك خطيبة أنت شديد التعلق بها. بهذا تكف عن نفسك طمع الفتيات بك، وإلا فإن أم منير قادرة على أن تخلق لك مشاكل لا تنتهي. عن قدرتها في خلق المشاكل، إسأل بها من كان خبيراً.

دق الأستاذ صبحي صدره بكفّه وهو ينطق بجملته الأخيرة، يعني بذلك نفسه. بينما ابتسم أنور وهو يقول:

ـ ما دام الأمر وصل إلى هذا الحد، فإن فنجان القهوة في منزلك الكريم أصبح ضرورة لازمة. أرجو أن لا تصدم أم منير برؤيتي فتندم على ما وصفتني به أمام البنات.

قال أبو منير: كفاك تواضعاً يا ابني يا أنور. أخذت إذن منك وعداً بزيارتنا هذا المساء. علينا الآن أن نقابل الأستاذ فياض ونقدم إليه تقريرنا الشفهي عن زيارتنا لأمير الغزلان ذاك. في هذه المرة عليك أن تقابل ترحيب الآنسة أسمهان، قبل أن ندخل مكتب مديرنا العام، بما يستحقه من الاهتمام والانتباه... أعني أن عليك أن تتطلع إليها جيداً وترى كم هي جميلة. ليس في بالي شيء مما تتحدث عنه أم منير إلى البنات. يديم الله المحبة بينك وبين سميرة. ترى أني حفظت اسمها... يديمك لها ويديمها لك. توكل على الله وقم بنا إلى مكتب الأستاذ فياض.

- ٣ -

من سميرة إلى أنور

أنور، عزيزي:

تحيات كثيرة وشوق زائد، وشكري لك على الرسالة الأخيرة على الرغم من الأشواك التي نثرتها بين سطورها. هل تفعل ذلك متقصداً لتحرّك غيرتي في أول المكتوب ثم لتطفئها في آخره؟ أسامحك من جانبي، على كل حال.

تسألني عن الأشواك؟ أبدأ بأقوال زوجة صاحبك، أم منير. جعلتني أغضب منها أول الأمر، ثم أطفأت الغضب لما رويت لي كيف قرأت حظك في قعر فنجان القهوة الذي شربته عندها، فتنبأت لك بحياة زوجية سعيدة ومديدة مع الخطيبة التي أنت متعلق بها والتي تفوق كل فتيات المؤسسة التي تعمل فيها بالجمال والكمال! بلّغها شكري وتحياتي. هذه واحدة من الأشواك التي عرفت أنت، أو عرفت السيدة أم منير، كيف تداوي وخزها المؤلم. الشوكة الثانية التي خيّل إليك أنك وخزت جلدي بها هي ما أخبرتني به من

عرض زميلك أحمد ورفيقه سعيد عليك أن يصطحباك إلى سهرة الراقصات الغجريات اللواتي سميتهن حجيات. داويت وخزة هذه الشوك بقولك إنك رفضت العرض. لا يا عزيزي... هذه شوكة مثلمة لا تؤثر في جلدي. ماذا يضرني إذا سهرت عند تلك الراقصات؟ أتراني قليلة المعرفة بك إلى هذا الحد، حتى أخاف عليك من النوريات؟ رح يا عزيزي إلى تلك السهرة، وأخبرني بما تراه فيها. فأنت تعرفني شديدة الفضول، يعجبني أن أطّلع منك على ما لا تسمح لي الظروف بالاطلاع عليه بنفسي...

غير أن هناك شيئاً آخر لم تتوقع أنه يثير قلقي عليك بين كل ما كتبت لي عنه في رسالتك الطويلة. هذا الشيء هو ما ذكرته عن صاحب مصنع الزيوت، وما يريد أن يجرّك إليه صاحبك صبحي من معاداة هذا الرجل. ما لنا وللمشاكل يا أنور؟ سمعت كثيراً عن أمثال غزلان هذا، وكيف أنهم لا يترددون عن استخدام كل واسطة لبلوغ أغراضهم. أيديهم طويلة ولا شيء يقف أمامهم. فماذا يكسب الإنسان من معاداتهم؟! لا تتهمني بأني أنهاك عن أن تعمل الخير أو أن تفعل بقدر ما تستطيع لمكافحة الشر، ولكننا لسنا مكلفين بإصلاح هذا العالم الذي ينتشر فيه الفساد. صحيح أم لا؟

أعجبني ما قلته لصاحبك من أنك ستأخذ إجازة مستعجلة لتطمئن على أن قلبي لم يتقلب. افعلها يا أنور. هل ضروري أن تثور غيرتك حتى تأخذ إجازة؟ على كل حال، العيد قريب وكلنا في انتظارك في فرصة العيد... وأول المنتظرين والمنتظرات:

سميرة التي تعرفها!

وسهر أنور مع رفيقيه اللذين سماهما لخطيبته في رسالته، ورفيق ثالث من زملائه الموظفين في المركز، عند الحجّيات. كان ذلك بعد

أيام قليلة من تلقيه رد خطيبته على آخر مكاتيبه. لم تكن له في الحقيقة رغبة كبيرة في سهرة الحجيات هذه. ولكنه، بين إلحاح صديقيه عليه وبين ما ذكرته سميرة من رغبتها بالتعرف عن طريقه على ما لا تستطيع رؤيته بنفسها في عالم هي بعيدة عنه، قبل أن يرافق أصحابه في إحدى سيارات المديرية، مساء، إلى مضرب عشيرة النور الذي كان يبعد بضعة كيلومترات من المركز، على مرتفع يقع جنوبي الطريق العام المتجه إلى حلب. كان في الصباح، أو بالأحرى عند انتهاء الدوام في منتصف النهار، قد أخبر الأستاذ صبحي عن دعوة أحمد وسعيد له إلى مرافقته لهما إلى تلك السهرة، كأنه كان يستأذنه في قبولها. قال له أبو منير، بعد أن حرك رأسه وكتفيه بعرته المعهودة:

- ولم لا؟ مرة واحدة ترى فيها هذا المناظر لا تضرّك بشيء. لا أحسبك ستصبح مدمناً لها مثل قليل العقل صاحبك سعيد هذا. ثم، نصيحة لك مني: لا تضع في جيبك أكثر من مائتي ليرة... وخذها فراطة، من أمهات العشر ليرات.

سأله أنور: هل علينا أن ندفع أجر دخول؟

ابتسم أبو منير وأجاب قائلاً: هذه للشوباش. لا تعرف الشوباش؟ حسناً... ستتوقف أمامك إحدى الراقصات من الحجيات متلوية بقامتها وصارخة بصوتها فيما تسميه هي غناء، ولا تتحلحل من مكانها حتى تلقي إليها، أو تدس في عبها، ورقة نقدية أو ورقتين. هذا هو الشوباش. سعيد يضيع نصف راتبه في عملية الشوباش هذه، كلما نزل النور بخيامهم إلى جوارنا في هذا الفصل من كل سنة. أما أنت، فإياك أن يضيع منك أكثر من خمسين ليرة في هذه العملية، وإلا خيبت ظن أم منير بعقلك وبحسن سلوكك.

ضحك أنور قبل أن يقول:

ـ صحيح. نسيت أن أحمّلك شكري لها على ما لقيته من كرمها في تلك الزيارة... أخجلتني يومها بحرارة ترحيبها وبإفراطها في الثناء عليّ. أم تراني يجب أن أشكرك أنت يا معلمي؟ هذا بلا شك نتيجة مديحك لي عندها قبل أن تقع عينها عليّ.

قال الأستاذ صبحي: لا تردّ كل شيء إليّ. أنت نزلت في قلبها منزلة ممتازة منذ ما وقعت عينها عليك. ثم أنت دبلوماسي ماهر. رحت تطري كل ما قدّم إليك في بيتنا المتواضع ابتداء من نكهة العنبر في الشاي الذي سقتك إياه إلى طعم الكعك الذي قالت لك إنه من صنع يديها. ملأت قلبها سروراً حين أخبرتها بأن خطيبتك ستأتي مع شقيقها لزيارتك هنا، وأن أول شيء ستطلبه منها أن تتعلم منها، من أم منير، طريقة صنع ذلك الكعك! صارت هي التي توصيني بك وتطلب مني أن أعتني بك وأن أبعدك عن عيون الحاسدات لخطيبتك.

ابتسم أنور وقال: ماذا أصنع؟ كان لا بد لي أن أقحم اسم سميرة في حديثنا بهذا الشكل كي أظهر تعلقي بها وأوفر على أم منير جهودها في البحث عن عروس لي بين عازبات الاستصلاح. أحسبني نجحت في هذا.

قال أبو منير موافقاً، وهو يبتسم أيضاً: ولد شاطر! وصل بك الأمر أن جعلتها ترى صورة خطيبتك في قعر الفنجان وتجدها أجمل من كل فتيات مديريتنا، حتى من أسمهان سكرتيرة المدير العام! إذهب بحراسة المولى إلى سهرة هذه الليلة. لست أخشى عليك من فتنة هؤلاء النوريات المحروقات السمرة، الموشومات على خدودهن

وأكفهن وسواعدهن، واللواتي تتدلى من آذانهن حلقات تأكل نصف وجوههن...

وهكذا توجه أنور ورفاقه، في نحو العاشرة مساء إلى سهرة النَوَر. توقفت سيارة اللاندروفر في مضربهم أمام بيت شعر متميز في حجمه وامتداده مستطيلاً، عن الخيام المخروطية المنتشرة حوله. وتناهى إلى سمع أنور، بتوقفها، صوت عريض لمزمار تقطّعه نقرات لدربكة مرافقة. لم يملك نفسه من الضحك حين رأى أول أصحابه، وهو سعيد، يقذف نفسه من باب السيارة معجلاً، ثم يرفع ذراعيه ملوحاً بهما في حركات دائرية، مطقطقاً بأصابعه، يرافق بالطقطقة نقرات الدربكة المتعالية من بيت الشعر أمامه. وحين نزل الآخرون بعد سعيد، أمسك أحمد، الرفيق الثاني بيد أنور وسار إلى جانبه مجنباً إياه التعثر بحبال بيت الشعر التي لم تكن ترى بوضوح في الظلام المطبق.

كانت الليلة باردة وإن كان الخريف لا يزال في أوله. ولعل هذا هو ما دفع أصحاب البيت إلى أن يسدلوا سجفاً على مقدمته وستارة على مدخله فلا يبين من الضوء الذي يبدو أنه ينير داخله إلا بصيص ضئيل. هذا إذا لم يكونوا فعلوا ذلك لإبعاد المتطفلين عن سهرتهم. ولما تقدم سعيد فأزاح الستارة عن المدخل الذي كانت مسدلة عليه فوجىء أنور، وكان يقف وراءه، بمنظر غريب لم يكن يتوقعه، وإن لم ير فيه رفاقه شيئاً غير عادي. أحس هو كأن مسرحاً أضيء أمامه فجأة، ورفعت الستارة فيه عن مجموعة الممثلين كاملة، كل منهم في دوره التمثيلي، وأنه هو ورفاقه الثلاثة وسائق اللاندروفر معهم، هم المتفرجون الوحيدون على تلك المسرحية...

تصور غريب... لعل الذي رسمه في خاطر أنور هو انتقاله المفاجىء

من ظلمة الليل التي جاء منها إلى ضوء مبهر كان يملأ بيت الشعر. مصدر الضوء كان مصباحاً غازياً، لوكس، مرفوعاً في جانب من البيت على قضيب معدني طويل، ولهيب نار موقدة في نقرة في وسط البيت، ترتفع ألسنته حتى تكاد تمس مستطيلات نسيج الشعر الأسود التي تكوّن سقفه. في ذلك الضوء الذي كانت تقطعه سحابات دخان تهب بين اللحظة والأخرى من موقد النار، وقف أنور في المدخل يتطلع إلى مجموعة الجالسين على الأرض في جوانب بيت الشعر، يفترشون بسطاً ولبابيد أغلبها رث وممزق، ويتكئون على وسائد صارخة ألوان القماش مطروحة تحت مرافقهم.

كان أولئك الجلوس خليطاً غير متجانس: أربعة أو خمسة من الشبان الذين يرتدون ألبسة حضرية تدل على أنهم بين موظف في إحدى شعب مؤسسة الاستصلاح وسائق على مركباتها، وخمسة أو ستة في زيّ أهل المنطقة يبدو عليهم أنهم تزينوا لهذه السهرة ولبسوا لها أحسن ثيابهم، إلى جانب بضعة رجال بين فتى وكهل، وبين جالس على الأرض وقائم على رؤوس الجالسين، هم بلا شك من أصحاب هذا البيت والخيام المجاورة. ويتميز من هذه المجموعة من الرجال ثلاث فتيات كن يفترشن الأرض في الجانب المبعد عن نقرة النار، يلبسن أثواباً زاهية، مصبوغات الشفاه بالأحمر ومثقلات الأجفان بالكحل الأخضر، يحيط بهن من الجانبين ضارب الدربكة الذي توقف عن قرعها حالما ارتفعت الستارة عن المدخل، والنافخ في المزمار الذي أبعد مزماره عن شفتيه آنذاك، وحامل ربابة أضجعها على ساقيه المتصالبتين أمامه.

طال وقوف أنور ثواني عديدة، ربما أكثر من دقيقة، وهو يجيل

نظراته متفحصاً هذا الخليط من الساهرين. كان رفاقه قد سبقوه إلى الجلوس على البسط الممدودة بين المرحبين بقدومهم والقائمين ليوسعوا لهم في المكان المزدحم، على هتاف البنات الثلاث اللواتي كن يتسابقن إلى نداء سعيد باسمه داعيات إياه إلى الجلوس قربهن. صاح أحمد بملء حنجرته:

ـ أنور بك... ما لك واقفاً كالمسطول؟ تعال اجلس قرب النار إذا كنت تحس بالبرد.

وهنا توجهت أعين الفتيات، وأعين الآخرين، جميعها إلى الفتى الطويل القامة في ثوبه الرياضي المميز، الواقف عند ستارة المدخل. ربما كان لقب البك الذي أطلقه عليه أحمد، في سخرية أو في مكر، هو ما حوّل إليه كل تلك الأعين. وارتفعت أصوات الرجال القصار السمر، الكثي الشوارب، الذين هم أهل الدار، بدعوة هذا البك إلى التفضل بالجلوس أقرب ما يكون إلى الموقد المضطرمة ناره بعد أن جاؤوا بوسادتين من أقصى البيت وضعوا واحدة فوق الأخرى ليتكىء عليها في جلوسه. خطا أنور إلى حيث أشير إليه، وافترش الأرض فوق بساط مهترىء مثل الآخرين، وراح يتقبل كلمات الترحيب وعبارات التحية من المتحلقين حول الموقد، مجيباً عليها بإشارات يديه ورأسه وغمغمات شفتيه، قبل أن تعود جوقة السهرة إلى ملء جو بيت الشعر بأصوات آلاتها البدائية الثلاث.

كان البادىء بالعزف صاحب الربابة. أسند طرف ربابته على فخذه المثنية على ساقها وأخذ يمرر قوسها على وترها الوحيد، جيئة وذهاباً، فيرتفع منها صوت حاد أحس أنور بأنه كان يحز سمعه حزّاً. غير أنه ما مرت لحظات حتى ألفت أذنه ذلك الصوت وهو

يعلو وينخفض فيتلون تلوناً مختلفاً تحت ضغطات إصبع العازف على وتره اليتيم. مضت أربع دقائق أو خمس والعازف يتفنن في اللعب بوتره وحيداً، والحضور يستمعون إليه في سكون وسكوت. وما لبثت واحدة من الفتيات الثلاث أن استدارت في مجلسها معطية ظهرها إلى النار الموقدة، فاستقبلت الربابة وصاحبها بوجهها، وانطلقت تغني بصوت متلائم وأنغام الربابة الحادة. صوت حاد، ولكن ليس في حدته ما يجرح. لم يستطع أنور تفهم الكلام الذي كانت تنطق به الحجية، تلك الفتاة المغنية، إلا أنه أحس بأن انسجاماً، أو تكاملاً، كان يؤلف بين ذلك الكلام وبين نغمات الربابة، فيكون من هذا وذاك غناء لا يخلو من جمال وتطريب.

كان الحضور يصغون إلى الغناء صامتين ومنتبهين، كأنهم يتتبعون دقائق معاني الكلمات المنشدة بلحن موحٍ بالأسى ومشاعر الحنين. أحس أنور بطابع الحزن الذي ينطق به لحن ذلك الغناء وإن لم يفهم كلماته. وفجأة انضاف إلى عزف الربابة وغناء الفتاة صوت المزمار العريض ونقرات الدربكة العالية في أنغام سريعة ومرتفعة بعيدة عن أنغام البداية الشجية. كما انضاف أيضاً صوت الحجيتين الأخريين إلى صوت رفيقتهما الأولى، ملعلعتين بحنجرتيهما مصفقتين بأكفهما، وهما تشيران إلى الحضور بأن يصفقوا معهما. تحول الساهرون إلى جوقة تنشد وتصفق وتهتف. وما لبثت الفتيات أن قمن يتمايلن، تلتمع الحلي في أيديهن وعلى صدورهن، يرقصن على عزف الآلات الثلاث. أخذن يدرن حول الموقد متنقلات من ساهر إلى آخر، تقف واحدتهن أمام واحد من الحضور فتهتف باسمه وتصيح: شوباش! وأمام الساهر الجديد، أنور، الذي حمّله

أحمد لقب «بك» الساحر، وقفت كل منهن لا مرة واحدة بل عدة مرات...

بين اثنتين من تلك المرات، بعدما انصرفت من أمامه زينة، أصغر الحجيات الثلاثة سناً وأحلاهن صوتاً، وجد نفسه يرتحل بخواطره بعيداً من هذا الأمسية. نعم إنه يصفق الآن مجارياً من يصفق قربه، ويهز رأسه مُعْدىً بمن حوله، ولكن ذهنه ذهب إلى مكان بعيد عن هذا المكان الضائع جنوبي الطريق المتجه إلى حلب... ذهب ذهنه إلى حلب نفسها، وإلى أمسية غير هذه في حلب. أمسية في سراي إسماعيل باشا! في تلك الأمسية كانت صحابته أقرب إلى القلب وأجمل في النظر، وسمع فيها ألحاناً ساحرة بكلمات رائعة. كما ملأ صدره فيها من تلك الكلمات بتلك الألحان مشاعر غبطة تمنى أن تكون سميرة معه لتقاسمه تلك الغبطة. أتراه يحب لسميرة أن تكون معه في سهرة اليوم ومع هؤلاء الحضور وأمام هذه الجوقة من عازفين وراقصات؟ مؤكداً، لا!

أدار هذه الخواطر في باله، بينما كانت عيناه تجولان في ما حوله. وما ملك إلا أن يقول لنفسه: نعم، صفقت مع من صفق ورددت مع المرددين لازمات الأغنيات على قلة فهمي لكلماتها، ودسست مثل سعيد بضع ورقات نقدية من ذوات العشر ليرات في زيق ثوب زينة وبين ثوبها وحزامها الفضّي حذاء سرتها... ولكن شعوري في هذه السهرة ليس طرباً، ولا كانت نظراتي إلى هؤلاء الحجيات إعجاباً، ولا حملت إليّ هذه الصحبة كبير سرور. أن تكون سميرة معي في مثل هذه السهرة؟ ماأسخفها من فكرة! حسبها مني أن أملأ ورقة بوصف هذه الليلة في رسالتي المقبلة إليها، وأقول لها: هذا ما تريدين مني أن أقصه عليك... لقد فعلت!

- ٤ -

بعد بضعة أيام من ليلة السهرة تلك، قال الأستاذ صبحي للمهندس أنور عندما مرّ عليه في مكتبه صباحاً، قبل أن يتوجه إلى الرحبة:

ـ اليوم السبت، والعيد، عيد الأضحى، سيكون في مثل هذا اليوم من الأسبوع المقبل. في العادة يهجر موظفونا مكاتبهم منذ الأربعاء بعد الظهر، وكذلك سائقو المركبات وعمال الورشات الذين يتخلون عن آلياتهم رغم الأوامر المشددة الصادرة من المديرية العامة. يفعلون ذلك ليلتحقوا بأهاليهم، لا في منطقة محافظتنا هذه وحدها، وأبناؤها بيننا قليلون، بل في حلب والحسكة ومحردة ودير عطية. أما أنت...

وسكت أبو منير غير متمم جملته، فقال أنور متسائلاً:

ـ أما أنا؟ ماذا عني أنا يا معلمي؟

زمّ الأستاذ صبحي شفتيه كأنه يريد أن يمنع انفراجهما عن الابتسام، وقال:

ـ أما أنت فلن تهرب وتترك المركز مثلهم.

قال أنور، وببعض الحدة: كيف؟ إنها عطلة. لا بد من أن أسافر إلى دمشق، ولو ليوم واحد.

تفلتت الابتسامة مرتسمة على شفتي أبي منير، وغاص رأسه بين كتفيه مائلاً إلى منكبه الأيسر، في عرته المعتادة، قبل أن يرفعه ويقول:

ـ أنت لن تهرب... لأن أمامك مهمة لا بد أن تنجزها قبل حلول العطلة. تنجزها وأنت في طريقك إلى أهلك في عاصمة بلادنا.

قال أنور: لم أفهم عليك يا أبا منير.

قال صاحبه: بسلامة فهمك! منذ صباح بعد غد، صباح يوم الاثنين أعني، عليك أن تسافر إلى حلب. ستأخذ معك المعلم شاهين وأحد معاونيه لتستلم آلية الكريدر الجديد الذي تلقى مكتب المدير العام إشارة بوصوله إلى هناك منذ أول أمس. تجدونه جاهزاً في مستودع المؤسسة في حلب. علمت بتلقي الإشارة قبلك، ولم أعلمك قبل الآن لأنك لم تغادر الرحبة يوم الخميس إلا بعد عدة ساعات من انتهاء الدوام.

قال أنور: فهمت. أستلم الكريدر، وأعود به إلى هنا! معنى هذا أني لن أغادر المركز قبل صباح الجمعة إلى دمشق. وعليّ أيضاً أن أكون هنا على رأس العمل خامس يوم العيد. أمري لله.

اتسعت ابتسامة الأستاذ صبحي وهو يقول: وأنا الذي حسبتك فهيماً. من قال إنك تعود إلى هنا؟ يكفي أن توقع على أوراق الاستلام بعد أن تتحقق مع المعلم شاهين بمطابقة الكريدر للمواصفات الموجودة في عقد الشراء، ثم تنصرف إلى حال سبيلك... إلى أهلك في دمشق، وإلى خطيبتك الغالية! إلا إذا طاب لك المقام في حلب يوماً أو يومين. لا تنسَ عندئذ أن تقدم إلى أخي شكيب تقريرك الكامل عني.

أدرك أنور هنا أن أبا منير هيأ له الأسباب ليبدأ عطلته منذ يوم الاثنين، قبل العيد بأربعة أيام، دون أن يعتبر متخلياً عن العمل بغير مبرر كما يفعل الآخرون. ملأ قلبه الامتنان لصاحبه، فقال له:

ـ أنت تدللني كثيراً يا معلمي. أخشى أن يفتقدني المدير العام ويجدني أطيل الغياب عن الرحبة ومرآب الآليات أكثر مما يلزم.

قال الأستاذ صبحي: المدير العام؟ سيادته سيهرب قبل الجميع، وبدون عذر مقبول. أنت على الأقل ستقوم بعمل مفيد. لا تنس

كذلك أن تصف لشكيب سهرتك عند الحجيات كما وصفتها لي. لن يصدقك حين تقول له إنك لم تجد متعة في تلك السهرة، مثلما صدقتك أنا...

خيل إلى أنور، من لهجة صاحبه في الجملة الأخيرة، أنه يشك في ما حدثه به عن انطباعات تلك السهرة في نفسه، فقال كالمحتج:

ـ كأنك لم تصدقني فيما رويته لك. لا أقول إني نادم على مصاحبتي لسعيد وأحمد إلى مضرب النور. رأيت هناك ناساً وأشياء وتصرفات لم أكن أعرفها أو أعرفهم. أما عن كوني تمتعت...

قال الأستاذ صبحي، وهو يبتسم: ولمَ كل هذه الحدة في الاستنكار يا عزيزي؟ أنا أعرفك. لذلك لست أخاف عليك، على الرغم مما نقله لي رفيقاك، من كونك كنت منسجماً مع رقصات الحجية زينة التي كانت تطيل الوقوف فوق رأسك في كل دورة لها بين ضيوف بيت الشعر.

قهقه أنور في ضحكة قصيرة وقال:

ـ هل قالا ذاك لك عني؟

أجاب الأستاذ صبحي: نعم يا سيدي. وأضافا أنها كانت تهجر الساهرين الذين كانوا يمطرونها بأمهات المائة، وتقف أمامك أنت الذي ما كنت ترد على شوباشها إلا بورقة الخمس ليرات.

مرة أخرى ضحك أنور وهو يقول:

ـ بل عشر ليرات يا معلمي. كنت أعمل بنصيحتك. لم أنفق غير سبعين ليرة من مائتي ليرة اقترحت عليّ أن لا أحمل أكثر منهما. هل أقول لك الصحيح؟ عندما جلست تلك البنت التي اسمها زينة

إلى جانبي، بعد أن أنهت وصلتها من الرقص، أحسست بأن رأسي يكاد يتصدع من رائحة العطر الثقيل الذي كان يفوح منها. ما أحسبها أكثرت عليها من هذه الرائحة الباعثة للدوار إلا لتخفي بها رائحة جسدها الذي ما أظن الماء مسه منذ زمن بعيد. تأكدت من ذلك لما رأيته من سواد تحت أظافرها لم تفلح حمرة الحناء في كفيها في إخفائه عن نظراتي المتفرسة... وذلك حين كانت تضع إحدى كفيها على ركبتي وتعبث بالأخرى بشعر رأسي!

قال الأستاذ صبحي: لا بأس. لا بأس. أعرف أنك محصن ضد أجمل فتيات المدينة، فكيف أخشى عليك من الغجرية زينة ومثيلاتها؟ كان لا بد أن ترى هذا اللون من حياة الناس وحياة بعض موظفي مركزنا في هذه النواحي. بقيت عليك سهرة أخرى أكون أنا دليلك فيها.

قال أنور، وهو يضع كفه من بعيد أمام وجه صاحبه كأنه يوقفه بها عما يعرضه عليه:

ـ إذا كانت من نوع سهرة أولئك النور فإني أرجوك أن تعفيني يا أبا منير. اكتفيت.

ضحك الأستاذ صبحي وهو يقول: لا تخف. بل هي في القطب المقابل لسهرة الحجيات. هل نسيت حديثي لك عن حلقة الذكر لجماعتنا البؤساء... السياد؟

قال أنور: أذكر ذلك الحديث جيداً.

قال أبو منير: إذن هيىء نفسك. جاءني منهم اليوم أن لديهم ضيفاً من أقاربهم في شرق البلاد وأنهم سيقيمون مساء غد حفلة ذكر على شرفه، وأنهم يدعوننا لحضورها... أنت وأنا ومن نحب أن

يرافقنا. كنت طلبت منهم ذلك منذ زمن. لن نأخذ أحداً معنا. مساء الغد تمر عليّ بسيارتك لنقصدهم. منازلهم ليست بعيدة.

قال أنور: مساء الغد؟ أما عليّ أن أسافر إلى حلب صباح الاثنيـن، وبعدها إلى أهلي؟ عليّ أن أتهيأ لسفري مساء الغد.

قال الأستاذ صبحي: تهيأ له منذ اليوم يا عزيزي. أما عن سهرة السياد فلن تندم على حضورها. ستعطيك مادة لكلام تبهر به أهلك في دمشق، والخطيبة الحبيبة في أولهم. إلى مساء الغد إذن.

وفي مساء الغد، وكان الجو فيه أميل إلى البرودة، توجها معاً بالسيارة إلى منازل قرية السياد التي، كما قال عنها الأستاذ صبحي، لم تكن بعيدة عن أبنية المركز رقم ٦. قبل اليوم كان المهندس أنور يرى تلك المنازل عن بعد في تنقلات عمله دون أن تقوده قدماه، أو سيارته، إلى الاقتراب منها. منازل متفرقة، واطئة، جدرانها من لبن نيء وسقوفها المستورة بالطين والأعواد مائلة بشدة نحو الأرض، وتتخلل كتلها المتباعدة بيوت شعر صغيرة وخيام مدورة، كأن سكان هذه الأخيرة لا يملكون ما يبنون لهم به دوراً ثابتة.

حين قربت السيارة من القرية لم يكن يخترق الظلام الملتفة به دورها إلا نقاط ضوء هزيلة ومتباعدة كانت تلتمع أمام راكبيها. إلا أن ضوءاً ساطعاً تراءى لهما عندما توسطت العربة المنازل. كان ذلك الضوء منبعثاً من لسان لهب يعلو ويهبط أمام ساحة إحدى دورها، فاتجها إليها، وترجلا غير بعيد عنها. تبين لهما، حينما أصبحا على الأرض، أن الساحة كانت محاطة بما يشبه الجدار من الحصائر التي يستخدمها ناس هذه المنطقة لعزل أقسام بيوتهم بعضها عن بعض. حصائر عود الزل أو عود البردي. أمسك الأستاذ

صبحي بيد رفيقه وتقدم به مستديراً وراء حاجز الحصائر حتى أفضيا إلى الجانب المقابل للدار التي كانت الساحة مبسوطة أمامها.

في هذا الجانب الذي كان حراً، لا يحيط به الحاجز، وجد أنور نفسه يخرج من ظلمة الليل التي كانت منازل القرية غارقة فيها إلى الضوء الساطع الذي كانت الساحة تسبح فيه. في الوسط كان موقد، هو حفرة في الأرض، تحترق فيه جذوع خشب كبيرة وعيدان حطب ينطلق منها عمود اللهب العريض والمرتفع الذي يضيء الساحة. كانت هناك بضعة مصابيح غازية موزعة في جوانب المكان، إلا أن ضوءها كان شاحباً أمام ضوء لهيب نار الموقد المتلوية ألسنته والمتنقلة بين اصفرار واحمرار. هذه النار العظيمة كانت أول ما انشدّ إليه نظر أنور فاستأثرت بانتباهه. لم يفطن إلا بعد ثوان إلى ما كان يحيط به من ناس ومن أشياء. فطن إلى ذلك حين علت ضجة وارتفعت قامات رجال كثيرين كانوا جلوساً عند أصل حصائر البردي، وهم يتصايحون بالتحيات مرحبين بضيفي السهرة القادمين إليهم هذا المساء.

أدار أنور نظره حوله وهو يتقدم وراء الأستاذ صبحي إلى الزاوية، ماراً بجانب حفرة النار الموقدة. كانت الأرض مفروشة في ثلاثة أضلاع الساحة المربعة بأبسطة وحصر تناثرت عليها بعض الوسائد، ووضع فوقها، أمام غرف الدار، مفارش عالية بعض الشيء، كأنها أعدت للضيوف البارزين. تنحّى بعض الجالسين على تلك المفارش ليخلوها للضيفين القادمين. وبينما كان الأستاذ صبحي يدير رأسه يمنة ويسرة ويرفع كفيه الاثنتين على رأسه، في رده للتحيات التي كانت توجه إليهما، أمال أنور رأسه على أذن صاحبه وقال له بصوت خافت:

ـ شعبيتك كبيرة هنا يا أبا منير. يهتفون باسمك كأنك زعيم حيهم...

قال الأستاذ صبحي، وهو يجر أنور ليجلسه إلى جانبه:

ـ القلوب عند بعضها يا ولدي. يعرفون أني أحبهم فهم يجازونني حباً بحب. تطلع إلى يسارك. الشيخ ذو العمامة الخضراء الذي تراه هناك هو السيد عبد الجبار... الضيف الذي سهرتنا اليوم على شرفه. بعد السهرة نسلّم عليه. أما الآن فجاءت الدفوف.

استدار أنور ببصره إلى حيث كان يشير الأستاذ صبحي بيده. رأى ثلاثة فتيان، كانوا قبل قليل جاثمين حول الموقد يديرون دفوفاً بأيديهم على ناره، رآهم يتقدمون بدفوفهم إلى حيث كان الشيخ ذو العمامة الخضراء جالساً في صدر المكان. سلمه أحدهم الدف الذي كان بيده، وأخذ رجلان آخران، واحد عن يمينه وواحد عن شماله، الدّفين الآخرين. قال أبو منير:

ـ بدأت الحفلة. ربما وجدت أولها مملاً، ولكن آخرها يعجبك. يروون عن هذا السيد حكايات...

وارتفعت من دفّ الشيخ نقرات كانت، على تفرقها، توحي بالحدة والعصبية.

من أنور إلى سميرة

عزيزتي:

أكتب إليك هذه الكلمات بعد منتصف الليل. سأضعها لك في البريد صباحاً، قبل أن أغادر مركزنا الغالي إلى حلب في طريقي إليكم. أكبر الظن أني أصل إلى دمشق قبل أن تصل رسالتي إليها.

إذن لماذا أعنّي نفسي بكتابتها اليوم وبوضعها في البريد غداً؟ ذلك لأني وعدتك بها... إذا كنت تذكرين. وعدتك بها إذا وفى أبو منير بوعده لي. وفى هو لي، وواجبي أن أفي أنا لك.

ستقولين متأففة: ما أكثر ألغازك! أي وعد تذكّرني به، وما دخل أبي منير بيننا؟ حلمك عليّ. وعدني أبو منير، الأستاذ صبحي، بسهرة تقف في القطب المقابل لسهرة الحجيات التي كنت حدثتك عنها، ووفى بوعده. أنا الآن عائد من تلك السهرة، ولا أطيق الصبر على حمل صور ما رأيته بعيني إلى أن أصل إليك. لا بد أن أنقل ذكريات تلك الصور، والخواطر والمشاعر التي أثارتها، إلى أحد من الناس وهي لا تزال على احتدامها في فكري ونفسي. ومن غيرك أجدر بأن يقبلها ويتفهمها؟ لهذا ترينني أفرغها لك على الورق في هذه الساعة المتأخرة من الليل.

تصوري معي ما أصفه لك: ساحة مستطيلة أمام دار تحدها من الجنوب. يحجبها من الشرق والغرب عن الأعين حاجزان من حصائر مصنوعة من أعواد البردي الذي يسمونه هنا نبات الزل، كما يطلقون على الحصائر اسم زروب وواحدتها الزرب. أما من الشمال فالساحة مفتوحة للقادمين إليها. والقادمون أناس كثيرون وجدنا أغلبهم سبقنا إليها في أول المساء واحتلوا الأبسطة الممدودة أمام الدار وعلى الجانبين تحت حصائر البردي. في وسط الساحة نار عظيمة كلما همد لهيبها ألقى بعض الحاضرين في موقدها أعواد الغرب والطرفاء ـ تعلمي أسماء نباتات هذه المنطقة من المهندس الزراعي الذي هو خطيبك ـ أقول ألقوا أعواد الغرب والطرفاء فارتفعت ألسنة اللهيب إلى عنان السماء مشعة حرارة تدفيء الساحة على اتساعها وانكشاف سمائها. وفي صدرها، صدر

الساحة، أمام غرف الدار وهي ثلاث غرف على نسق واحد نجلس أنا وأبو منير في المكان الممتاز، إلى جانب المشايخ. المشايخ هم مشايخ عشيرة السياد، وفي الوسط بينهم ضيفهم ذو الصيت الذائع السيد عبد الجبار.

هل تخيلت ما رسمته لك بكلماتي؟ حسناً. أمام السيد عبد الجبار الذي ما كنا نرى منه في جلستنا إلا عمامة خضراء فوق هامة مرتفعة وضخمة كان يجلس عدد من الرجال أغلبهم فتيان وقليل منهم كهول، يقابلونه بأوجههم ويقتعدون الأرض على الحصائر في مستوى أوطأ منه. ذلك أن مجلس السيد الكبير كان على فراش مزدوج وثخين يعليه عن مجالس الآخرين، حتى عن مجالسنا التي كانت على فرش مفردة. عرفت من الأستاذ صبحي أن هؤلاء الجلوس مقابلين الشيخ عبد الجبار هم المريدون. هل مرت عليك هذه الكلمة في القاموس العربي الفرنسي الذي تستخدمينه في ترجمة قصائد شعراء الرومانتيكية؟ دعيني أفسرها لك. المريد هو تلميذ الشيخ، وهو يأتمر بأمره وينفّذه، ولو كان الأمر أن يلقي نفسه في النار. بين السيد عبد الجبار ومريديه كانت حزمة من الأسلحة مطروحة على الأرض. نعم، أسلحة يا عزيزتي. ليست بنادق ولا صواريخ بل سلاح أبيض... سيوف وخناجر وقضبان من الحديد طويلة ومحددة الأطراف قال لي دليلي إن واحدها هو الشيش، وهو الذي يعنونه حين يقولون «ضرب الشيش». تفسير هذه الكلمة الأخيرة يأتيك بعد قليل.

نسيت أن أصف لك الدفوف. هذه تعرفينها ولا شك. إلا أن الدفوف التي رأيتها في أيدي المشايخ ليست الطارات الجلدية الصغيرة من التي ترينها في أيدي ضاربي الدفوف في التخت

الشرقي في سهرات التلفزيون. الدفوف هنا جلدية حقاً، ولكنها كبيرة القطر كأكبر صينية نحاسية من التي تصنع فيها أمهاتنا، أمي وامرأة عمي والدتك المحترمة، الكبة بالصينية. هذه الدفوف هي التي، بالنقر والقرع عليها، تثير المريدين وتدخلهم في «الحال» وتدفعهم إلى فعل ما رأيتهم يفعلونه أمام أعيننا جميعاً قبل ساعة من الزمن.

ماذا فعل المريدون؟ بدأ الأمر بأن أخذ السيد عبد الجبار، على قرع الدف الذي بين يديه والدّفين اللذين كان يحملهما اثنان من السياد على جانبيه، أخذ ينشد أناشيد دينية عسر عليّ في أول الأمر فهم كلماتها، ثم ما لبثت أن أدركت أنها ابتهالات واستغاثات بالله وبالأنبياء، وبمشايخ وأولياء عرفت أسماء بعضهم وجهلت أكثرهم. كان الشيخ ينشد مقاطع متباينة بينما يردد المريدون والجلاس الآخرون على يميننا ويسارنا اللازمة التي لا تتغير. الأناشيد، وهي الأذكار الدينية، كانت هادئة شجية بل محزنة في البداية، كما كان صوت السيد عبد الجبار فيها رقيقاً مصبوغاً بالحنين. إلا أن هذا الصوت ما لبث أن احتد واشتد، وما لبثت ألحان الذكر أن أخذت بالعلوّ والاستعجال، كما تحولت النقرات على الدفوف إلى قرع متسارع تسارعت معه رؤوس المريدين في تمايلها واهتزازها مع نغمات القصائد المنشدة. أقول لك الصحيح إذا قلت إننا، أنا والأستاذ صبحي، عُدينا بالعصبية التي استولت على الحاضرين حولنا وهم يرددون لفظ الجلالة التي كان المريدون يهزون أجسامهم على نغماته صائحين: الله... الله!

نعم عُدينا يا عزيزتي. اكتشفت أني رحت أضرب بكفي على ركبتي بحركات متساوقة مع قرعات الدفوف وإنشاد المريدين،

بينما كان أبو منير يقذف بسبحة وضعها في يده جاره الجالس إلى جانبه، يقذفها من كف إلى كف بالتردد نفسه الذي كنت أقرع فيه ركبتي. وفجأة انتصب من وسط حلقة المريدين شاب طويل القامة راح يصيح: مدد... مدد... يا أسياد! وتقدم نحو حزمة الأسلحة التي وصفتها لك. كان جسده مثل أجساد الكثيرين حوله ينحني ويستقيم، ويتمايل يميناً ويساراً، على قرع الدفوف الذي كان يتعالى ويتسارع حتى لم نعد نستطيع ملاحقته بحركات أكفنا، أنا والأستاذ صبحي. ورأيت ذلك الفتى ينحني على الحزمة ويتناول منها قضيباً حديدياً طويلاً فيهزه أمام أعيننا. ثم رأيته يكشف ثوبه عن مقدم بطنه. وبضربة واحدة... هل تصدّقين؟! بضربة واحدة رأيته يغرس القضيب من رأسه المحدد في وسط بطنه. لست وحدي الذي رأى. جميعنا رأينا ذلك القضيب المعدني المستقيم ينفذ من بطن الفتى المسكين ويبرز من ظهره.

هذا ما حدث. رأيته بعيني ورأيت، وهذا الأغرب، أن الشاب ظل في وقفته والشيش، أعني ذلك القضيب، مخترق بطنه. عاد إلى تمايله والشيش في مغرسه من وسط جسده يتمايل معه. أصوات الدفوف تعالت أكثر وأكثر وتحولت كلمات المنشدين في أذكارهم إلى مثل الحشرجات في حلوقهم. كدت لا أصدّق عيني. وثبت من جلستي لأتثبت مما أراه، فجرّني أبو منير ليعيدني إلى القعود. تطلعت إليه فرأيت شفتيه متشنجتين في شبه ابتسامة بينما كانت كتفه تتحرك بعزّته المعهودة. قال لي بصوت خافت:

- إجلس. لا تخف. هذا واحد من أفعالهم.

عدت بجسدي إلى مكاني بينما ظلّ نظري مثبتاً على الفتى. رأيت السيد ذا الهامة الضخمة والعمامة الخضراء يلقي دفه من يده

وينهض بقامته الطويلة والمليئة نحو مريده. في هذه اللحظة سكتت الدفوف وانقطعت أصوات المنشدين، فلم يعد يسمع غير همهمات الحضور الذين كانت أعينهم مثلي معلقة بالفتى وشيخه. مد السيد يده إلى مقبض الشيش أمام بطن الشاب وجذبه من مغرسه بحركة خاطفة. ورأيت الفتى يسقط أرضاً، جاراً معه اثنين من رفاقه كانا يمسكان كتفيه، وهو يصرخ بكلمة واحدة: الله! قلت، محدثاً نفسي:

ـ المسكين. لن يحيا من هذه الطعنة...

ومع أني لم أرفع صوتي بهذه الكلمات، فقد سمعت الأستاذ صبحي يقول لي، وكأنه كان يقرأ أفكاري:

ـ لا تخف، وانتظر لترى.

ما رأيته بعد ذلك كان غريباً أيضاً. رأيت المريد الطعين، بعد أن عاد السيد عبد الجبار إلى موضعه، ينهض من سقطته ويسير أمام الجالسين على مفارشهم في جوانب الساحة، رافعاً ثوبه عن موضع طعنة الشيش في بطنه، إلى أن وصل إلى الناحية التي كنا جلوساً فيها. تلبّث أمامنا لحظة غير طويلة قبل أن يعود إلى مكانه على البساط في مجمع المريدين. في تلك اللحظة وقعت عيني من جلد بطنه على أثر بقعة صغيرة محمرة، على يمين سرته وأعلى من سرته قليلاً. بقعة كأنها أثر جرح مدمّى ولكنه غير نازف. وجه الفتى وهو يمر أمامنا كان شاحباً وجبينه كان يتفصد عرقاً، إلا أن الابتسامة كانت تعلو شفتيه وهو ساكت، بينما كانت الأيدي تمتد إليه ماسحة ما تصل إليه من جلده أو من ثيابه، مواسية له أو متبركة به...

عزيزتي، الساعة تجاوزت الآن الواحدة والنصف بعد منتصف

الليل. أتعبتك ولا شك بالقراءة، وعليّ أن أنهض باكراً لأبدأ سفري غداً. لا زالت لحكاية سهرة هذا المساء تتمة. ما دمت سأصل إليكم قبل وصول الرسالة فسأروي لك التتمة مشافهة. تصبحين على خير... أم لعلي أقولها لنفسي: فلأصبح على خير! أخشى أن تؤرقني الصور التي مرت على بصري الليلة حتى مطلع الفجر. إلى اللقاء وكل حبي...

أنور

(بقية الحكاية)

في الصباح، باكراً...

لن أضع هذه الرسالة في البريد اليوم. غيرت رأيي وقررت أن أكمل كتابتها الآن.

الواقع أني لم أنم، بعد أن ودعتك بعد منتصف الليل على الورق، إلا ساعات قليلة. استفقت باكراً وقرأت ما كتبته. وجدت أن عليّ أن أتم لك الحكاية وأن أحمل الرسالة بيدي إليك لنقرأها معاً. البريد، حتى في الأيام العادية، يمشي إلى غايته مشي السلحفاة. فكيف والأيام أيام عيد، وكل شيء في العيد لا ضابط له ولا رقيب؟ ربما انقضت أيام عطلتي عندكم قبل أن تصل الرسالة إلى دمشق. لذا ترينني، وقبل أن أذهب إلى المرآب لأتفقد الأمور قبل سفري، أجلس لأكتب هذه السطور.

أعود إلى ليلة البارحة. لن أطيل في رواية ما جرى، بعد ما قصصته في الصفحات الفائتة. الشيخ الكبير، السيد عبد الجبار، عاد إلى مجلسه فوق فراشه العالي بينما كان المريد يتم جولته على الحضور في جوانب الساحة. مددت عنقي لأتطلع إليه، إلى السيد عبد الجبار، فرأيته كذلك يتفصد جبينه عرقاً ويعلو وجهه الشحوب. قام

مرة أخرى بكل جثمانه الضخم ووقف فوق الفراش، وراح يخلع عنه ثيابه. نزع عن رأسه عمامته الخضراء، وعن جسده جبة طويلة كان يلبسها وثوباً تحت الجبة، فلم يبق عليه غير قميص يصل إلى قدميه. كانت عيناي وأعين الحضور كلهم معلقة بيدي السيد تلاحق حركاتهما في انتظار إلى ماذا تنتهي. انحنى فرفع ذيل قميصه إلى أعلى حتى بان صدره العاري فوق مشد سرواله الأبيض الطويل. رأيته تطلع إلى أعلى، في اتجاه سطح الدار التي كانت وراءنا، وما لبث أن أرخى يده وأسبغ قميصه على جسمه. قال أبو منير، وبصوته الخافت مرة أخرى:

ـ استحى الشيخ. رأى النساء المتكومات على الأسطحة ينظرن إليه.

وحقاً كانت هناك أشباح نساء تتزاحم على ظهر الدار. لم أفطن إلى وجودهن إلا عندما نطق الأستاذ صبحي بكلماته. عدت بنظري إلى السيد عبد الجبار فرأيته يتناول من بين حزمة الأسلحة شيئاً آخر، قضيباً من المعدن طويلاً، ويهزه ثم يحاول ثنيه بين كفيه فلا ينثني. تقدم والقضيب بيده نحو الموقد الذي كان الجمر فيه مضطرماً واللهب يتصاعد متلوياً فينير بضوئه وجوه الحضور. في موقفه عند حافة الموقد استدار إلينا نحن الذين كنا في صدر الساحة، ثم وجّه القضيب بصورة أفقية إلى خاصرته اليمنى، تحت أضلاعه وفوق وركه، وغرسه في تلك الخاصرة. غرسه بضربة قوية وأخذ بعد ذلك يدفعه بهدوء، وهو مغمض عينيه، باتجاه خاصرته اليسرى. خيّم الصمت على الساحة في تلك اللحظات، فما كان يسمع في السكون المطبق غير فرقعة الأحطاب التي تحترق في موقد النار وأصوات شهقات لبعض الحاضرين بين خائفين ومندهشين. شيئاً وشيئاً كان الشيش، وقد قدّرْتُ ثخنه بثخنِ الإبهام أو هو

أثخن، كان يندفع في جوف الرجل، إلى أن برز رأسه المدبب من جلد الخاصرة اليسرى. ومع ذلك لم تكف اليد اليمنى للسيد من دفعه، متوسطاً البطن والأحشاء، حتى أصبح القسم الظاهر منه فوق القميص اللاصق بالجسد دونه، نحواً من شبرين في اليسار بينما ظل بارزاً منه في اليمين أكثر من شبرين آخرين...

شيء لا يصدّق يا سميرة، ولكني رأيته بعيني. لم يغير السيد عبد الجبار من وقفته أمامنا، ولا فتح عينيه المغمضتين، وهو يدفع هذا الشيش الغليظ، الصلب، الجارح والقاطع، في جوف بطنه. ألم تكن أمامه معدة وأمعاء، وكبد وطحال؟! ألم يكن في هذا الجسد أعصاب تتألم وأوردة وشرايين تتقطع فتنزف دماً وتميت؟!

في تلك اللحظات لم ترد هذه التساؤلات، التي ألقيها على نفسي الآن، على خاطري. كنت مشدود البصر إلى السيد عبد الجبار ومركّزاً انتباهي عليه. ماذا تظنينه فعل بعد هذا؟ رأته أعين الحضور يقبض على طرفي الشيش البارزين من خاصرتيه ويجهد في ثنيهما إلى الأمام. قلت لك إني رأيته يحاول ثني القضيب أول ما حمله فلم ينثن. أما الآن فقد لاح لأنظارنا جميعاً أن قبضتيه استطاعتا أن تليّنا الحديد، إذ أخذ طرفا الشيش الظاهران في جانبي خاصرتيه ينحنيان شيئاً فشيئاً إلى الأمام حتى تماس رأساهما أمام سرة السيد عبد الجبار. أصبح القضيب المستقيم حلقة مدورة، نصفها مدفون في أحشاء الرجل ونصفها خارج بطنه. في تلك اللحظة فتح السيد عينيه بعد طول إغماض وراح يتمتم بصوت خافت كلمات لم تلتقطهما أذناي، ولا أظن أحداً من الحاضرين تفهّم معناها...

ماذا جرى بعد ذلك؟ جرى ما يكاد لا يوصف. مشى الشيخ بخطى وئيدة إلى مكانه فوق الفراش العالي، والحلقة المعدنية نابتة

في جسده مطوقة لخصره. وفجأة ارتفعت صيحات المريدين وتراكضوا إلى كومة الأسلحة ليتناول كل منهم قطعة منها بيده. الخناجر، وسيف أو سيفان، وعدد من الأسياخ الحديدية، تناهبتها أكفهم وراحت تنغرس في الخواصر والأعناق وتنبت في الوجنات. ارتفع قرع الدفوف من جديد وانطلقت الزغاريد من النساء من فوق الأسطحة. ورأيت بعيني صبية صغاراً كانوا مع المريدين، ولم يتح لهم من الأشياش مايضربون به أنفسهم، يخوضون موقد النار ماشين فوق الجمر جيئة وذهاباً... لا أقدامهم تحترق ولا ثيابهم تشتعل!

عما شعرت به وما فكرت فيه، وما حيرني وأقلقني، بل وما أفزعني، في ما شاهدت وسمعت ليلة أمس، لا تكفِي صفحات كثيرة لشرحه. أتوقف هنا عن الكتابة إذ وعدتك بأن لا أطيل، وأراني أطلت. لذا فإني أطوي الصفحات لأنشرها أمامك حين نلتقي فنقرأها معاً. لا تزال للكلام بقية ليس الآن وقتها. وإلى أن يحين الوقت صدّقي ما رويته لك أو لا تصدقي. وأنا واثق في أنك ستصدقين ما يقوله خادمك المطيع الذي لا يكذب عليك، لأنه... يحبك!

أنور

ـ ٥ ـ

هتف الأستاذ شكيب بالمهندس أنور حين رآه مقبلاً عليه:

ـ وأخيراً عدت إلينا. أهلاً وسهلاً. أبدأك بالسؤال: ما وراءك يا أنور؟

قال ذلك وتأبط ذراعه وهما يصعدان درج النادي. كان هذا مساء يوم الاثنين. ففي ضحى ذلك اليوم غادر أنور ومعاونوه المركز رقم

٦ إلى حلب فبلغوها قريباً من الظهر. وفي أول المساء اتصل المهندس بمكتب المحامي بالهاتف، فدعاه هذا إلى العشاء على أن يكون لقاؤهما في تمام الثامنة والنصف أمام باب النادي. قال أنور مجيباً على السؤال الذي طرح عليه:

- ورائي الكثير. أخشى أن أملأ سهرتك كلاماً يا شكيب بك.

قال المحامي: هذا يسرّني. لعلها أخبار مفرحة، تلك التي حمّلك إياها صبحي.

قال أنور: حمّلني تحياته لك وتقريراً متعدد الفقرات عليّ أن أسردها أمامك واحدة بعد واحدة. ولكنني أريد أن أبدأ بما شغل بالي شخصياً، بينما رأيته هو قليل الاهتمام به.

قال الأستاذ شكيب: هات لنرى. ما هذا الذي يشغل بالك شخصياً؟

قال المهندس: إنها سهرة غريبة حضرتها معه، وبدعوة منه، أمس البارحة. هل حضرت أنت حفلة ضرب الشيش قبل اليوم يا شكيب بك؟

قال مخاطبه: ماذا؟ أسمعني الله عنك وعن أخينا صبحي الأخبار الطيبة. لعلّه جرّك إلى حفلات النقشبندية أو الرفاعية التي كان يتردد عليها في صباه!

قال أنور: النقشبندية والرفاعية؟ ليس هذا ما حضرناه. ليلة البارحة حضرنا حفلة أذكار في قرية السياد. الناس البسطاء الذين كنت حدثتك عن أرضهم التي شريت منهم بأبخس الأثمان عن طريق الاستغفال والكيد. ما رأيته البارحة عندهم شيء عجيب. أريد أن أخبرك بما رأيت بعيني وأن أسمع رأيك فيه.

قال الأستاذ شكيب: أنت إنسان سريع الاستثارة يا عزيزي. كأن هذا الذي شهدته البارحة أنساك كل ما قبله. تفضل وقص عليّ مشاهدتك لأعطيك رأيي فيها.

قال المحامي هذا وأسند جذعه إلى ظهر المقعد وراء الطاولة التي جلسا إليها في بهو النادي، بينما انطلق أنور بالحديث عن تفاصيل سهرته أمس، كأنه يعيد على مسمع صاحبه ما كتبه في ليلته الماضية وصبيحتها إلى خطيبته.

في هذه الأثناء كان النادل قد جاء للأستاذ شكيب بالأركيلة التي أوصاه عليها. وحين وصف أنور في حديثه عودة الشيخ الكبير، السيد عبد الجبار، إلى مقعده في صدر الساحة وذلك السيخ الحديدي لا يزال مخترقاً جوف بطنه بين خاصرتيه وملتوياً كالحلقة المغلقة أمام سرته، سحب المحامي نفساً عميقاً من نربيش الأركيلة وقال، كالراغب في التأكد ممايسمع:

ـ وشهدتما، أنت وصبحي كل هذا؟

أجاب أنور: شهدناه بأعيننا. عندما تركنا المكان، وقد تركناه بناء على إلحاحي على الأستاذ صبحي بالمغادرة، كان الصبيان لا يزالون يركضون حفاةً على الجمر وهم يخطون في حفرة النار ذهاباً وإياباً. الصحيح أن أعصابي لم تعد تحتمل البقاء ومتابعة رؤية ما كان يجري. لا أستحي من القول إني خفت. لا ليس هو الخوف. كان نوعاً من الرهبة شعرت معه بتشنج في المعدة كاد يدفعني إلى التقيؤ. أما أبو منير...

وسكت أنور لحظة فقال المحامي مستحثاً له على متابعة الكلام:

ـ أبو منير، صبحي، ماذا كان تعليقه على ما رأيتما، وعلى تأثرك بما رأيتما؟

قال أنور: الواقع أني لم أفهم عليه تماماً. هل كان يختبر متانة أعصابي، أو أنه أحب أن يضحك من اندهاشي وفزعي؟ في عودتنا إلى أبنية سكنتنا سألته، ونحن في السيارة، عن أسرار هذا الذي شاهدناه، فتضاحك وقال: «ليس هناك أسرار يا ولدي... هي وقائع أخذتك لتراها بعينك. ستثير استغراب من ترويها له من أصحابك حين تعود إلى أهلك. ألا يكفيك هذا؟». كان الليل في آخره والوقت أضيق من أن يسمح لي بأن ألح عليه. لم يجب على سؤالي بأكثر من كلماته القليلة هذه. وأنا الآن أسألك أنت يا بك.

قال المحامي: تسألني عن ماذا؟

قال أنور: كيف حدث أن آلات قاطعة تخترق الأحشاء فلا تمزقها وتقتل أصحابها، بل إنها لا تسيل منهم نقطة دم؟! وذلك السيد عبد الجبار الذي يجول في الساحة والشيش الذي ثخنه إصبع أو إصبعان مغروس في معدته وكبده، أما هو إنسان من لحم ودم؟! هل هم أنبياء أو أولياء هؤلاء الناس؟

انحنى الأستاذ شكيب على أركيلته يسوّي الجمرات على رأسها، وأجاب على استفهام محدثه قائلاً:

ـ أنبياء؟ يقيناً لا. أولياء؟ قد يكونون.

قال أنور: إذن أنت مع الذين يقولون بولايتهم ويعتبرون ما فعلوه كرامات.

قال المحامي: لست مع أحد. لم أشهد ما شهدته أنت لأعطيك رأياً قاطعاً.

قال أنور: قبل هذه الليلة كنا، أنا والأستاذ صبحي، نتحدث عن الغبن الذي وقع فيه هؤلاء الناس في بيعهم أرضهم فاتفقنا على كونهم أغبياء قبل كل شيء.

قال الأستاذ شكيب: هذا يرجح الرأي في أنهم أولياء. الغباء أول درجات الولاية يا عزيزي.

قال أنور: أنت تمزح يا شكيب بك. الناس يردون كراماتهم لا إلى غبائهم، بل إلى نسبهم الشريف الذي أصبحوا بموجبه سادة، سيّاداً، ثم إلى تقواهم وتدينهم المرتبطين بهذا النسب.

قال المحامي: اسمح لي. أنا لم أحضر شخصياً مثل سهرتكما، ولكني سمعت عن أمثالها الكثير. حوادث أُنكر صحتها على من يروونها، لأنها لا تنطبق على منطقنا المبني على العلوم التي تعلمناها. إلا إني اطلعت على آراء علماء فطاحل يقولون إن ما وصلنا إليه من معرفة قاصر عن الإحاطة بكل ما يجري في الحياة، وإن في الحياة مجهولات كثيرة لم نصل بعد إلى إدراك مكنوناتها. ما دمت أنت شاهدت ما شاهدت، وترويه لي، فإني لا أستطيع أن أكذّبك. لعلّ ما جرى وروايته داخل في جملة تلك المجهولات التي لم نتوصل بعد إلى معرفتها.

قال أنور: وعن الدين والنسب الشريف؟

قال المحامي: يجوز أن يكون لما تقوله علاقة بما رأيته، ويجوز أن لا يكون. ألم تسمع بالغرائب التي يصنعها فقراء الهنود؟ إنها تفوق ما شهدته أنت وشهده صبحي معك البارحة. ومع ذلك فإن صانعي تلك الغرائب لا يرجعون بنسبهم إلى فاطمة الزهراء، كما إنهم لا يدينون مثلي ومثلك ومثل ذلك الشيخ بالإسلام. لي في هذا رأي قد توافقني عليه وقد لا...

قال أنور: أي رأي هذا؟

قال الأستاذ شكيب: إنه الإيمان يا صاحبي. الإيمان لا يعني في كل الأحوال التقوى والتدين. قد يؤمن الإنسان بحجر فيحصل من إيمانه به على قوة خارقة. لو آمن أحدكم بحجر لشفاه! هؤلاء آمنوا بقدرة ما أضفاه مشايخهم عليهم من بركة ومن حماية فأقدموا على ما أقدموا عليه دون تردد. بل إن أجسادهم نفسها اكتسبت من إيمانهم خصائص جعلتها تتجاوز قوانين الطبيعة ومسلمات العلم الذي نعرفه نحن. إنه مجرد رأي لي...

قال أنور: الصحيح يا شكيب بك أن ما تقوله، ولا تؤاخذني، لا يقنعني. لقد رأيت بعيني... ثم إن الذي يحيرني هو ما استوضحت عنه من الأستاذ صبحي فردّ عليّ، على غير عادته، بكلام غامض.

سأله المحامي: استوضحته عن ماذا؟

قال أنور: كنت سألته قبل هذه السهرة، حين حدثني مرة عما ينسبه الناس في تلك النواحي من كرامات إلى عشيرة السياد، عن تلك الكرامات ولم لا يسخرها أصحابها لرفع الظلم عنهم بأنفسهم بدلاً من أن يلجأوا إلينا شاكين باكين؟ قال لي أبو منير يومها: إسألهم بنفسك! أترى هذا جواباً مقنعاً؟

ابتسم الأستاذ شكيب ابتسامة عريضة وقال:

ـ ذهب بثلثي العلم من قال لا أعلم. هذا يؤيد ما قلته من أن الأمر يرجع إلى الإيمان. وإلى إيمان محصور في دائرة ضيقة. مشايخهم حصنوهم ضد ضربة الشيش ولم يحصنوهم ضد الطغاة ولا ضدّ الماكرين أو النصابين. ثم إني أراك تكدّ ذهنك بأكثر ما تستحق هذه الأمور من اهتمام. نستطيع أن نتناقش حولها حتى الصباح

دون أن نصل إلى نتيجة حاسمة. ألا تنتقل بنا إلى الفقرة الثانية من التقرير الذي تحمله لي؟

لم يملك أنور نفسه عن أن يبتسم بدوره وهو يقول في سره إنه يثقل على جليسه في مطالبته إياه بحل غوامض قد لا تكون من اختصاصه ولا تدخل في اهتماماته. وتذكر أن صاحبه هذا كان حدثه عن الحجيات وحفلاتهن في أول تعارفهما، فرأى من المناسب أن يروي له حكاية سهرته في مضرب النور قبل أيام، بعجر تلك السهرة وبجرها. قال له إن هذه واحدة من فقرات التقرير الذي زوّده به أبو منير ليطلعه، هو الأستاذ شكيب، عليه. لم يملك هذا نفسه من الضحك من ملاحظات أنور على فنانات مضرب الغجر وفنانيه، وعلى الساهرين في ذلك المضرب، ومن توصية الأستاذ صبحي له حول ما عليه أن يحمله من أوراق نقدية استعداداً للحفلة الفنية فيه. إلا أنه لم يتوقف كثيراً على ما رواه أنور، وانتقل به رأساً إلى موضوع آخر يبدو أنه أكثر اهتماماً به. قال له:

ـ ما هي أخبار دار الحاج نعمان؟ هل اتصلت بالسيدة الفاضلة زوجة الحاج؟

أجاب أنور: حتى الآن لم أتصل بأسرة صديق والدي، ولا أظنني سأفعل في هذه المرة. حجزت مكاني في بولمان الكرنك إلى دمشق لصباح الغد. ولو أني اتصلت بالسيدة شاهناز لكان كلامي معها كله اعتذاراً عن دعواتها، التي أعرف كم ستكون ملحة، إلى الغداء أو العشاء.

قال المحامي: هذا يصدّق ماقاله عنك الأستاذ صبحي. ألم تخبرني بأنه يردد عليك دوماً قوله: يعطي الإجاص لمن ما له أضراس؟

قال أنور: أي إجاص وأي أضراس يا شكيب بك؟ الواقع أني وجدت نفسي محرجاً من إكرام أسرة الحاج نعمان لي دون أن يتاح لي مقابلة هذا الإكرام بشيء مني. هل حدثتك عن الحفلة الموسيقية التي رافقت بها السيدة وابنتها وخطيب الفتاة إلى سراي إسماعيل باشا؟ كانت في الواقع حفلة رائعة.

قال الأستاذ شكيب: لم تخبرني. أراك تجمع المجد من أطرافه: حفلة ذكر مع المشايخ وموسيقى في السرايات التركية وموسيقى في مضارب النور! سمعت مراراً عن الحفلات في هذه السراي التي يوصل إليها من الطريق حول القلعة، ولكني لم أحضر واحدة منها. أنت محظوظ يا عزيزي.

هل هو محظوظ حقاً؟ لم يعلق أنور على وصف المحامي له بهذه الصفة بكلمة، إلا أن ذكريات حفلة سراي إسماعيل باشا عادت إلى خاطره فراح يتملاّها في نفسه، مغتنماً انشغال مضيفه بتسوية الجمرات على رأس أركيلته وسحب الأنفاس المتتالية منها ليحسن اشتعالها. تمنى لو أن معاملة استلام الكريدر اضطرته إلى التخلف في حلب ليلة أخرى، على شوقه إلى دمشق ومن فيها، إذن لكان اتصل بدار الحاج نعمان دون شك. ولماذا يتصل؟ ستكون حجته السؤال عن ربيع، ابن الحاج الذي يتلهف على لقائه كما تقول أمه، ثم يتهرب من هذا اللقاء. أو تكون الحجة شكر ربة الدار على الغبطة التي حملتها له سهرة السراي، ثم الاستفهام عما إذا كان له أن يصطحب خطيبته وأخاها إلى إحدى السهرات المقبلة في السراي. ستكون تلك حججاً، أما الصحيح فإن الدافع للاتصال هو الأمنية في أن يعيش جو تلك الليلة بعد عيشه الليالي العقيمة جو الجدب والجفاء في مركز الاستصلاح، في العجاج المطبق على

الصدور والمالىء للأنوف والآذان، وبين ضجيج آليات المرآب ورائحة زيوتها، وأمام سماجة سحنة أمير غزلان وكآبة وجوه أفراد عشيرة السياد التي لم تفلح سهرة قريتهم عن أن تمحي صورتها عن ذاكرته...

وكأنّ المحامي كان يقرأ أفكار صاحبه وهي تتتابع في خاطره. كان قد استقام في كرسيه بعد أن اطمأن إلى حسن سير أركيلته، وبعد أن انتهى من تعداد طلباته من ألوان الطعام على النادل، عندما بلغ أنور في تذكره إلى السياد وشكواهم من أمير غزلان. في تلك اللحظة قال الأستاذ شكيب متسائلاً:

ـ علىَ فكرة... لم أسألك عن تلك القضية. قضية الخلاف الذي شغل بالكما، أنت وصبحي. خلاف حدثتني عنه بين الفلاحين، هؤلاء الذين سهرت عندهم أمس، وبين أحد طوال الأيدي. ماذا كان اسمه ذلك الرجل؟

قال أنور: تعني أمير غزلان. إنسان منفر، ليس في مخادعته لأولئك السذّج وسوء معاملته إياهم فقط، بل في مظهره الجسماني وأسلوب كلامه البعيد عن التهذيب واللباقة. كل الحق مع الأستاذ صبحي في نفوره منه وسعيه إلى إلزامه حده.

قال المحامي: يبدو أن الأمر أصبح بين هذا الرجل وبينكما، أنت والأستاذ صبحي، عداء شخصياً. ولماذا كل هذا التحمس في مخاصمة إنسان يبحث عن الربح من أي طريق جاء، ويحصل عليه؟ عرّفتك تلك المرة بأن عالمنا مليء بهذا الصنف من الناس وبالكثير من هذه القضايا. أخاف عليك من أن تُجرّ وراء صبحي وعقليته الفريدة في النظر إلى أمور هذه الحياة فتوجع رأسك. نحن

لسنا مكلفين بإصلاح هذا العالم الفاسد، ولا قادرين على هذا الإصلاح.

أعادت هذه الجملة الأخيرة من المحامي إلى ذاكرة أنور الجملة التي أنهت بها سميرة رسالتها الأخيرة إليه. «نحن لسنا مكلفين بإصلاح فساد العالم!» علينا إذن أن نتقبل ما يجري حولنا ونسعى إلى التلاؤم مع ما فيه من ظلم ومن اعوجاج. سميرة قالت هذا متخوفة من عواقب اصطدام خطيبها بقوى تسمع بطول باعها في بلوغ ما تريد، متسلحة بقدرتها على الشرور والإيذاء. والمحامي شكيب مجد الدين يقول هذا عن فلسفة مستقاة من تجاربه في التعامل مع الحياة ومع الناس بمختلف صنوفهم. عقلية الأستاذ صبحي عنده عقلية فريدة، كأنه يعيبها بهذا التفرد. أما هو، أنور، فيجد أن هذا العيب في عقلية أبي منير يرفع من قدره. لم يجد من المناسب أن يقول هذا لمحدثه الذي يبدو كأنه، مرة ثانية، كان يقرأ أفكاره. إذ إنه ما لبث أن استأنف الكلام بعد أن فرغ النادل من سكب الحساء في صحنيهما على المائدة وابتعد عنهما، فقال:

ـ لم تعرّفني بماذا جرى في تلك القضية. لا تنسَ أنني محام. حتى الدعاوى الخاسرة تهمني. تهمني معرفة سبب خسارتها لأتبين نقاط الضعف في الدفاع عنها. هذا إذا كنتم خسرتم دعواكم مع هذا المدعو غزلان.

تضاحك أنور وهو يقول: إنها ليست دعوانا في الواقع. هي خصام بين أمير غزلان والدولة من ناحية، وبين ذلك الرجل وعشيرة السياد على هامش تلك الناحية. ولكن أبا منير تبنّى القضية وجرّني معه في تبنيها. لقد عديت بعقليته الفريدة، كما سميتها أنت يا شكيب بك.

قال المحامي: على بركة الله إذن. لن أكثر عليك في الوعظ والنصيحة. أصبحتما اثنين ضدي. ومن يدري؟ قد أعدى أنا منكما فأقف مثلكما ضد الغزلان. إنما، ما هو سلاحكما ضد إنسان اشترى برخيص وباع بغالٍ. هذا، على ما أذكر، هو ما جنّدكما ضد الرجل الذي اشترى من المواطنين بثمن بخس وباع الدولة بثمن مرتفع. ربما تعتبرون أنه سرق الدولة حين باعها بهذا السعر الغالي. ولكنك لا بد سمعت بالمقولة الشائعة، والمطبقة في مجتمعنا وعن أن سارق الدولة ليس بسارق!

قال أنور: قبل أن يسرق الدولة، سرق الفلاحين البسطاء. أعتقد أن سرقته هؤلاء هي التي حزت في صدر أبي منير، أكثر من سرقته الأموال العامة.

قال الأستاذ شكيب: هذا عن صبحي. وأنت ما الذي حزّ في صدرك؟

فأجاب أنور: من ناحيتي أعتقد أن السرقتين متماثلتان. ربما كانت سرقة مال الفقراء تؤلم النفس، غير أني أجد أن الاعتداء على مال الدولة هو، عملياً، كالاعتداء على مال الفقير.

قرع المحامي بسكين المائدة حاشية الصحن أمامه كأنه كان يصفّق لهذه العبارة من محدثه الشاب. وقال بلهجة لا تخلو من المكر:

ـ أعجبتني يا فتى. هذا يعني أنك لا تمشي وراء صبحي مغمض العينين. إنها مثالية الناس العقلاء. لا الشباب الرومانتيكيين الذين تغلب عاطفتهم على محاكماتهم الفكرية. ولكن قل لي، هل وجدتم مطاعن قانونية في تصرف خصمكما في بيعه وشرائه، ما دمتما اعتبرتماه، خصماً شخصياً؟ مآخذكما عليه حق، ولكن الذي

يسود المجتمعات البشرية، في كل مكان، هو القانون. والقانون، كما نعرف جميعاً، لا يكون في كل الأحيان هو الحق!

قال أنور: أبو منير واثق من أنه سيجد ثغرة في معاملات الشراء والبيع بين أمير غزلان والمؤسسة الحكومية التي اشترت منه من ناحية، ثم بينه وبين السياد. تركته يبحث عن هذه الثغرة في تصميم وعناد. وحتى قبل اكتشافها، فإني أتصور أنه كسب الجولة الأولى على خصمنا، كما سميته أنت، حين أوهمه بأنه يملك ما يبرر فسخ العقود التي أبرمها محامو غزلان مع الطرفين. كسب هذه الجولة نفسياً.

فسأله المحامي: ماذا تعني بقولك نفسياً؟

وهنا راح أنور يروي لمضيفه حكاية زيارتهما لأمير غزلان في مكتبه. وصف له الدرب الفرعي والحاجز عليه، وغرفة المكتب التي دخلاها، كما وصف الرجل في مظهره المنفوخ بتعالي حديث النعمة حين يثق بنفسه، ثم المتخاذل والمتضائل أمام التهديدات المبطنة التي ساقها إليه الأستاذ صبحي. روى أنور ذلك بطريقة مسلية بعثت الابتسامة عريضة إلى شفتي الأستاذ شكيب. وتحولت الابتسامة إلى ضحكة عالية حين روى له كيف قال لأبي منير: هذه المستندات التي ذكرتها لأمير غزلان عن فساد صفقة الأرض المشتراة، ما هي؟ أنا لا أعرفها، وكيف رد عليه الأستاذ صبحي بقوله: وأنا لا أعرفها أيضاً!

قال الأستاذ شكيب، بعد الضحكة، لجليسه:

ـ كأنها لعبة بوكر. ولكن يا عزيزي، احذر أنت ومعلمك، كما تصفه، مني ومن زملائي القانونيين. ضحكتما على ذقن أمير غزلان في البداية، فتذكرا أن من يضحك أخيراً يضحك كثيراً...

وسكت منصرفاً إلى الصحن المليء أمامه، ومشيراً إلى ضيفه بأن يصنع مثله ويترك الكلام إلى الطعام.

- ٦ -

كتم أنور عن الأستاذ شكيب مجد الدين أنه، في العودة من دمشق، سيتوقف في مدينته مرة أخرى. فرض هذا التوقف عليه، أو هيأه له، الأستاذ صبحي بداعي إتمام مهمته في استلام الكريدر، موكلاً إليه أن يشرف على تسيير الآلية إلى المركز رقم ٦ في شاحنة مقطورة من شاحنات مرآب المؤسسة في حلب، وذلك بعد انتهاء عطلة العيد. لو أنه أخبر صاحبه المحامي بهذا التوقف لالتزم بالاتصال به حين يرجع ولتعرض إلى دعوة مجددة إلى الغداء أو العشاء، أو لزيارته في منزله ليتعرف على أبنائه، كما قال له في تلك المرة. لم يرد أن يثقل على الأستاذ شكيب ويقتطع من وقته أكثر مما اقتطع حتى الآن، كما أنه، من ناحية أخرى، أراد أن يتنقل وحده في هذه المدينة. لم يعرف من حلب حتى الآن، باستثناء رؤيته العابرة في الرحلة المدرسية، إلا ما اطلع عليه في صحبة المحامي أو اقتيد إليه في صحبة أسرة الحاج نعمان، صديق والده. حتى هذه الصحبة، على ما جنى منها من لذيذ النشوة، لم يرد أن يتقيد بها في العودة، رغبة منه في التجول وحيداً وحراً في أسواق حلب القديمة، تلك التي لا تزال منها في ذاكرته صور باقية من رحلته الجامعية إليها منذ عامين مضيا أو أكثر من عامين.

على أن أنور إذا استطاع الابتعاد عن لقاء المحامي في توقفه في مدينة الشهباء في العودة، فإنه لم يحسب حساب ما سيعيده مضطراً إلى دار الحاج نعمان ثم إلى لقاء أصحاب هذه الدار بكامل جمعهم. لقد قضى أسبوعاً كاملاً في دمشق. قضاه متنقلاً بين

المنزلين المتجاورين، منزل أهله ومنزل خطيبته، مجيباً على الاستفهامات الحادبة من أمه، وعلى الأسئلة الماكرة من سميرة، ضاحكاً ومداعباً ومتخماً بولائم العيد التي دعي إليها من قبل أقاربه وأصحابه، حتى كاد أن ينسى مركز الاستصلاح والمهمة المكلف بها من تسيير الآلية الضخمة من حلب، وحتى الناس الذين عرفهم في حلب. كاد ينسى كل ذلك إلى أن نبهه أبوه قبل انتهاء العطلة بيوم، وهما على مائدة الطعام. قال شاكر بك:

ـ لم أخبرك بما كتب لي الحاج نعمان عنك يا ولدي.

فوجىء أنور بهذا الذكر للحاج نعمان، فسأل والده:

ـ الحاج نعمان؟ كان عليّ أن أعلمك بأني لم أحظ برؤيته في المرتين اللتين سألت عنه فيهما. أسفاره كثيرة، وغيباته تطول. ولكن أسرته، بكل أفرادها، أسرة طيبة وكريمة. أخبرتك عن حسن استقبالهم إياي في أولى رسائلي إليكم.

قال الأب: أذكر هذا. قبل العيد بيومين تلقيت من الحاج نعمان رسالة يعلمني فيها بأنه سيقضي العيد عند أسرته، وبأنه يتمنى أن يراك في هذه المناسبة. كنت أنتظر قدومك لأعرف منك برنامج عودتك. إذا كان لديك وقت فمن المستحسن أن تزوره وتنقل إليه سلامي.

قال أنور: أتمنى أن يصح لي ذلك. لديّ مهمة عمل في حلب. سأتصل به في منزله. ولعلي أتمكن من زيارته لأبلغه تحيتك ولأشكره أيضاً على حفاوة أسرته بي. ولكن... وتوقف هنا عن الكلام، فسأله أبوه: ولكن ماذا يا ولدي؟

فأجابه أنور، وهو يبتسم: إفراط هذه العائلة الكريمة في إكرامي

يحرجني. أخشى من إلحاحهم في استبقائي وأنا مضطر إلى الالتحاق بعملي في موعده بعد غيبتي الطويلة.

قال شاكر بك: لا أقل من أن تشرب عندهم فنجان قهوة، ثم تنصرف. عذر العمل مقبول، ولا سيما عند رجل مثل الحاج نعمان. ستسلم لي عليه كثيراً.

قال أنور: إن شاء الله. سأتصل به تلفونياً على كل حال، وآمل أن أقابله.

وهكذا كان. بلغ المهندس أنور حلب أصيل الأربعاء، وهو اليوم التالي لأيام العيد الأربعة. وما أن وضع حقيبته في الفندق المعتاد حتى سارع إلى مرآب المؤسسة قرب حي الميدان ليتفاهم مع إدارته حول تسيير الآلية في الصباح. لم يخطر في باله أن عطلة العيد ستمتد إلى هذا اليوم الذي يسميه الشغيلة «جحش العيد»، وأنه لن يجد في المرآب مسؤولاً يبحث معه ما جاء من أجله. وجد نفسه حراً فيما تبقى من النهار، فعاد إلى الفندق وفي نفسه أن يتصل بمنزل الحاج نعمان ليحييه، وليرى إذا كان مستعداً لاستقباله في المساء. أما قبل ذلك، فإنه ينوي أن يقصد «المدينة» وهي التسمية التي يعرف أنها تطلق على الأسواق المقبوّة، الضيقة والمتقاطعة، التي مرّ بها مع رفاقه معجلاً منذ أكثر من عامين في طريقهم إلى زيارة القلعة. لا تزال في نفسه من ذلك الحين بقايا رغبة إلى رؤية تلك الأسواق، بأكثر مما رآها يومذاك والتعرف عليها بأكثر مما تعرف.

كان الصوت الذي رد عليه عبر التلفون من دار الحاج نعمان، في هذه المرة، صوت رجل. ما أن عرّف أنور بنفسه حتى جاء الجواب في هتاف يقول:

ـ هذا أنت؟ أنا ربيع.

كادت ضحكة أن تنطلق من حنجرة أنور للهفة غير المتوقعة التي لفظ بها مخاطبه كلماته. قال لنفسه: وأخيراً سيرى هذا الصبي الذي يدّعي الشوق للقائه ثم يتهرب في كل مرة من اللقاء. حياه بتودّد وسأله عن أحواله وعن صحة والدته وشقيقته. ثم أضاف قائلاً:

ـ وكيف صحة الحاج الوالد الكريم؟ كلفني أبي بإبلاغه تحياته وشوقه إلى رؤيته... لعل له زيارة قريبة إلى دمشق فيجتمع به.

أجاب ربيع: أبي؟ إنه بخير والحمد لله. سأناديه ليكلمك بنفسه. سيكون مسروراً بأن يراك. ولكن ها هي أمي تشير إليّ بأنها تريد أن تكلمك.

وتناهى إلى سمع أنور صوت السيدة شاهناز، بنعومته المخملية، وهي تقول:

ـ أهلاً بك في بلدتنا. نحن كلنا في شوق إليك. هل صحيح أنك لم تزر حلب كل هذه المدة؟ عمك أبو ربيع بشوق إلى التعرف عليك، وكتب لوالدك بهذا. هذا هو. كلمه يا ولدي...

من جديد رنت في مسمع أنور كلمة «يا ولدي» مستغربةً على لسان السيدة شاهناز، ومثيرة ذكريات لقاءاته الفائتة بها. إلا أن صوت الحاج نعمان الذي جاءه أجش، بطيئاً في نطق كلماته، منعه من الاسترسال في ذكرياته حين سمعه يقول:

ـ أهلاً بابن الصديق العزيز، وأنت عزيز مثله. متى وصلت إلى بلدتنا يا ابني؟ وأين أنت الآن؟

أخبره أنور بأنه لم تمض عليه أكثر من ساعة في حلب، وأنه يتكلم من الفندق، فقال:

ـ أنت إذن متعب الآن. هل تكفيك ساعتان لترتاح؟ ننتظرك نحن في الساعة الثامنة، وسيكون لنا حديث طويل. يمر عليك ربيع ليأتي بك في ذلك الوقت. خذ كلّمه.

ارتفع صوت ربيع في أذنه متكلماً بسرعة، وهو يقول:

ـ أعرف فندقك. ولكن الوقت حتى الساعة الثامنة طويل. هل أستطيع أن أراك الآن؟ أنا قادم إليك ولو لم تقل نعم. يمكنك أن تطردني إذا لم يعجبك شكلي، أو إذا كان لك موعد مع من هو خير مني...

وسمع أنور صوت إطباق السماعة قبل أن ينتظر مخاطبه منه رداً. هز رأسه والابتسامة تعلو شفتيه، محدثاً نفسه بأن طباع هذا الفتى لا تخلو من غرابة. ربما كان الحاج نعمان، بحكم سنه ومركزه الاجتماعي، متعوداً إصدار الأوامر، أما ربيع فإنه يفرض نفسه غير منتظر سؤالاً أو اعتراضاً، دون مبرر. ومع ذلك فإنه محبب اللهجة، لا يبدو أنه ثقيل أو سمج. ليس له، أي لأنور، على كل حال أن يضيق بتودد هؤلاء الناس له. إنه حتى الآن محظوظ بمن يلقاهم ويصاحبهم في هذه الفترة وفي هذا المحيط الذي جاء إليه وحيداً وغريباً.

محظوظ! عاد إلى باله هذا الوصف الذي وصفه به المحامي شكيب مجد الدين منذ أيام قليلة. لن تُتاح له رؤية صديق الأستاذ صبحي على الرغم من أن مكتبه على بعد خطوات من هذا الفندق. وعسى أن لا تجمعه به مصادفة في الفترة التي يبقى فيها في حلب. عليه الآن أن ينتظر مجيء ربيع فيسقيه فنجان قهوة ويقنعه بأن يتركه ليعود إليه في الساعة الثامنة، فهو لا يزال على عزمه في زيارة أسواق «المدينة» قبل حلول الظلام.

ولم تمض دقائق حتى وقف نجل الحاج نعمان في مدخل بهو الفندق. لم يكن أنور في حاجة إلى من يعرفه به. كان بطول قامته ونحول قده يذكر بشقيقته دلال. أما وجهه الذي أضاءته أنوار البهو المشتعلة، على الرغم من أن الشمس لا تزال ساطعة خارج الفندق، فكان يحمل شبهاً واضحاً بوجه السيدة شاهناز، في الاستدارة وفي استقامة الأنف وامتلاء الشفتين. رحب به أنور ودعاه إلى الجلوس ليطلب له فنجان قهوة، فقال الفتى، وهو يلقي بنفسه على المقعد العريض إلى جانبه:

ـ قهوة؟ أنا متخم بها. عليّ أن أبدأ بالاعتذار عن تخلفي عن لقائك في المرتين السابقتين. أريد أن أسألك: ماذا صنعت لعائلة الحاج نعمان حتى يتعلق كل أفرادها بهذا الشكل بك؟... الوالدة، وشقيقتي وخطيبها، حتى الحاج والدنا الذي لم تقع عليك عينه بعد، والذي يقول: هو أحسن مما تصفونه، أليس ابن شاكر بك؟

احمر وجه أنور لسماعه ما يقول زائره، وغمغم بكلمات شكر غير واضحة، بينما تابع الفتى الزائر كلامه قائلاً:

ـ حسناً. أريدك أن تسمع مني. إذا كنت لا تحبس نفسك بين هذه الجدران في انتظار إنسان غيري، فهلم معي لأريك حلب الشهباء. قالت أمي إنك لم تر منها إلا ما بين المنطقة الصناعية في حي الميدان وهذا الشارع، شارع بارون.

قال أنور: الواقع إني كنت أحدث نفسي بالتجول في شوارع بلدكم الجميل، وفي الجانب القديم منه بصورة خاصة. أعجبتني أسواق «المدينة» أثناء مروري بها في رحلة جامعية ماضية. لم أتمل منها حينذاك. أما الآن فإني سأؤجل تجولي إلى فرصة أخرى. لا أريد أن أحرم نفسي من التحدث إليك ونحن نشرب قهوتنا معاً.

أمسك ربيع بكف أنور ونهض من جلسته جاذباً إياه بعصبية وهو يقول:

ـ فكرة التجول هذه بديعة. قلت لك إني متخم بالقهوة. لا يزال أمامنا مايكفي من وقت قبل أن تغيب الشمس وتغلق الأسواق التي تريد أن تراها. سأكون دليلك إليها.

لم يملك أنور غير أن يطاوع اليد التي تجذبه، فنهض وسار وراء ربيع الذي تابع كلامه قائلاً:

ـ الصحيح أني أيضاً في حاجة إلى رؤية «المدينة» ورؤية أسواقها. لم أمرّ بها منذ زمن طويل. ولكني ربيت فيها. عشت فيها سنين صباي حين كان لأبي مخزنه في قيسرية العلبية. سأريك هذه القيسرية في تجوالنا، وأريها لنفسي أيضاً.

كانا قد خرجا إلى الشارع. أسرع ربيع في مشيته، فأوقفه أنور، ربما ليخفف من استعجاله، وقال متسائلاً:

ـ قيسرية؟

قال ربيع: سترى. أظن أن الأمور تغيرت كثيراً عنها في أيام صباي. ولكن هناك أشياء في هذه المدينة تبقى ثابتة. القيسريات مثلاً. لا يمكنها أن تتغير في أسواق حلب، لا في دواعي استعمالها ولا في بنيانها. في بنيانها بصورة خاصة. لا بد أنك رأيت الأحجار المبنية بها عمائر بلدتنا. أحجار ضخمة، متينة ومقاومة. بناها أجداد الأجداد وظلت سالمة ليسكنها الأبناء والأحفاد. ليست كبيوت حارات دمشق القديمة المبنية بالطين والتبن والتي تكفي فيها رفسة قدم ليتهاوى الجدار فيها تراباً وخشباً مهترئاً.

كانا قد قاربا ساحة باب الفرج حيث بناء الساعة القديمة بأحجارها

الشهباء الضخمة. تطلع أنور إلى ذلك البناء وقال معلقاً على جملة ربيع الأخيرة، وهو يبتسم:

ـ هل أعدّ هذا نقداً لأهل دمشق ولطريقتهم في بناء بيوتهم؟ ربما كان معك الحق في ما تقوله، وربما كان لنا مبرراتنا في اتباع تلك الطريقة. ولكني سألتك عن القيسرية...

قال صاحبه: نعم، القيسرية. الحوانيت مفتوحة في الأسواق هناك على الشوارع، بل على الدروب الضيقة، وهي مبنية طبقة واحدة تحت السقوف المعقودة أقبية. لا بد أن تتذكر منها هذا من زيارتك القديمة لها. في بعض أسواق «المدينة» ينفتح السوق على ساحة تحيط بها الحوانيت مبنية على طبقتين. في الطبقة الأرضية دكاكين تباع فيها البضائع بالمفرق، وفي الطبقة العليا مكاتب التجار المعتبرين ومخازن لبضائع الجملة. هذه الساحة وحوانيتها ومخازنها هي القيسرية. الحاج نعمان، والدي أطال الله عمره، كان له مكتبه ومخزنه في قيسرية العلبية التي نحن في الطريق إليها الآن. ها ترانا اجتزنا قسطل الحجارين، ودخلنا خان الحرير.

قال أنور، وهو يتلفت حوله في الشارع العريض المصفوفة على جانبيه حوانيت حديثة البنيان:

ـ لا أرانا دخلنا خاناً. نحن لا نزال نسير في شوارع مفتوحة.

قال رفيقه: لا خان هنا... صحيح! المنطقة اسمها خان الحرير. لا بد أنه كان خان هنا في قديم الزمان وهدم. أم لعل بقاياه موجودة وراء صفوف العمائر الجديدة كثيرة الطوابق هذه. لا تؤاخذني على ما قلته عن الفرق بين بناء الدور في حلب ودمشق. ربماكنت مدفوعاً بتأثير عقدة النقص التي نحملها نحن، الحلبيين، في أعماقنا.

ابتسم أنور وقال: ما من داعٍ إلى الاعتذار. ولكن، أية عقدة نقص تعني؟

ابتسم ربيع بدوره، وتوقف عن المشي قليلاً قبل أن يتابع سيره، ويجيب قائلاً:

ـ الناس عندنا، في ما أراه أنا، يحملون مركب نقص تجاه عاصمة بلادهم. يغارون من العاصمة لاستئثارها بكل ما له قيمة. حتى أبناء مدينتنا، إذا ما نبغ واحد منهم في علمه أو اختصاصه أو اتسع في تجارته، تراه يترك حلب ويسكن دمشق. لهذا ترانا نحن الحلبيين لا نترك مناسبة إلا ونقارن فيها بين ما عندنا وعندكم لنبيّن تفوقنا عليكم، ثم لننعى سوء حظنا وننتقد تسلطكم لأنهما يحرماننا ثمار تفوقنا! أحجارنا أمتن من أحجاركم، وبنياننا أرسخ من بنيانكم، وصناعنا أمهر من صناعكم، وتجارنا أصدق في معاملاتهم من تجاركم... ومع ذلك أنتم الأوائل في الشهرة والمناصب والمكاسب. حظنا سيء والزمان جائر علينا!

لم يملك أنور نفسه عن إطلاق ضحكة قصيرة قبل أن يقول:

ـ يبدو يا ربيع بك أنك قدير في التحليل النفسي. ما هي شهادتك الجامعية؟

جاراه رفيقه بالضحك وقال: أولاً لقب بك هنا ليس مناسباً لإنسان في عمري. وثانياً يؤسفني أن يخيب بي ظنك إذا أخبرتك بأني لا أحمل أية شهادة جامعية. انتسبت إلى كلية الاقتصاد والتجارة عاماً واحداً، وتوقفت عن الدراسة لأن الحاج نعمان، في سفره المستديم وغيابه المستمر، ألزمني بأن أتعلم التجارة والاقتصاد على الطبيعة، ممارسة لا مدارسة! تفضل واتبعني... من هنا مدخل أسواق «المدينة»، إذا أخذنا الطريق الأيمن. إذا شئت أن نزور الجامع الكبير،

علينا أن نتجه إلى اليسار. أفضل أن نزور الأسواق قبل أن تغيب الشمس وتغلق الدكاكين أبوابها. ما رأيك؟

لم يجب أنور على سؤال صاحبه الذي لم يكن ينتظر موافقة على اقتراحه لينفذه. فقد تابع ربيع سيره في الطريق الأيمن، كما تابع تعريفاته بما يمرّان به من أزقة ودروب وأبنية حولها بلسان طلق وتفصيلات دقيقة. كان أنور يتوقع أن يجد في مرافقه، وهو الابن الوحيد لأسرة ثرية غاب عنها الأب وتولت الأم تربية الأبناء فيها، فتى مدللاً هوائي العواطف محدود التفكير. ولكن ها هو يجد في هذا الشاب، على الرغم من مظهره الناعم الذي يكاد يكون أنثوياً، نضجاً في التفكير وإحساناً في التعبير ومعرفة بكل ما يتحدث عنه. قال له، وهو يقف للحظة أمام بوابة عريضة مفتوحة على مصراعيها في السوق الذي كان يسيران فيه:

ـ هنا خان البنادقة. البنادقة نسبة إلى مدينة البندقية في إيطاليا الحالية. كان التجار من تلك المدينة منذ ثلاثة قرون أو أكثر، يقيمون في هذا الخان. ترددت عليه كثيراً في صغري حين كان أبي يحملني الفواتير ومراسلاته التجارية إلى عملائه من موردين ومصدرين، أحفاد أولئك الإيطاليين، في هذا الخان.

قال هذا وتابع سيره في الشارع، وقد بدأت الحوانيت على جانبيه تتقابل متقاربة بضيق الممرات بينها. سأله أنور:

ـ وهل لا يزال في هذا الخان إيطاليون؟

أجاب: أجداد من لهم مكاتب وحوانيت فيه كانوا بلا شك ايطاليين، وأسماء الأسر التي يحملونها اليوم لا تزال إيطالية. أما هم فلا أدري إذا كانوا لا يزالون متمسكين بجنسية البلاد التي جاء أسلافهم منها أم أنهم أصبحوا مواطنين في البلد الذي يعيشون فيه

والذي ولدوا فيه هم وآباؤهم. في مرة قادمة ندخل هذا الخان وأزيرك الأمكنة التي طالما زرتها أيام كان محلنا التجاري في قيسرية العلبية. ما ترقى الدرج إلى الطابق الثاني في هذا الخان حتى تظن أنك في بلدة إيطالية لا في سوق حلبية قديمة. التجهيزات المكتبية، والبضائع، واللغة التي يتكلمها أصحاب المخازن وموظفوها، وحتى سحنات هؤلاء الموظفين ومعلميهم، تبدو أجنبية، وإيطالية بالذات. هذا على الأقل ما أتذكره أنا من ترددي على خان البنادقة في تلك الأيام. نعم، سأزور معك الخان في يوم مقبل، لأستعيد ذكريات الصبا. أما الآن فلنتابع سيرنا. نحن الآن في السقطية، سوق الأغذية في «المدينة».

بعد الشارع المكشوف بعض منه، الذي تنفتح عليه بوابة خان البنادقة، انعطف ربيع برفيقه إلى أسواق متتالية، مقبوة، سقوفها مغلقة بكاملها إلا من فتحات تنفذ منها حزم الضوء ويتبدل منها الهواء. أول تلك الأسواق ذاك الذي سماه «السقطية» وتتابعت بعده أسواق العطارين والذراع والزرب والصاغة والخيطان، إلى أن انتهيا إلى سوق الحبال. كان لسان ربيع لا يتوقف عن الكلام وهو يسمي الأسواق معرفاً باختصاص كل منها، ومشيراً إلى تفرعاتها غير المقبوّة وما تنفتح عليها من خانات يسميها باسم خان النحاس وخان الجمرك وبأسماء أخرى، بإسهاب لم يضايق أنور البتة. لقد تقبل أن يكون سائحاً يقوده هذا الدليل الذي يشبع كل ما يمر به وصفاً لا يستدعي زيادة. اكتفى بإجالة أنظاره فيما حوله، متتبعاً إشارات رفيقه ومختزناً ملاحظاته عما يراه ويسمعه، وعما يشمه أيضاً. فقد كان لحاسة الشم في هذه الأسواق المغلقة نصيبها من التأثير ما لحاسة البصر والسمع.

أول ما أدرك أنور هذا حين ولج به صاحبه سوق السقطية. ملأت خياشيمه من هذا السوق رائحة ضاقت أنفاسه بها أول الأمر. لم تكن رائحة كريهة، ولكنها كانت غير مألوفة. لم تكن طيبة وإن لم تكن مزعجة. مزيج من رائحة اللحم النيء المنبعثة من شرائح الخراف المعلقة في واجهات الدكاكين، ومن رائحة الألبان الطازجة في علبها المكشوفة، ومن رائحة الخضار الغضة والفواكه المكومة على مساطب على جانبي السوق الضيق لا تكاد تترك للمارة مجالاً للسير. كل ذلك تحت السقف المعقود الذي لا تفي فتحاته بأن يتبدل الهواء كما يجب أو تتبدد الرائحة بما يكفي. وفوق تراكم البضائع فيها يزدحم الناس وتعبر أحياناً حيوانات نقل هي، على قلتها، أكثر مما يتسع له هذا السوق في ضيقه.

تلك كانت السقطية. أحس أنور بانفراج حين جاوزها مع ربيع إلى سوق العطارين، ففي هذه كانت الرائحة أذكى وأدعى إلى الانتعاش. لم يحاول أن يدفع بصاحبه إلى الإسراع بل سار على مهله منقلاً بصره بين دكاكين هذه السوق المكتظة على صغرها بأكوام الصابون البلدي وبالحشائش العطرية الجافة وبأنواع البهارات، مما ذكره بسوق البزورية، بين مدحت باشا وقصر العظم، في دمشق. وتلت سوق العطارين الأسواق الأخرى، لكل منها رائحته الخاصة وبضاعته الخاصة ونداءات باعته ونوعية زبائنه. في السقطية كان الزبائن رجالاً قادمين من الأحياء الداخلية لشراء مؤونتهم من لحم وخضرة وفاكهة موثوقة في جودتها ورخص سعرها. وهنا، في سوق الزرب، بداة من سهوب البلاد المبعدة، جاؤوا يشترون لبيوتهم شقق النسيج من شعر الماعز والأمراس والأوتاد. وفي أسواق الخيطان والصاغة والجوخ نساء من كل سن

وناحية يجربن ويساومن ويشترين. كل هذا كان ربيع يعرّف به ويعلّق عليه ويلفت نظر صاحبه إليه. قال له في معرض حديثه، وهو يمسك بذراعه ليوقفه عن المسير:

ـ تأمل. هذا كما قلت لك سوق الزرب. إذا تطلعت من هنا إلى نهايته تشاهد سفح القلعة... قلعة مدينتنا الشهيرة. فتحة السوق الخارجية تفضي إلى طريق حول القلعة. لن نستمر في السوق، بل سنعود منها لأريك قيسرية العلبية.

وتقدمه متجهاً إلى القيسرية. إلا أن أنور تخلف عنه لثوان قليلة، مدّ فيها بصره من موقفه إلى نهاية السوق. بدت سوق الزرب كسرداب طويل مظلم، فقد كان نور النهار قد تضاءل بقرب مغيب الشمس، وفي آخر السرداب بقعة مضيئة، مصفارة، لا بد أنها انعكاس أنوار المغيب على سفح تل القلعة. هذه البقعة المضيئة كانت تتقطع بين لحظة وأخرى بأشباح الزبائن وهم يتنقلون بين الحوانيت، أو بأشباح المارة في طريق حول القلعة خارج السوق. خيل إلى أنور أنه كان يتطلع إلى البقعة من خلال منظار فلكي طويل، أنبوبته سوق الزرب على امتداده وعدسته مدخل السوق من جانب القلعة. ابتسم لنفسه لهذا التصور، واستدار ليتبع صاحبه الذي هتف به:

ـ الحقني لندرك القيسرية قبل أن يغلقوا أبوابها الخارجية. تعال يا أنور بك.

اقترب منه، وقد تذكر ما قاله ربيع منذ دقائق، في بدء جولتهما، فقال في مكر:

ـ لقب بك هنا، في حلب، ليس مناسباً لإنسان في سني. اسمي أنور، حاف... يا عزيزي يا ربيع!

- ٧ -

بعد زيارة قيسرية العلبية، وبعد جولة معجلة في الجامع الكبير الذي انحدرا إلى حرمه من باب مفض إليه، ضيق، يقع في نهاية سوق الحبال، عاد الشابان سيراً على الأقدام إلى الفندق حيث كانت سيارة ربيع في شارع جانبي قريب. تطلع هذا إلى ساعة يده وقال لأنور:

ـ يمكنك أن تستريح بعض الوقت من المسيرة التي جررتك إليها، ومن ثرثرتي التي أرهقتك بسماعها. قال والدي إنه ينتظرنا في الساعة الثامنة، ولكن لا بأس إذا أطلنا انتظاره نصف ساعة أخرى. نصنع مثل الأكابر الذين يثبتون كبرهم بتأخرهم عن المواعيد وإجبار الآخرين على انتظارهم.

ابتسم أنور وقال: سألقي المسؤولية في التأخر عليك. هؤلاء الذين تتحدث عنهم أكابر مزيفون. والدي يردد عليّ دوماً مثلاً فرنسياً يقول إن الدقة في المواعيد هي دليل التهذيب في الملوك...

قال ربيع: يرضى الله عن والدك. ربما كان هذا صحيحاً في زمانه، أما اليوم فإن زمن الملوك مضى وانقضى وجاء زمن البروليتاريا. ما علينا... إحسب لي ثلاثة أرباع الساعة من الغياب، تجدني بعدها في انتظارك على باب فندقك هذا.

وعلى الرغم من ادعاء ربيع أنه من أنصار التأخر في المواعيد فقد كان، بعد خمس وأربعين دقيقة بالتمام من تركه لصاحبه، واقفاً بسيارته أمام الفندق. فتح له بابها ودعاه إلى الركوب بجانبه وهو يقول:

ـ ليست هذه سيارتي. إنها لأمي، ولكنها لا تحب أن تسوقها بنفسها. سيارتي أتركها في العادة في طرطوس. هيا إلى مدينة

الشهباء الجديدة، فالأسرة بأكملها في انتظارك، حتى عضو المستقبل فيها، سهيل خطيب شقيقتي العزيزة!

بالطبع، كان الحاج نعمان أول من يتلقى أنور وأول من يجذب انتباهه. تلقاه الحاج بذراعين مفتوحتين ضمه بهما إلى صدره، وطبع على وجنتيه قبلتين أحس منهما بخشونة شعر ذقنه قبل أن يحسن تأمل تلك الذقن بنظراته. وحين انفلت من عناق صديق أبيه توقف متطلعاً إليه بصمت، غير منتبه إلى أنه غفل عن الترحيب الذي كانت تعلو به أصوات بقية الحاضرين وعن الرد على تحياتهم. كان يتوقع أن يجد في الحاج نعمان صورة من أبيه هو، شاكر بك، بشعره الشائب وقامته الربعة، حاملاً عصاه التي لا تفارق كفه كأن قامته لا تستقيم إلا بها. غير أن الحاج نعمان كان في مظهره كبير الاختلاف عن شاكر بك. فهو طويل القامة، نحيف البنية، مستطيل الوجه. وإذا بدا في سنه مقارباً لوالد أنور، فإن شيبه لا يظهر إلا في فوديه وفي لحيته عند الصدغين بينما ظلت أقرب ما تكون إلى السواد في سائرها. كان يرتدي دشداشة من الحرير الثخين، مصفارة، مطرزة حول العنق وفتحة الصدر، مقلمة بخطوط طولانية تسهم في بيان استقامة قد لابسها وطوله. كانت عيناه واسعتين وشهلاوين، خيّل إلى أنور أنهما كانتا تضحكان له بأكثر مما كانت تضحك شفتاه المنفرجتان عن أسنان ناصعة البياض. انتبه أنور إلى أن السيدة شاهناز كانت تناديه باسمه، قائلة:

ـ أنور بك، يا أنور بك! من لقي أحبابه نسي أصحابه... سحرك عمّك فأنت تتطلع إليه وحده، ناسياً أننا كلنا في شوق إليك.

استدار الفتى إليها متمتماً بكلمات اعتذار متلاحقة. وحين تطلع إليها تعلّق نظره بزي ملابسها هذه العشية. ما كانت ترتدي واحداً

من فساتينها الزاهية الألوان، الواسعة فتحة الصدر، والتي تنحسر أكمامها عن زنديها العبلين ببياضهما المورد. كان ثوبها في هذه الأمسية طويلاً وضافياً، يلامس أدناه ظاهر قدميها، وأعلاه قبة مزررة على عنقها الذي التف حوله عقد بثلاثة صفوف من حبات اللؤلؤ يراه أنور لأول مرة حول جيدها. وحتى شعرها الكستنائي السبط الكثيف، الذي كانت تلقيه فيما مضى وراء عنقها بين منكبيها، أمسى الآن ملفوفاً بعصابة بيضاء مطرزة الحواشي استدارت حول رأسها وتدلت منها ذؤابة انحدرت على كتفها قبل أن تستريح على أعلى صدرها. قال أنور لنفسه: هذا الزيّ خلق من السيدة شاهناز امرأة أخرى لم يعرفها من قبل. لم ينقص من محاسنها شيئاً، بل أعطاها لوناً جديداً من الجاذبية... أتراها غيرت طراز ما ترتديه لأن هذا ما يحب الحاج نعمان أن يراها فيه؟

هز أنور رأسه، كالساخر من نفسه، لهذه الخواطر التي مرت بباله وانصرف، بعد أن صافح السيدة شاهناز، إلى تحية بقية أفراد الأسرة متبادلاً وإياهم السؤال عن الصحة وكيف الأحوال. ارتد نظره من جديد، بعد أن اتخذ مجلسه في أحد المقاعد الوثيرة إلى ربة البيت وهي تنقل خطاها بين جنبات البهو الواسع الذي تجمع فيه أفراد الأسرة وأجنحة المنزل الأخرى. ثوبها الطويل أعطى تلك الخطى رشاقة لم تكن لها في الثياب العصرية التي رآها فيها في المرات السابقة. ربما لأن طوله غطى على امتلاء جسدها، كما سمحت فضفضته لقدها أن يتحرك متأوداً بحرية. ثم إن اللون الرمادي القاتم لذلك الثوب أبرز نصوع ما ظل ظاهراً من بشرة وجهها وكفيها وقدميها العاريتين في حذائها المقطع. هذا الثوب المطرزة قبته وحواشيه، وهذه الطرحة البيضاء المزخرفة الأطراف، وهذا العقد

اللؤلؤي الذي يساوي ثروة طائلة، لا بد أنها كلها هدية الحاج نعمان لزوجته الغالية في عودته من أسفاره المتواصلة، تزينت بها اليوم ليراها فيها في أيام إقامته عندها. فإذا كان كذلك، لقد أحسن الحاج انتقاء هداياه وأحسنت السيدة شاهناز ارتداءها والتزين بها.

مرة أخرى هز أنور رأسه لينفض عن تفكيره هذه الخواطر، وقال مجيباً على سؤال من الحاج نعمان:

ـ والدي؟ إنه بخير والحمد لله. هو دائم الذكر لك ودائم التذكر للأيام السالفة... أيام كنتما زميلين لا تفترقان، في الوظيفة وفي السكن والعيش معاً في بلدة واحدة وفي دار واحدة.

تنهد الحاج نعمان وقال:

ـ الحق معه. إنها أيام لا تنسى. شاكر بك محظوظ في أنه يجد وقتاً للراحة وللتذكر. أما عمك فإن الراحة بعيدة عنه، ولذلك فإنه لا يجد وقتاً ينعم فيه بالتذكر...

قالت السيدة شاهناز، وكانت في هذه اللحظة جاءت من قلب الدار فسمعت جملة زوجها الأخيرة:

ـ أنت تتنهد يا أبا ربيع وكأنك تأسف على هذا. قل لنفسك، إلى متى تحرم أنت نفسك الراحة؟ هل أنت خير من أخيك شاكر بك؟

قال السيدة شاهناز هذا، وهي واقفة في مدخل البهو، دون أن تجلس، كأنها تنوي العودة من حيث أتت، فتطلع زوجها إلى ضيفه، ابن صديقه، وقال وهو يبتسم:

ـ تأمل يا ابن أخي... فتحت لامرأة عمك الباب عليّ معزوفتها في دعوتها لي إلى أن ألزم الراحة. لا راحة لمؤمن يا أم ربيع...

توجه بهذه الكلمة الأخيرة إلى زوجته التي بدا أنها وطّنت النفس

على مواصلة الحديث فأزاحت ابنها عن المقعد الذي كانت تقف إلى جواره وجلست هي مكانه. قالت مرددة جملة زوجها الأخيرة:

ـ لا راحة لمؤمن... أكمل يا حاج.

ارتفع هنا صوت دلال، وهي تترك مقعدها وتسير باتجاه غرف الدار الأخرى. ارتفع صوتها سابقة والدها بالإجابة على طلب أمها، قائلة:

ـ لا راحة لمؤمن إلا بلقاء ربه! أليس هذا ما تسألين عنه يا أمي؟

وأكملت مشيتها خارجة من الصالون.

قالت السيدة شاهناز، مسائلة زوجها، وكأنه هو الذي نطق بالجملة الأخيرة لا ابنتها دلال:

ـ وهل من الضروري أن ننتظر لقاء ربنا حتى نستريح؟

لم يجب الحاج نعمان على السؤال. اكتفى بأن زاد في اتساع ابتسامته وهو ينقّل نظره بين زوجته وبين ضيفه. أردفت الزوجة قائلة:

ـ أخشى من أنك تسيء إلى ضيفنا، إلى ابن أخيك شاكر بك، حين تقول أن لا راحة لمؤمن.

قال الحاج نعمان متسائلاً: أسيء إليه بماذا؟ هل أزعجك كلامي بشيء يا ولدي؟ لم أفهم عليك يا ست.

ابتسمت الزوجة في مكر وهي ترد على العبارة الموجهة إليها. قالت:

ـ أنت لا ترتاح لأنك مؤمن. أما شاكر بك فهو في راحة تحسده أنت عليها. تعني أنه ليس مؤمناً...

صفق الحاج نعمان بيديه في حركة بين التعجب والاستنكار لما سمعه، كما انطلقت ضحكات الحاضرين، ربيع وأنور وسهيل خطيب دلال، لهذا التخريج من ربة البيت لكلام زوجها. أما هي فقد وثبت من مقعدها لتلحق بينتها في داخل المنزل، بينما كان الحاج نعمان ينتظر إلى أن تهدأ الضحكات ليقول:

ـ إنه من كيدكن، إن كيدكن عظيم.

وانطلقت منه هو أيضاً ضحكة قصيرة قبل أن يضيف:

ـ هكذا النساء يا بني. حمّلت امرأة عمك كلامي معنى ما قصدته مطلقاً، كأنها تريد أن تخلق فتنة بيني وبينك. سامحها الله. ولكن دعنا من هذا وقل لي يا ابن أخي يا أنور...

قال الفتى: تفضل يا عم.

قال الحاج: علمت بأنك تكثر التردد على حلب. ومع ذلك فإن أم ربيع تشكو من أنك تظل في مدينتنا أياماً دون أن تراك هي أو يراك ربيع. هذا لا يجوز يا ولدي. أنت في عهدتنا منذ كتب أبوك الرسالة التي حملتها لي منه أول مجيئك. إذا كان لك معارف غيرنا في هذه المدينة فإنك تستطيع أن تدعو أصدقاءك إلى هذه الدار كما تدعوهم إلى بيتك. الدار دارك ونحن أهلك.

قال أنور: أنتم أهلي وأعز يا عمي الحاج. لقد غمرتني الخانم أم ربيع، وكل أفراد الأسرة معها، بالفضل في غيابك حتى لم يعد لي لسان يفي بالشكر. أما عن معارفي في حلب فأقول إني لا أعرف

أحداً غيركم. لا... الصحيح أني عرفت إنساناً آخر. إنساناً واحداً جمعتني به الظروف فأصبح لي صاحباً إذا لم أقل صديقاً.

قال الحاج: من هو هذا الإنسان؟ لعلي أعرفه. أحب أن أطمئن إلى أنك في صحبة تناسبك.

كانت دلال وأمها في هذه الأثناء قد عادتا إلى البهو واتخذتا مجلسيهما فيه. فقال أنور، كالمتردد في تسمية الأستاذ شكيب أمام أسرة الحاج نعمان:

ـ إنه محام جمعتني به سيارة البولمان في أول قدومي من دمشق في طريقي إلى مقر عملي. ترددت على مكتبه أكثر من مرة لأنه يلح عليّ في أن ألقاه في المهمات التي تجيء بي إلى حلب. الحق أني أفدت من معرفته بالناس وبالأمور، هنا وفي مركز وظيفتي. وجدته رجلاً مثقفاً وكريماً. إنه المحامي الأستاذ شكيب مجد الدين.

وسكت أنور، بعد نطقه باسم المحامي، مترقباً تعليق الحاج نعمان. ظل هذا ساكتاً. إلا أنه توجه بنظرة سريعة إلى زوجته التي بادلته بنظرة مثلها. بل إن دلال، على ما لاحظ أنور، تطلعت إلى خطيبها عند سماعها اسم المحامي، وحدجته بنظرة خاطفة ومتسائلة قبل أن تلتفت إلى أمها التي غيرت الحديث بقولها:

ـ العشاء جاهز يا أبا ربيع. اسبق أنت والشباب، واسمح لي بدقيقة لا بد لي منها في المطبخ.

نهض الحاج نعمان من مقعده وهو ملازم صمته، وأخذ بيد أنور متجهاً به إلى غرفة الطعام، تتبعهما دلال ووراءها خطيبها ثم ربيع. وفي انتظار أن تلحق بهم السيدة شاهناز، توزعوا على كراسي المائدة وجلسوا دون أن يتلفظ أحدهم بكلمة.

مرت دقائق كثيرة والسكوت مطبق على الحاضرين. وحتى حين جاءت ربة البيت وأخذت تعيد ترتيب الآنية الملأى بأصناف الطعام، وكانت تأتي بها واحدة بعد الأخرى خادم شابة مليئة الجسم، تأتزر بمريلة بيضاء، حتى حينذاك لم يكن يسمع غير قرقعة الملاعق على الصحون أو صوت انصباب الماء في الكؤوس. أحس أنور بأن جواً ثقيلاً قد خيم على المائدة، مناقضاً جو الحديث المقطع بالضحكات الذي كان سائداً قبل قليل في قاعة الاستقبال. وفجأة، ارتفع صوت الحاج نعمان يقول لأنور، وكأن كلماته صدى لآخر ما تلفظ به هذا في حديثه:

ـ الأستاذ شكيب مجد الدين!

بعد السكوت الطويل كاد النطق باسم المحامي صاحب أنور يجعل هذا يجفل. إلا أنه تماسك وقال، وهو منحن بوجهه على صحن ملأته ربة البيت، بدون أن تستشيره، بكومة أرز كلَّلتها قطع من اللحم المحمّر:

ـ نعم يا عمي. الأستاذ شكيب مجد الدين. على الرغم من مرات زيارتي القليلة له في مكتبه تبين لي أنه محام ناجح، كما أن أحاديثه أوحت لي بأن الكفاءة للنجاح لا تنقصه.

قال الحاج نعمان: أنا أعرف الأستاذ شكيب، ويعرفه كثيرون. من لم يعرفه بشخصه سمع به دون شك. أنت زرته في مكتبه، هل... هل...

لم يتم الحاج جملته. كانت السيدة شاهناز قد أخذت في هذه الأثناء مكانها حول المائدة، فقاطعت زوجها، أو أنها أكملت تساؤله، قائلة:

ـ أظن عمك يريد أن يقول لك: زرته في مكتبه، فهل دعاك إلى... بيته؟

بدا السؤال غريباً لأنور. إلا أنه تجاوز الغرابة وأجاب بقوله:

ـ بيته؟ الصحيح أن الأستاذ شكيب لم يقصر في الدعوة. قال لي إنه يريد أن يعرفني على أولاده. ولكن إقامتي في البلد هنا دوماً قصيرة، ومشحونة بالعمل، فما أتيحت لي الفرصة لذلك.

ساد السكوت مرة أخرى جو غرفة المائدة. ومرة أخرى أحس أنور بأن شيئاً ما يثقل ذلك الجو، مصدره ذكره لمعرفته بالأستاذ شكيب مجد الدين. فالسؤال الغريب الذي ألقته السيدة شاهناز عليه، وتلاحظ الزوج وزوجته والخطيب وخطيبته عند تسميته للمحامي يوحيان بأن ثمة ما يدعو جميع أفراد الأسرة إلى الاهتمام بالرجل، وإلى الاهتمام بالعلاقة التي تربطه هو، أنور به.

من جديد مزّق الحاج نعمان السكوت المهيمن على المائدة بأن قال، معلقاً على ما قاله أنور:

ـ لم تتح لك الفرصة! ربما كان هذا أدعى إلى راحتك وهدوء بالك يا ابن أخي.

لم يفهم أنور ماذا قصد الحاج نعمان بهذه الكلمة. ترى أي ازعاج لراحته في زيارته لبيت الأستاذ شكيب وتعرفه على أسرته؟ تساؤل دار في ذهنه ولم يجد الجرأة على طرحه على الحاج. غير أن فتاة الدار، دلال، تدخلت في الحديث بما ظنه في الأول رداً على هذا التساؤل ثم تبين له أنه زاد في غموض الجواب عليه. قالت دلال:

ـ أنت يا أبي تجور على المسكين شكيب. إذا صحت أقوال الناس، فما ذنبه هو؟ وإذا لم تصح كنا كّلنا ظالمين له، وأولنا أنت يا أمي.

قالت الأم محتجة: أنا يا دلال؟

فتدخل الخطيب مدافعاً عن خطيبته، أو مخففاً من عتب أمها عليها، قائلاً:

ـ بنتك يا امرأة عمي، على الرغم مما تظن نفسها عليه من ذكاء، بسيطة الأفكار. الناس عندها كلهم ملائكة أبرار، وقالة السوء على أي إنسان تعتبرها شائعة ظالمة. في اعتقادها أن ما يروونه عن أسرة شكيب مجد الدين هو أمر من هذا القبيل.

قالت السيدة شاهناز: أتمنى على الله أن يصح اعتقاد ابنتي وأن أكون أنا المخطئة. وإنما واجبنا أن نحذر أنور بك على كل حال.

«يحذرونني ممّ وممّن؟» هكذا قال أنور في سرّه، ولم يرفع به صوته. انتظر أن يستمر الحديث في هذا الاتجاه ليتضح له ما هو خاف عليه من الموضوع. غير أن الحاج نعمان تحول به بعض الشيء حين قال، موجهاً إليه الكلام:

ـ إذا كنت جئت على ذكر صداقتي لوالدك أمام شكيب فلا بد أن يكون حدثك عني. ألم يفعل؟

لم يملك أنور أن يحبس ابتسامة خفيفة عن الارتسام على شفتيه. تذكر ما حدثه به المحامي عن أسفار الحاج نعمان ومكاتب عمله المتعددة وعن سكرتيراته الكثيرات، وربما زوجاته، في مختلف الأقطار والبلدان. إلا أنه لم يجد مناسباً أن يعيد ما قاله على سمع الحاج وأسماع أفراد أسرته. وحين لم يرد أن يكذب فينكر تحدث الأستاذ شكيب عن مضيفه إليه، اكتفى بأن قال:

ـ بلى. حدثني في الواقع يا عم عن نشاطك الكبير كرجل أعمال وعن سعة دائرة علاقاتك التجارية وتوزعها في أنحاء العالم. إنه يقدرك كثيراً من هذه الناحية.

اتسعت ابتسامة الحاج نعمان قبل أن يقول:

ـ أصدقك. من هذه الناحية أعني. إنه على اطلاع جيد على نشاطي في الأعمال.

قالت زوجته: وكيف لا؟ لقد ظل وكيلك القانوني سنوات طويلة.

قالت ابنتها: وكان وكيلاً قديراً. ولكنك أنت يا أمي من طلب من أبي أن يعطي توكيلاته إلى محامين آخرين ليسوا في كفاءة شكيب مجد الدين.

وهنا تدخل الفتى ربيع، وكان طول الوقت مكتفياً بالاستماع إلى الحديث الدائر، فقال وهو يمسح فمه بالفوطة دليل اكتفائه من الطعام:

ـ أما أنا فلم أبدله بوكيل آخر في الدعوى التي أقمتها على شركة المرفأ. إني أثق بهذا المحامي كل الثقة. ماذا يعنيني بما يجري في بيته؟

قال الحاج نعمان، وهو يضع كفيه أمامه على المائدة علامة انتهائه من الأكل:

ـ أراكم ضدي في ما كنت أريد قوله عن شكيب. سأسكت. لا أحب أن يأخذ ابن أخي علي ما يعتبره غيبة بحق إنسان عرفه وأعجب به. ولكني واثق من أنه، حين تحدث عني لم يكتف بالثناء على نشاطي في ميدان الأعمال وعن سعة دائرة علاقاتي. أليس هو الذي كان وراء شائعة زواجي بسكرتيرة لي في مدينة زوريخ،

وبأخرى في لندن؟... ذلك ما جعل أمكم تركب الطائرة دون أن تعلمني فتضبطني متلبساً، وقت العشاء، بصلاتي إماماً لمجموعة من المسلمين الباكستانيين والزنوج في مسجد ووكنج قرب لندن...

ارتفعت أصوات الحضور بالضحك لكلمات الحاج نعمان، بينما نهض هو عن المائدة وهو يضيف:

ـ قوموا إلى الطاولة الأخرى حيث كومت لكم أم ربيع الفواكه والحلوى. أتنكرين ما قلته يا أم ربيع؟

ردّت السيدة شاهناز، وهي تسبق زوجها والآخرين إلى المائدة الأخرى:

ـ وما يدريني يا أبا ربيع؟ لعل وكيلك القانوني في تلك الأيام، أعني الأستاذ شكيب، أرسل إليك رسالة بالتلكس يخبرك بها بأني حصلت على جواز سفر وتأشيرة دخول إلى انكلترا، فطلقت امرأتك الانكليزية وواظبت على الصلوات الخمس في بلاد الكفّار! تفضل يا أنور بك، ولا تسمع لكلمات عمك.

واستدار الجميع حول الحلوى والفاكهة، فانتقى كل منهم ما اشتهاه، ثم عادوا إلى بهو الجلوس، كل صحنه في يده. عند ذاك وقفت السيدة شاهناز في وسط البهو واتجهت إلى أنور متحدثة إليه، مستعينة في تأكيد حديثها بحركة يدها الحاملة للسكين، ومبتدئة بهذه الكلمات:

ـ عمك، ومثل عمك دلال وسهيل وربيع، يدورون بالحديث ولا يقولون لك ما يجب قوله. أظنك تتساءل عن واجبنا في تحذيرك، تحذيرك من ماذا؟ أنا أقول لك...

وراحت تتبسطُ في ذلك القول.

- ٨ -

من أنور إلى سميرة

عزيزتي الحبيبة:

أكتب إليك من المركز. الآن وصلت إليه. أو لأَقُلْ منذ أقل من ساعتين. لم أفتح حقيبتي بعد، ولم أخرج منها حتى الآن ربطة العنق التي أهديتني إياها. أظنها ستظل حبيسة الحقيبة إلى أن أعود إليك، أو على الأقل إلى أن أعود إلى حلب فأربط بها رقبتي مزهواً بها. ففي قريتنا الصغيرة هذه وفي القرية الكبيرة، أعني البلدة المجاورة، لا مكان لهذه التحفة الحريرية الزاهية التي قلت إنك تريدينني أن أتذكرك بها.

أتذكرك؟! كأني في حاجة إلى ذلك. فها أنت ترين، والربطة لا تزال في زاويتها من الحقيبة، أني أبادر إلى الكتابة إليك، لا لأقول لك أنني لم أنسك بل لأذكرك أنا بنفسي.

ابتسمي كما تشائين ولا تستغربي استعجالي في الكتابة إليك. منذ ليلة البارحة، واليوم على طول الطريق بين حلب والمركز رقم ٦، تجول في بالي خواطر أشعر بأنها تخز وجداني وتدعوني إلى أن أتحدث عنها إلى من يفهمني. ومن غيرك؟ أنا وأنت، وأنت على ما أحسب أكثر مني، لا نزال مخلوقات ساذجة، مخلوقات «خاماً» كما يقولون. لم نخالط الناس بالقدر الذي يعرّفنا بأحوالهم ويوقفنا على مشاكلهم، وعلى مآسيهم بصورة خاصة. تبين لي البارحة هذا بصورة جلية. تبين لي بعد عشاء تناولته في منزل صديق والدي الحميم الحاج نعمان. أعقبت ذلك العشاء سهرة طويلة عدت منها وقد ملأت تلك الخواطر الواخزة نفسي فدفعتني إلى أن أتناول القلم حال وصولي إلى غرفتي في المركز فأخط لك هذه السطور.

أعرف. ستهزين إصبعك أمام صورتي بين صفحات الرواية التي تقرأينها في هذه الأيام وتقولين إذن ليس هو الشوق الذي دعاك إلى الكتابة إليّ! هذا إذا لم تستنكري مني العشاء في دار الحاج نعمان وتتساءلين عن فتاة الدار وأمها، ماذا كانتا ترتديان وماذا قالتا وماذا قلت لهما. لا تستعجلي. ستسمعين مني أشياء كثيرة عن عمي الحاج، وعن زوجته الفاضلة وابنته الشاطرة، وعن ابنه وصهره المقبل كذلك. إنما احلمي عليّ، ودعيني أنفض إليك كل الأفكار التي تجول في خاطري وأكاد أقول عنها إنها تعذبني.

كان لا بد لي من البقاء في حلب يوماً كاملاً قبل أن آخذ الآلية المعهود إليّ إعادتها إلى المركز. وكان لا بد لي كذلك من أن أتصل بدار الحاج نعمان حسب وصية والدي لي، وأن أقابل هذا الرجل ما دام قد حلّ أخيراً في حلب بعد غياب طويل عنها. رجل كريم، وليس هو وحده الكريم. فأسرته كلها أحاطتني برعايتها وبلطفها الذي أخجلني وأحرجني وجعلني أخشى من أن تعدّ تساؤلاتي حول ما سمعته من أفرادها تشككاً بصدقهم أو طعناً بأحكامهم.

أعجبني الحاج نعمان واطمأن قلبي إليه ساعة ما رأيته. كيف لا وهو صديق أبي وعشيره، وطالما حدثني عن طباعه الحميدة وأخلاقه المستقيمة. أول ما وقع نظري عليه أوحى منظره إليّ بما يصدّق ما أخبرني أبي عنه. ومع ذلك... ومع ذلك، فإن أطرافاً من حديثه على مائدته الشهية هي التي بعثت إلى تفكيري بالخواطر التي اشتكيت إليك منها.

ماذا كان ذلك الحديث؟ الصحيح أن الكلام الذي قيل على المائدة لم يكن كلام الحاج نعمان في أغلبه، بل كان كلام السيدة زوجته. غير أن الحاج هو الذي فتح قريحة حرمه المصون بالأسئلة التي

طرحها عليّ، فأعادت هي على مسامعي كل الأخبار التي تدّعي أنها تدور في البلد عن صديقي الذي أحببته والذي أفادني بوصاياه وأحاطني بعطفه، المحامي شكيب مجد الدين.

نعم كان حديث السيدة شاهناز في أغلبه عن صديقي المحامي. عنه وعن الامرأة التي هي أم أبنائه، أعني زوجته التي هي في عصمته الآن. هي في عصمته على الرغم من معرفة زوجها، كما تجزم السيدة أم ربيع، بما يحيط بسمعتها من شبهات وما يدور حولها من أقاويل. ماذا أقول لك؟ كان قلبي يتفطر شفقة على الأستاذ شكيب، وأنا أسمع زوجة الحاج نعمان تفصّل في رواية وقائع وتسمي رجالاً بأسمائهم وتعين أماكن بمواقعها، في الأخبار التي ترويها عن تلك المرأة.

آه، كم نحن بسطاء، في تفكيرنا وفي أحكامنا على الناس. بسطاء حتى السذاجة يا سميرة. كنت أحب أن أحتفظ للأستاذ شكيب، في نفسي، بصورة الرجل الشهم اللامع الذكاء، النافذ الرأي والمقدّر المكانة في الهيئة الاجتماعية. ولكن حديث العشاء حول تلك المائدة أنزله من المنصة التي كان يعلوها في نظري ليبدو لي زوجاً خانعاً، ذليلاً، يطلع على سوءات سلوك زوجته ويسكت عنها ويحتفظ بها في داره. لا أقول إني احتقرته، وإنما رثيت له. وفي الوقت نفسه تزعزعت في نفسي الثقة بكثير مما سمعته منه فبنيت عليه أحكاماً جازمة لثقتي بالمتكلم عنه. تزعزعت وأنا أستمع إلى السيدة شاهناز وهي تفصّل في حديثها ملحة وجازمة.

ولكن... قلت لنفسي في لحظة من اللحظات، وأنا أستمع إلى زوجة الحاج نعمان وهي تعدد وتردد، قلت لنفسي لماذا تصرّ هذه السيدة الفاضلة على الإفاضة في الكلام عن هذه الأمور المستنكرة

أمامي؟ خيّل إليّ أنها كانت تجد لذة في هذه الإفاضة التي ما وجدت أحداً يقاطعها فيها. زوجها، صديق أبي، كان يستمع إليها ساكتاً، مثلي أنا في سكوتي، وفي تشاغلي بازدراد لقمة الطعام، بين الحين والحين، كيلا أجيب على أسئلتها لي وهي تقول: هل فهمت يا أنور بك؟ هل تصدق يا أنور بك؟ بينما كان ابنها ربيع يطلق قهقهة قصيرة لإحدى تعليقات أمه التي تريدها ضاحكة، وكان صهرها سهيل يجيبها بالإيجاب على الأسئلة التي لا أجيب أنا عليها. وحدها فتاة الدار، دلال كان يبدو عليها أنها غير مستريحة إلى ما تتكلم به أمها. قاطعتها مرات مشككة بالظنون التي تصر أمها على أنها حقائق، مذكرة بأن بعض الظن إثم. وحين وجدت أن مقاطعتها وتشكيكها لم يدعوا والدتها إلى السكوت، راحت تتشاغل بالعودة إلى المائدة الجانبية المثقلة بالفواكه وبصحون الحلوى، فتغادر مجلسنا مبتعدة عن حديث لم تستطبه ولم تستطع إيقافه.

الصحيح يا عزيزتي أن أحاديث عشاء البارحة ألقت غلالة قاتمة على تقديري للأستاذ شكيب مجد الدين، وغيرت من نظرتي إليه. ليس وحده التي خيمت على تقديري له تلك الغلالة. السيدة شاهناز نفسها... أحسست بأن ما أساءت به إلى صديقي المحامي بتلك الطريقة من الكلام أساءت به إلى نفسها أيضاً. أين تلك الروح النقية التي كنت أراها لها من خلال ترحيبها بي وأحاديثها لي عن الناس والأشياء وفي استشهادها بأبيات منتقاة من الشعر القديم؟ وأين شفافية نفسها ورقة حنوها عليّ أنا حين كانت تخاطبني معتبرة إياي ابناً لها؟ لا، لا أريد لأمي أن تتحدث عن الآخرين، حتى لو كانوا سيئين أو فساقاً، بتلك الطريقة وبتلك

التعابير والمفردات. ومن حسن الحظ أن الحاج نعمان لم ينبس بكلمة تأييد أو تصديق أو تشجيع لزوجته. أحسبه لو فعل لأصاب منزلته في نفسي من السوء ما أصاب منزلة تلك الزوجة.

عزيزتي، أطلت عليك. كان لا بد من أن أزيح عن صدري ثقل هذه الخواطر التي نغصت آخر ليلي عليّ، وظلت تتلاطم في وجداني إلى أن وصلت إلى غرفتي. أحسبك الآن، بعد أن أفرغت أمامك ما في جعبتي من كلام، تضحكين مما قلته وتسخرين من هشاشة حسي وكثرة أوهامي. ليكن. إني على كل حال شرحت لك ما أزعجني واسترحت. أقبلك... ألا يجوز هذا؟

أنور

حاشية لا بد منها: عدت إلى قراءة ما كتبته فوجدتني أتصور أنك ستسألينني عما كانت ترتديه السيدة شاهناز من ملابس في حفلة العشاء. حسناً. سأصف لك التغير العجيب الذي رأيته حلّ بمظهرها تلك الليلة. لم تكن ترتدي واحداً من الفساتين الأوروبية المنشأ، مما كنت أراها ترتديها في المرات السالفة، كل فستان آنق نسجاً وتفصيلاً وأغلى ثمناً من سابقه. كان عليها ثوب طويل يصل إلى القدمين ووشاح يستر شعرها كأنه حجاب شرعي. لم أر زيها الجديد أخفى شيئاً من جمال تكوينها، بل زادها، في أول رؤيتي لها فيه، صفاء وشفافية. في الأول أقول. وحين تحدثت بأحاديثها تلك في آخر العشاء بدا لي التناقض كبيراً بين الصفاء الذي أوحاه زيها والكدر الذي غصت به أحاديثها. صدقيني أن هذا كان إحساسي. لعلك تسرّين بهذا الذي أقوله، أو لعلك تشمتين. ما الذي أستطيع أن أفعله؟ لا يمكنني إلا أن أقول الصدق، وأن أروي لك كل شيء. قبليني، أرجوك.

- ٩ -

- «راح العيد وأكلاته، وجاء الشيخ وقتلاته»!

هذا أول ما استقبل به الأستاذ صبحي المهندس أنور حين دخل عليه غرفة مكتبه في المركز رقم ٦، في صباح يوم السبت أول أيام الأسبوع التالي لأسبوع العيد. كانت على شفتيه ابتسامة عريضة تنبيء عن سروره بلقاء الفتى بعد غيبة الأيام القليلة الماضية. صافحه أنور بحرارة وقال:

- تأخرت عليك. لم أستطع تسيير الكريدر يوم وصولي إلى حلب، إذ لم أجد مسؤولاً معتمداً في رحبة المؤسسة هناك في ذلك اليوم.

قال الأستاذ صبحي بعد أن جلس قربه على كرسي إلى جانب المنضدة:

- لا عليك. جحش العيد، واليوم الذي بعده ثم يوم جمعة بعدهما... أشياء منتظرة. ماذا في هذا الكيس الذي في يدك؟ الناس عندنا يقولون للقادم من السفر: لا نريد مما أكلته، نريد مما حملته...

فمد أنور يده إليه بعلبة مستطيلة أخرجها من الكيس، مغلفة بورق ملون، وقال:

- هذه ليست مني. إنها من سميرة، خطيبتي، إلى السيدة أم منير، مع كل تحياتها لها.

قال الأستاذ صبحي، وابتسامته لا تزال تملأ وجهه، بعد أن تناول العلبة المستطيلة:

ـ ما شاء الله. تصادقت الفتاة وامرأة عمها من وراء ظهور الرجال. ما مناسبة هذا الإكرام؟

أجاب أنور: حدثتها بالتفصيل عما كنت كتبته إليها مختصراً عن حسن رعايتها لي وتلطفها بي يوم تناولت الغداء في منزلك العامر. أخبرتها، بصورة خاصة، عن قراءتها لحظي في الفنجان وما عدّدته من صفات ممتازة لخطيبتي ودعائها لنا بعرس سريع وزواج سعيد.

قلب الأستاذ صبحي العلبة بين يديه دون أن يحاول فض الورقة المغلفة بها، ثم فتح درجاً في المنضدة بجانبه وألقاها فيه، وقال:

ـ لم تخبرني بالذي فيها. ستجدها أم منير مناسبة لتدعوك مرة أخرى إلى تناول أطايب ما تطبخ يدها.

قال أنور: فضلها سابق. أعتقد أن في العلبة إيشارب، وشاحاً ملوناً. أمور السيدات فيما بينهن لا دخل لنا نحن فيها.

قال الأستاذ صبحي: إذن فالشكر يتوجب على أم منير وليس عليّ. أعود فأقول لك «راح العيد وأكلاته، وجاء الشيخ وقتلاته». أول القتلات ستعرفها من مقابلة شيخ مركزنا، سيادة مديرنا العام فياض بك.

قال أنور متسائلاً: مقابلة المدير؟ هل طلب أن أقابله؟ كأنك تتوقع أن لي عنده قتلة.

ـ هل أخفتك؟ أولاً، المقابلة لا بد منها بعد العيد. العادة جرت بأن يهنىء المرؤوسون رؤساءهم في أول أيام الدوام. نحن قمنا بالواجب أول أمس، وعليك أنت أن تقوم به اليوم. ثانياً، القتلة المهيأة بعد أكلات العيد ليست لك. إنها للسيد الفاضل أمير غزلان.

قال أنور: أرحتني. كأنك تحدثت مع سيادة المدير العام بشأن أمير غزلان.

قال صاحبه: لم أعلمه بالكثير. أشرت إلى الموضوع وهيأته لأن يتلقى التفاصيل منك. لا تقل لي أن ليس عندك تفاصيل. يكفي أن تخبره بحكاية الحاجز واللوحة التي ادعى زوراً بأنها أقيمت بأمر من رئيس مصلحة الآليات، الذي هو أنت. والباقي يأتي. الباقي اتركه لي أنا عمك. تفضل وتوجه إلى مكتب المدير العام. لا تنس أن الآنسة أسمهان ستراك قبله. لا تعبس في وجهها لئلا تحتج بأن معلمها لا يستقبل أحداً اليوم.

قال الأستاذ صبحي هذا وربت على كتف أنور وكأنه يدفعه في اتجاه مبنى الإدارة العامة. لم يجد إلا أن يمتثل إلى ما أراده منه، إذ لا بد مما ليس منه بد.

في هذه المرة أحدّ أنور النظر إلى الفتاة التي استقبلته في غرفة الانتظار المفضية إلى مكتب الأستاذ فياض، سكرتيرته الآنسة أسمهان. قال في سره أن أبا منير ما تجاوز الحقيقة حين وصفها بالجمال منذ أيام، عندما ذكره بها. على الرغم من نعومة قدها وقصر قامتها، كان وجهها جذاباً للنظر بتناسب تقاطيعه ونقاء بشرته. وكانت عيناها بصورة خاصة تتألقان بنظرة توحي بالحيوية والذكاء. مدت يدها لتصافحه وقالت:

ـ أهلاً بالأستاذ أنور. كل عام وأنت بخير. تأخرت علينا فلم نرك أتيت مع زملائك.

قال لها: كل سنة وأنت سالمة وبكل خير يا آنسة. أنا آسف لتأخري في التهنئة بالعيد. كنت في مهمة تسيير آلية كريدر من حلب فتأخرت. لعل السيد المدير العام غير مشغول الآن...

قالت والابتسامة تعلو شفتيها الدقيقتين، ويدها على أكرة الباب المتصل بمكتب المدير العام:

ـ إنه لا يزال يستقبل المهنئين. تفضل وادخل. سيرحب بك بلا شك.

وأغلقت الباب وراءه بعد أن دخل.

كان أمام الأستاذ فياض، الذي كان واقفاً وراء منضدة مكتبه بقامته الطويلة وشعره الأشيب المنحسر عن مقدمة رأسه، موظفان يتهيآن للخروج. صافحهما المدير العام ثم مد يده من وراء المنضدة ليصافح القادم الجديد، أنور. ردد هذا عبارات التهنئة المعهودة، فأجابه الأستاذ فياض بمثلها وأضاف، وهو يجلس على كرسيه، قائلاً:

ـ مرحباً يا مهندس أنور. منذ يومين حدثني الأستاذ صبحي عن زيارتكما لمصنع الزيوت والأرض المحيطة به، وروى لي كيف أوقفت أنت ذلك الرجل عند حده. تفضل وقرب كرسيك. لا تبعد عني.

قال أنور في سره، وهو يقترب بمقعده من مجلس مديره العام: «هذه واحدة من فعلات أبي منير... هل أنا الذي أوقف الغزلان عند حده أم هو؟» كاد لسانه ينطلق بكلمة يصحح بها توهم رئيسه، غير أنه تمالك نفسه خيفة أن يفسد ما يدبّره صاحبه، وقال:

ـ شكراً سيدي. كان لا بد أن نفعل هذا، الأستاذ صبحي وأنا، لنبين للسيد أمير غزلان أن تجاوزاته لا تمر على الإدارة بسهولة.

قال المدير العام: وأريدكما أن لا تكتفيا بتحذيره. يبدو أنه مارس

تحايلاً على بعض المراجع الرسمية فباع بعض المديريات أرضاً بسعر غير معقول... سعر باهظ حمّل الدولة خسارة كبيرة. هل صحيح أنك وجدت ثغرات في معاملة البيع نستطيع أن نصل منها إلى فسخها أو، على الأقل، إعادة تقدير ثمنها في الحدود المعقولة؟

أحس أنور بالحرج. ظاهر أن الأستاذ صبحي أوهم المدير بأنه، هو أنور، قائد الحملة على أمير غزلان وأنه اكتشف ما يمكنه به قهره. في حين أن العملية كلها هي عملية الأستاذ صبحي بذاته. كان عليه أن يجيب على السؤال المطروح عليه دون أن يكشف اللعبة، فلم يجد غير أن يقول:

ـ الصحيح أن التلاعب في عملية البيع والشراء واضح يا سيدي. باع هذا الرجل مديرية الصناعة الزراعية بمائة وست عشرة ليرة المتر المربع من أرض اشتراها منذ شهور قليلة بثمانية عشر قرشاً للمتر الواحد. اشتراها من فلاحين مساكين اسمهم السياد. وفوق ذلك...

وهنا قاطعه الأستاذ فياض بقوله:

ـ صحيح. ذكرتني. هؤلاء الذين سميتهم السيّاد جاؤوني يشكون ويبكون من أنهم منعوا من المرور في طريق عام مجاور لمصنع الزيوت الذي يملكه هذا الرجل.

قال أنور: نعم يا سيدي. وهذا ما كنت أريد أن أعرضه لكم. ثم إن هذا هو الذي دعانا إلى الذهاب إلى أرض السيد أمير غزلان للكشف على الطريق موضوع الشكوى. رأينا الأرض والمصنع الذي يقوم بنيانه على قسم منها. كنت أتمنى أن تكون معنا يا سيدي لترى بعينك المكتب الذي يدير منه هذا الرجل أعماله. ليس لنا اعتراض على فخامة ذلك المكتب وما يحتويه من رياش ثمين

لولا قناعتنا بأن البذخ فيه قائم على ما ابتزه حراماً من خزينة الدولة، بطريقة أو أخرى، وعلى ما تحايل به على أولئك الفقراء البسطاء، السياد.

قال الأستاذ فياض: مثل هذا الرجل يجب أن لا يسكت عليه. نحن نعتمد عليك في وضع الأمور في نصابها. وستجد مني ومن المراجع العليا كل دعم لإنصاف هؤلاء المظلومين ولردع كل من تحدثه نفسه بالتحايل على الصالح العام بسرقة مال الدولة. أنا في انتظار تقرير مفصل عن هذا الموضوع منك.

قال الأستاذ فياض هذا وقام من وراء المنضدة مادّاً يده لأنور. شدّ هذا على الكف المدودة إليه مودعاً، واستدار خارجاً من الباب المشترك إلى غرفة السكرتيرة، الآنسة أسمهان، في طريقه إلى مكتب الأستاذ صبحي في البناء المقابل بعد الساحة. إلا أن الفتاة لم تترك له أن يسرع في مغادرة حجرة مكتبها. رآها تعترض طريقه مبتسمة وهي تقول:

ـ على مهلك يا حضرة المهندس. أوصيت لك على فنجان قهوة في انتظار خروجك من عند سيادة المدير العام.

وأشارت إلى فنجان قهوة على منضدة صغيرة كان صحنه مكبوباً عليه. كانت هذه بادرة من الآنسة السكرتيرة لم يتوقعها أنور، وما كان له إلا أن يتقبلها شاكراً. قال، وهو يجلس على الكرسي المقابل للمنضدة الصغيرة:

ـ أشكرك. ولكنك مشغولة، ولا أريد أن أعيقك عن العمل.

ناولته الفنجان بعد أن رفعت عنه الصحن وقالت، وهي تتراجع إلى ما وراء منضدتها:

ـ لن تعيقني عن شيء مهم. لا زلنا في عطلة العيد، والمهنئون يستطيعون أن يفتحوا باب غرفة مديرنا بأيديهم. رأيناك مرة واحدة قبل الآن عندنا. لست مثل غيرك الذين يصابحوننا ويماسوننا كل يوم، يطلبون مقابلة المدير العام ليراجعوه في توافه الأمور أكثر منهم في المهم منها.

قال أنور: حتى الآن لم يحوجنا العمل الذي نباشره إلى إزعاجكم. ولكن حذار. أخشى أن تضطرني الأيام المقبلة إلى هذا الإزعاج على الرغم مني.

قال هذا وهو يتسم، فابتسمت الفتاة بدورها وهي تقول:

ـ أهلاً وسهلاً بك في كل وقت. أسألك يا أستاذ أنور، ألم تطنّ أذنك، منذ يومين؟

رفع أنور أصابع كفه اليسرى فأمسك بإصبعين منها صيوان أذنه وقال متسائلاً:

ـ عفواً يا آنسة. لم أفهم. لماذا تطن أذني؟

فأطلقت الفتاة من حنجرتها ضحكة قصيرة وناعمة، وقالت:

ـ لأننا كنا منذ يومين نتحدث عنك. تحدثنا عنك طويلاً.

وضع أنور الفنجان من يده على المنضدة الصغيرة وسألها:

ـ كنتم تتحدثون عني؟ من الذي كان يتحدث عني؟

مرة أخرى أطلقت هي ضحكتها القصيرة الناعمة قبل أن تجيب:

ـ مالك يا أستاذ أنور؟ لا تخف. نحن لسنا مباحث ولا مخابرات. يجدر بك أن تغتبط حين تعرف أنك كنت محور الحديث عند

مجموعة نسائية، نسبة الشابات بينهن غير قليلة... شابات وجميلات يا باشمهندس!

إحمر وجه أنور لسماعه هذه الكلمات ولفحت موجة من الحرارة جبينه وخديه. لم يعرف بماذا يعلّق على ما قالته مخاطبته فظل ساكتاً، بينما أضافت هي:

ـ لعلك تحب أن تعرف أين كان الحديث عنك. كان في بيت الأستاذ صبحي، صديقك أبي منير. والمتحدثة الأولى عنك كانت السيدة أم منير.

أطلق أنور من صدره زفرة ارتياح فرّجت عنه الضيق الذي شعر به أول الأمر، وابتسم وهو يقول:

ـ السيدة أم منير! إنها وزوجها الكريم يغمرانني بعواطف الرعاية والحب ويتحدثان عني لمن لا يعرفني ناسبين إليّ صفات أتمنى لو أني تحليت بجزء منها. أخشى، من هذه الناحية، أن يصدق عليّ المثل الذي يقول: تسمع بالمعيديّ خير من أن تراه!

قالت الآنسة أسمهان: هذا تواضع يا أستاذ أنور، ومن تواضع لله رفعه.

جاء دور أنور في الضحك، فأطلق ضحكة قصيرة، تكاد تكون مفتعلة، وقال:

ـ أشكرك يا آنسة. ولكني لم أتواضع لله ولا للناس. إنما هي الحقيقة التي أريدها أن لا تغيب عن الآخرين حتى لا يصاب أحد بخيبة الأمل عند تعرّفه عليّ. ما أخشاه هو أن تكون أم منير قد زادتها في وصف محاسني الكثيرة لمجموعة النساء التي تكلمت عنها.

قال هذا وتناهض من مقعده ليقوم. وجد أن بقاءه في غرفة

السكرتيرة طال بدون مبرر جدي. إلا أن الفتاة أشارت إليه بيدها مستبقية له وهي تقول:

ـ لماذا أنت مستعجل هكذا؟ قلت لك إننا لا نزال في عطلة العيد، هنا في المديرية العامة ومثلنا كل الفروع. لم أخبرك بعد بكل شيء. لتعلم أن السيدة أم منير لم تكن وحدها المتحدثة عنك. كنا كما أخبرتك مجموعة. تحدثت الأخريات عنك أيضاً. وهنا لا بد أن أقول لك إنهن لم يكنّ كلهن من رأي أم منير في تعداد محاسنك. كنت موضع انتقاد من بعض الحاضرات.

وعلى الرغم من دعوة السكرتيرة أنور إلى الجلوس، ترك هذا كرسيه ووقف في مكانه. وقفت هي وراء منضدتها أمامه، وتضاحك هو قبل أن يقول لها:

ـ يا ويلي. أصبح لي أنصار ومعارضون في هذه البقعة النائية. ما توقعت أن أكون معروفاً إلى هذه الدرجة بين رجال المركز ونسائه. هؤلاء المنتقدات ماذا أخذن عليّ يا آنستي المحترمة؟

اتسعت ابتسامة السكرتيرة الدقيقة القد على شفتيها الرقيقتين، وهزت أصبعها باتجاهه من بعيد وهي تقول:

ـ سمّني أسمهان. ويحسن بي أن لا أخبرك بشيء عما تريده. أنت مستعجل في مغادرة هذا المكان كأنك لا تجدنا أهلاً لإضاعة وقتك الثمين عندنا.

تراجع أنور قليلاً إلى الوراء كأنه يهم بمعاودة الجلوس في كرسيه، إلا أنه ظل واقفاً وقال:

ـ العفو يا آنسة... أسمهان! ولكن الأستاذ صبحي ينتظرني،

وأحسبه استبطأني. أثرت فضولي على كل حال... فأنا أتساءل عن منتقداتي.

استدارت هي وراء المنضدة حتى وقفت أمامه، قالت:

ـ كنت أمزح يا أستاذ أنور، ولا أريد أن أحجزك هنا. أما عما قالته المنتقدات فإنه ليس بالشيء المهم. هو كلام نسوان، ولعلك تعرف ما كلام النسوان. عندما أكثرت أم منير من الثناء عليك قالت مطيعة، وهي مهندسة زراعية في قسم تحسين البذار، لا أنت تعرفها ولا هي تعرفك، قالت: ومع ذلك فإن هذا الشاب المهذب والخجول، الذي له خطيبة تقول للقمر قم لأقعد مطرحك، يقضي لياليه في السهر عند الحجيات في خيام النور...

انطلقت شهقة من صدر أنور بصورة عفوية قبل أن يقول:

ـ أنا؟!

قالت: ناقل الكفر ليس بكافر. هكذا قالت مطيعة. وفوق ذلك زعمت أنك معجب براقصة من هاتيك الغجريات، اسمها زينة، وهي معجبة بك إلى درجة أنها في الليالي التي تسهر عندها، تترك الحضور الذين يغدقون عليها مئات الليرات وتخصك أنت بهزات صدرها وردفيها وأعطافها...

من جديد احمر وجه أنور. لزم السكوت مفاجأً بهذا الذي يسمعه ومحنقاً منه في آن واحد. أضافت أسمهان:

ـ لا تظن أننا صدقنا كل ما سمعناه من مطيعة. نحن نعرف كم تسري الشائعات بين الناس هنا وكيف تتضخم ويصبح لها حواش وذيول. ومع ذلك...

كانت لهجة السكرتيرة في ما تقوله مزيجاً من الدعابة الضاحكة والسخرية الماكرة. قال أنور، مستحثاً لها لتتم جملتها الأخيرة:

ـ ومع ذلك؟

قالت وهي تبتسم ابتسامة ذات مغزى: ومع ذلك... فلا دخان بدون نار!

وقبل أن تتابع كلامها رن جرس الهاتف على منضدتها، فاستدارت وأمسكت بالسماعة دون أن ترفعها وقالت لأنور:

ـ المدير يطلبني. إذهب إلى صاحبك الأستاذ صبحي. إذا تكرمت بالعودة إلينا فسأروي لك أشياء أخرى مما دار في جلستنا عند أم منير. أشياء بعضها يعجبك وأخرى قد لا ترضيك. باي باي.

وهزت كفها بإشارة وداع وهي ترد على الهاتف قائلة:

ـ ألو، نعم. حاضر... حاضر.

وخرج أنور من مكتبها وأطبق الباب وراءه.

ـ ١٠ ـ

رفع الأستاذ صبحي رأسه عن المصنف المفتوح أمامه وما يحتويه من أوراق وخرائط وقال:

ـ ما حسبت أنك ستجد ازدحاماً عند مديرنا العام فتتأخر إلى الآن. لعله لم ينس ما حدثته به عنك أول أمس.

ألقى أنور بجسمه على الكرسي القريب من المنضدة، وأسند كوعيه على سطحها قبل أن يقول:

ـ لا يا سيدي، لم ينسَ! كأنك تعمدت أن تزجني في ورطة يا أبا منير.

ارتسمت ابتسامة عريضة على شفتي الأستاذ صبحي، وحرك رأسه وكتفه بعرته المعهودة، وقال:

ـ بل قصدت أن أضعك في المحل الذي أنت مؤهل له يا عزيزي. هذا واجبي.

قال أنور: أنت تدفعني إلى فم الذئب بقولك للأستاذ فياض إني أنا الذي أوقف ذلك الرجل عند حده. المدير العام يطالبني أنا شخصياً بمتابعة ملاحقته حتى ينال العقاب الذي يستحقه. بهذه الصورة وضعتني مواجهة أمام أمير غزلان. كان عليّ أن أقرأ لك ما كتبته لي سميرة، خطيبتي، محذرة إياي من التعرض لأشخاص من نوعية هذا الغزلان.

رفع الأستاذ صبحي يده مقاطعاً أنور، وقال:

ـ هاه... تسمع كلام خطيبتك ولا تسمع كلام عمك أبي منير!

ونقر بأصبعه على المصنف أمامه قبل أن يضيف قائلاً:

ـ في هذه الإضبارة وجدت نقطة الضعف التي منها سنطعن، أنا وأنت، أمير غزلان في خاصرته. ألم أقل لك إننا لا بد أن نعثر على ثغرة نستطيع أن نتسلل إليه منها ونمسك بخناقه عن طريقها؟

نسي أنور تذمره من إقحام صاحبه إياه في هذه الورطة، كما سماها، وتساءل بفضول:

ـ نقطة ضعف؟ ما هي يا أبا منير؟

قال أبو منير: تفضل وتطلع معي إلى هذه الخريطة التي زودتني بها شعبة التخطيط في مديريتنا. هذه قطعة الأرض المقام عليها مصنع الزيوت. وهذا هو الدرب القديم موضوع الخلاف. إنه يؤدي إلى أرض السياد في الجنوب بعد أن يخترق أرض الصناعة الزراعية ثم

أرض أمير غزلان. أقول «يخترق»، والأصح كما سترى أنه «يحاذي». في شرقي الدرب شريط من الأرض يقع بينه وبين الطريق العام الواصل بين حلب والبلدة القريبة. يمتد هذا الشريط طولاً إلى نهاية أرض السياد، وعرضه يتراوح بين عشرين وسبعة وعشرين متراً. في الأصل كان هذا الشريط ملكاً للسياد ولمن اشترى أرضاً منهم. ولكنه، منذ إقامة الطريق العام أصبح ملكاً للصالح العام، للدولة أعني، لأنه أصبح حرماً للطريق المحاذي له. الخريطة التي أمامك ناطقة بهذا. تطلع إليها.

حنى أنور رأسه على صفحة الورق الزرقاء اللون التي بسطها الأستاذ صبحي على المنضدة أمامه، وتبع بنظره الخطوط التي يشير إليها، ثم قال:

ـ ماذا تريدني أن أفهم من هذه الرسومات؟

قال الأستاذ صبحي: لست في حاجة إلى من يفهمك يا عزيزي. أريد أن ألفت نظرك إلى أن هذا الشريط الذي يفصل بين الدرب الترابي القديم والطريق العام العريض والمزفت لا يملكه أحد من المواطنين. إنه حرم الطريق العام. ملك للدولة. لا يجوز لأي إنسان أن يمد يده إليه. ولكن أمير غزلان مدّ يده فغرس فيه شتلات رأيناها بأعيننا حين مررنا بالدرب، فادّعى بذلك ملكية ليس له حق فيها.

قال أنور متمماً الجملة الأخيرة:

ـ ... واتخذها مبرراً لمنع السياد من المرور بالدرب! ولكن المفروض أن أمير غزلان اشترى الأرض من أولئك البسطاء ابتداء من غربي الطريق العام.

قال الأستاذ صبحي: الطريق العام له حرم، وهذا الحرم لا يملكه

أولئك البسطاء ليبيعوه إلى غزلان أو إلى غيره. ادعاء صاحبنا أن الدرب يمر بأرضه ادعاء كاذب من أساسه. أرضه تحاذي الدرب ولا تحتويه. أما تطاوله إلى شرقيه فهو اعتداء على الملكية العامة... اعتداء يجب أن يحاسب عليه، ويجب أن يعاقب عليه.

تراجع أنور بكرسيه إلى الوراء وتطلع إلى أبي منير بنظرة المعجب، وقال:

ـ أوافقك على أنه تصرف غير قانوني من جانب رجلنا البغيض. ولكن، هل تظنه من البساطة بحيث يعرّض نفسه للحساب والعقاب على عمل من هذا النوع؟

أجاب الأستاذ صبحي: لا تعجب. المال السائب يعلّم الناس الحرام. والطريق العام، مثل حرمه، ملك للدولة التي يعتبر أمير غزلان وأمثاله ممتلكاتها مالاً سائباً. علينا نحن، أنت وأنا، أن نثبت له خطأ هذا الاعتبار.

قال أنور، كالمحتج: مرة أخرى يا أبا منير تضعني معك في مستوى واحد. أنت الذي اكتشفت هذه الثغرة وأنت الذي ستمسك أمير غزلان من خناقه عن طريقها.

أطلق الأستاذ صبحي من حنجرته ضحكة قصيرة، واهتز رأسه مائلاً إلى كتفه اليسرى كعادته، وقال:

ـ أنا؟ نعم. ولكنك ستكون معي خطوة وراء خطوة. لا تتهرب متحججاً بتحذيرات خطيبتك. حين تعود إليها وتقص عليها ما فعلناه برجلنا البغيض، كما سميته أنت، ستقبلك من وجنتيك إعجاباً وفخراً بك.

قال أنور: الصحيح أن ما يرضيني من كل ما تقوله هو أننا نستطيع

أخيراً إرغام أمير غزلان على التنازل عن تبجحه والسماح لهؤلاء السياد البسطاء باستخدام دربهم الترابي في تنقلاتهم.

ـ لا تكن قليل الطموح يا رجل. ما دمنا قررنا مواجهة صاحبنا هذا فعلينا أن نتابع. تذكر أننا هددناه عندما اتهمناه بخداع السياد والدولة في آن واحد، هددناه بأننا اطلعنا على ما يدعو إلى فسخ عقود الشراء والبيع التي عقدها معها ومعهم...

قال أنور متسائلاً: كأنك وجدت مطاعن أخرى عليه في هذه الاضبارة...

قال أبو منير: ليس بعد. ولكنني سأجدها.

مرة أخرى تطلع الفتى إلى صاحبه بإعجاب. كانت نفسه تحدثه قبل قليل بأن يرجوه أن يعفيه من الاندفاع في معاداة هذا الرجل. ليس عن خوف مما حذرته منه خطيبته في رسالتها، بل لاعتقاده أن هدفهما كان القضاء على ظلامة السياد، وواضح أن هذا الهدف قد بلغ. فما له وللركض وراء الإضرار بإنسان يبحث عن فائدته ويبلغها بطريقة أو بأخرى؟ وهل عليه أن يصلح الدنيا، وهي على ما سمعه من الأستاذ شكيب ومن أبي منير نفسه، حافلة بكل صنوف الاعوجاج؟ إلا أنه، وهو يسمع كلمات الأستاذ صبحي ينطقها بهذا التصميم والوثوق بالنفس، استحى من نيته في ما يريد قوله. لن يكن أقل إيماناً بوجوب تقويم الاعوجاج، من أية جهة جاء، من هذا الإنسان الطيب المجرد من أي طمع شخصي. وبصورة خاصة لن يجعله يصاب بخيبة أمل حين يخذله وينسحب من مساندته بعد أن اعتبره أهلاً لأن يسير معه في مكافحة ما يثقان بأنه باطل. أمسك عن التحدث فيما كان ينويه واستمع إلى الأستاذ صبحي وهو يستوضحه قائلاً:

ـ لم تخبرني بالتفصيل عما قاله لك الأستاذ فياض وما قلت له. لا بد لنا من إشارة خضراء منه، ثم من دعمه، ليسهل علينا الوصول إلى ما نريده.

قال أنور: من هذه الناحية أظن أن لك أن تطمئن. فهمت من كلامه أنك أحسنت تهيئته للموضوع. كان متحمساً لملاحقة أمير غزلان فألح عليّ بإعطائي التقرير الذي يدينه ليتولى هو الأمر نفسه.

قال الأستاذ صبحي: بديع. يجب أن نضرب الحديد حامياً، ونغتنم فرصة هذا التحمس. هؤلاء أصحاب المراتب العليا لا يثبتون على قرار. إنهم يبدلون رأيهم بأسهل مما يبدلون قمصانهم. لا سيما وأن غريمنا الغزلاني، على ما سمعت، قصد العاصمة مصحوباً بمحاميه. لم يرجع حتى البارحة إلى مكتبه الشاهاني.

ضحك أنور وقال: يبدو أنك لم تكتف بنبش رفوف شعبة التخطيط عن خرائط أرضه، بل بثثت العيون حوله لترصد حركاته. من أخبرك بأنه لا يزال في العاصمة؟

ردّ أبو منير بقوله: لو أنه رجع لرابط منذ الفجر التالي لعطلة العيد في مكتب الأستاذ فياض ليكون أول المعايدين. سألت عنه الآنسة أسمهان فأجابتني بأنها لم تتصبح بعد بوجهه الكئيب.

هتف أنور: الآنسة أسمهان؟ فتاة لطيفة حقاً. بالمناسبة، لقد نقلت لي مما يدور على ألسنة زميلاتها كلاماً أخجلني.

تساءل الأستاذ صبحي: كلاماً أخجلك؟ أنت لا تستحق هذا. في أي موضوع، وبأية مناسبة؟

تردد أنور قليلاً قبل أن يعيد على مسامع صاحبه ما أخبرته به

سكرتيرة المدير العام عما تتناول به زائرات أم منير سيرته من أحاديث. قال الأستاذ صبحي وهو يضحك:

ـ هكذا إذن؟! أصبحت يا ابن أخي حديث المنتديات النسائية في مركزنا. أليس يسمونها هكذا في العاصمة وفي المدن الكبيرة؟... منتدى امرأة عمك أم منير! هي المسؤولة دون شك عما تتحدث به عنك البنات. سأنقل لها اليوم استياءك مما يدور في ندوتها.

بادر أنور بالقول: لا، أرجوك. أنا لا ألقي اللوم عليها بشيء. وإنما...

قال الأستاذ صبحي مقاطعاً له: إنما ماذا يا أنور؟ قلت إن كلام الأوانس عنك أخجلك. ليس في هذا ما يخجل يا عزيزي. إنه كلام نسوان، جعجعة من غير طحن. هذا أولاً. وثانياً، بماذا تريد لهؤلاء البنات المقذوفات إلى آخر ملك الله، أعني إلى مركزنا المجدب القاحل، من بلدانهن حيث الماء والخضرة والحياة الصاخبة، بماذا تريدهن أن يقطِّعن أوقاتهن في أماسيهن وسهراتهن؟ إنهن يقطعنها بالكلام عنك وعن أمثالك. وإذا قلت إن أم منير مسؤولة، فذلك لأني أعتقد بأنها من كثرة الثناء على خطيبتك ووصفها لهن بالجمال والكمال أثارت غيرة البنات المحرومات من المحبين، أو المبعدات عن محبيهن، فتكلمن بما تكلمن به.

قال أنور بمكر: إذا كان هناك مسؤولية في هذا الموضوع فهي عليك أنت يا أبا منير. أنت الذي ظللت تصفني بما ليس فيّ أمام السيدة حرمك، مثلما تفعل أمام مديرنا العام، حتى انتهينا إلى هذا وذاك.

قال الأستاذ صبحي، متظاهراً بالتنهد: شيء واحد أخشى عليك منه يا ولدي يا أنور، ولا سيما بعد أن تستلم أم منير هذا الوشاح هدية من الآنسة سميرة...

قال أنور متسائلاً: تخشى عليّ؟ من ماذا؟

أجابه بقوله: الغيرة والحسد يدفعان إلى أغرب الأمور. سيطلق هذا الإيشارب لسان أم منير بمدح الآنسة سميرة والتحدث عن جمالها ورقة طباعها بما يملأ قلوب بعض سامعاتها من البنات حنقاً. لا أستغرب إذا ما حاول بعضهن الإفساد بينك وبين خطيبتك.

قال الفتى: أنت تمزح يا معلمي. ليس معقولاً أن تصل الأمور إلى هذه الدرجة. ثم إن سميرة في دمشق، بعيدة، لا تصل إليها التقولات، وإذا وصلت إليها فهي لا تصدقها.

قال أبو منير: صحيح. ربما كنت أمزح. أو أنه مجرد تخوف مني. ليس الغيرة وحدها. قد يدفع حب العبث بواحدة من هذه الفتيات إلى أن تنقل إلى خطيبتك حديث الحجية التي اسمها زينة. وتأمل ماذا ستخلق هذه الحكاية في نفس الآنسة سميرة من وساوس...

ابتسم أنور وهو يسأل صاحبه: هل هو تخوف منك يا أبا منير أم محاولة لتخويفي؟

فردّ عليه قائلاً: مكر النساء يا عزيزي، وإن مكرهن لتزول منه الجبال. أعرف صاحباً لي أفسدت بينه وبين خطيبته رسائل كانت ترد إلى الخطيبة من فتاة كانت تدّعي فيها بأنها على صلة عشق بالخطيب. لم تتورع تلك المدعية عن التصريح باسمها للخطيبة، قائلة إن تلك الصلة لا تزال مستمرة!

لم يعلق أنور على ما سمعه إلا بهزة من رأسه تفيد، مع الابتسامة الساخرة التي ظلت مرتسمة على شفتيه، بأن هذا الكلام ليس منطقياً وأنه لا يحمل على محمل الجد. ولكي يبتعد عن الموضوع بأسره قال لأبي منير:

ـ هل أخبرتك بأن الأستاذ فياض قال لي إنه ينتظر مني تقريراً مفصلاً ومستعجلاً عن القضية؟ حكاية حرم الطريق العام وعدوان غزلان عليه تعطينا مادة جيدة للتقرير. حين قابلت المدير العام لم يكن لي علم بهذا الأمر. ما رأيك بأن نكتب التقرير اليوم أو غداً؟

ابتسم الأستاذ صبحي وقال: حسناً. هذا يشغلنا بعض الشيء عن الكلام عن النسوان وأقاويلهن. ولكني أفضل أن لا نستعجل. لا بد لي من البحث في الأضابير المتعلقة بعقود الشراء بين مديرية الصناعة الزراعية والسيد غزلان، وفي تلك الموجودة في مركز المحافظة المتعلقة بشراء هذا السيد المحترم الأرض من عشيرة السياد. ثم إن لي طلّة على دائرة المواصلات لأتأكد من قضية تملك الدولة للحرم على جانبي الطريق، وبأية سعة هذا الحرم. كل هذا يحتاج إلى بعض الوقت.

قال أنور: قلت أنت إن علينا أن نسرع قبل عودة غزلان من العاصمة... عودته بأشياء تقوّي مركزه وتعرقل مساعينا.

قال الأستاذ صبحي: بل لعل الأفضل أن نعرف ما يأتي به من هناك. موقفنا قوي، ومن المصلحة أن تطلّع على كل ألاعيبه لنفسدها عليه من هذا الموقف القوي. اسمع... تطلع من النافذة على يمينك. اذكر الذيب وهيىء القضيب! هذه السيارة لأمير غزلان... إنها تقف أمام باب بناء المديرية العامة. وهذا هو يخرج منها مدحرجاً كرشه أمامه.

تطلع أنور إلى يمينه فشاهد سيارة مرسيدس رمادية اللون وقفت حيث أشار الأستاذ صبحي، كما شاهد أمير غزلان بقامته المكورة وشعره البالغ السواد، المصبوغ حديثاً ولا شك، يدلف منها متجهاً إلى البناء المقابل. كان يرافقه رجل في متوسط العمر، طويل القامة

وحسن الهندام. توقف هذا الأخير أمام بناء المديرية قليلاً ورفع رأسه مجيلاً أنظاره في البناء كأنه يرى المكان لأول مرة. قال الأستاذ صبحي:

ـ هذا محام جديد ولا شك، جاء به أمير من العاصمة. أو لعله أحد أصحاب السلطان هناك جاء به داعماً لاعتدائه على الأهلين وعلى الدولة.

قال أنور: لن يريحنا هذا يا أبا منير.

قال صاحبه: بل بالعكس يا ابن أخي. هذا يعني أن الأمير الغزلاني اكتشف ضعف موقفه فاستنجد علينا بالسموات والأرض... بكبار المحامين أو بذوي الجاه والنفوذ القاطعين. لاتخف، نحن لها!

تطلع أنور إلى مخاطبه فكادت ابتسامته أن تتحول إلى قهقهة. تحرك رأسه وعنقه وكتفه بالعرة، بينما كان يلف كمي قميصه على ساعديه كالمتهيىء لمعركة، وقد ارتسمت على وجهه ملامح جد عابسة. أضاف قائلاً:

ـ كنت تريد أن تذهب إلى رحبتك. إذهب يا عزيزي، إذهب. سيارتك في انتظارك. نعم سيارتك الجديدة. أفرز المدير العام لك واحدة جديدة بسائق، بدلاً من البيجو القديمة. لماذا تستغرب؟ إذهب كما قلت لك، مبروك!

ـ ١١ ـ

لم يترك الأستاذ صبحي مجالاً لأنور كي يطرح عليه سؤالاً، بل أسئلة عديدة لا تزال تدور في خاطره منذ عودته من حلب، وفي شأنها كتب ما كتب إلى سميرة في رسالته الأخيرة. الصحيح أنه كان متردداً في طرح تلك الأسئلة، فوجد في الأحاديث التي بادله

إياها أبو منير ما يبرر به لنفسه عدم مفاتحته بما كان ينويه من الاستفهام عن الوضع العائلي لصديقه الحميم الأستاذ شكيب مجد الدين. وإذا كان قال لخطيبته في رسالته إليها إنه فرّج عن نفسه بما رواه لها عن مسموعاته التي ضاق بها صدره، فإنه في الواقع لم يتخلص تماماً من ذلك الضيق. وليس غير الأستاذ صبحي من يستطيع أن ينبئه باليقين في هذا الموضوع. ولكن بأية طريقة يسوق إلى صاحبه أسئلته في هذا الأمر الشائك، بل المخجل؟ فليترك هذه الأسئلة إذن إلى فرصة أخرى ما دام أبو منير مشغول الذهن والوقت بقضية أمير غزلان! هكذا قال أنور لنفسه وهو يجيب على تحية سائق سيارته الجديدة، ويطلب منه أن يسير به، لا إلى مكتبه في رحبةَ الآليات، بل في الاتجاه الآخر، نحو الطريق المؤدي إلى معمل أمير غزلان للزيوت النباتية.

رغب أنور في أن يلقي من جديد نظرة على الدرب الذي أثار إغلاق السيد غزلان إياه هذه المشكلة، بعد أن سمع ما سمعه من الأستاذ صبحي حول غاية خصم عشيرة السياد في الاستيلاء على حرم الطريق العام من وراء ذلك الإغلاق. هو يذكر أن الدرب الضيق الذي كان مسدوداً بالحاجز كان موازياً للطريق العام، تفصله عنه مسافة ما. ويذكر كذلك أنه كان لاحظ إلى جانب هذا الدرب، بينه وبين الطريق العام، وجود خندق مواز لهما يبدو أنه مصرف لمياه المطر أو مياه سقاية الأراضي المجاورة. ففي قاعه كانت تلوح بقع رطوبة متفرقة وتجمعات ضئيلة لماء راكد. لم ينتبه في مروره الأول مع الأستاذ صبحي إلى قدر المسافة التي تفصل بين الدرب والطريق العام، فقد كان اهتمامهما مصروفاً إلى الحاجز المسدود واللافتة المرفوعة إلى جانبه. أما الآن فقد أصبح لهذه

المسافة أهميتها. عليه أن يحسن تقديرها مقدمة إلى قياسها بدقة ليكون ما يسجله في تقريره إلى المدير العام مبنياً على مشاهدة عينية وبأرقام محدودة. كما أن عليه أن يضمّن تقريره وصفاً وافياً وتعداداً صحيحاً للشتلات المغروسة في صفوف طويلة في هذه المسافة، مما لفت نظره أبو منير إليه، خلال حديثه عن نوايا أمير غزلان الخفية في تعدياته الظاهرة.

كان مدخل الدرب، عندما بلغه أنور، مفتوحاً. بمعنى أن العارضة المعدنية الطويلة، المثبتة من أحد طرفيها بمفصل مركب على قاعدة إسمنتية مرتفعة، والمنتهية من الطرف الآخر باسطوانة ثقيلة، هذه العارضة لم تكن تسد الدرب. ولكنها مع ذلك كانت موجودة. كانت مرفوعة عمودياً فوق نهايتها المفصلية، قابلة لأن تخفض في أية لحظة لتأخذ وضعاً أفقياً تسد به الدرب. كما أن اللوحة التي كانت تحمل تحذير اجتياز الدرب اختفت. غير أن العمود الخشبي الذي كان يحملها كان في مكانه، مهيئاً كذلك إلى أن يحملها من جديد أو يحمل غيرها في أية لحظة. وارتسمت على شفتي أنور ابتسامة خفيفة وهو يرى عارضة الحاجز مرفوعة والعمود الخشبي خالياً من لوحته. ابتسم حين تذكر كيف استطاع الأستاذ صبحي، بكلمات قليلة ألقاها في مسمع أمير غزلان أن يكسر من عنفوان ذلك الإنسان المنفّر ويبدّل من سلوكه. ولكن... ولكن، قال أنور لنفسه، أترى هذا الإنسان ثاب إلى رشده وتخلّى عن محاولاته في حجز السياد المساكين عن استخدام دربهم، توطئة منه للاستيلاء على ما ليس من حقه من أرض الدولة؟ إن بقاء العارضة الحديدية في مكانها وعلى قاعدتها، ولو أنها ما سدت الدرب، وثبات العمود الخشبي إلى جانبها ولو أنه لم يحمل لافتته، واصطحاب

أمير غزلان هذا المدني الأنيق إلى مكتب المدير العام، كل ذلك يعني أن الرجل لم يقلع بعد عن غيه وأن نواياه الخبيثة لا تزال تجول في صدره وأنه هو لا يزال ساعياً إلى تحقيقها.

طلب أنور من السائق أن يقف في انتظاره عند المدخل ونزل هو يمشي على قدميه في اتجاه معمل الزيوت أولاً، ثم منحرفاً إلى اليسار في الفسحة التي تفصل الدرب عن الطريق العام. قفز فوق خندق المصرف الضيق وهو يقيس بخطوته المسافة التي تفصل الدرب عن الطريق قياساً تقريبياً. كانت تلك المسافة تزيد وتنقص، ولكن بقدر ضئيل، بين ناحية وأخرى. وقدّر هو أن متوسط عرضها يقارب العشرين متراً، لا يزيد الثلاثين ولا ينقص عن العشرين. وكانت هناك ثلاثة صفوف من الشجيرات تمتد متوازية في تلك الفسحة حتى جنوبي المعمل، متوقفة عند منتهى ملكية أمير غزلان من الأرض. أغصان تلك الشجيرات كانت مورقة بكثافة وإن لم تكن سوقها طويلة، فلا بد من أنها غرست في شباط من هذا العام أو آذار، وأن فكرة غرسها جاءت إلى ذهن غزلان بعد الانتهاء من بناء معمله بمدّة غير قصيرة...

ليزداد أنور تمعناً بهذه الشجيرات ومعرفة بأنواعها راح يتنقل بينها في الفسحة متجهاً نحو الطريق العام، المعبّد والمفروش بالإسفلت، والذي كان يعلو عن مستوى الأرض المبسوطة على جانبيه علواً غير قليل. كانت غرسات لأشجار مثمرة، مشمش وتفاح في أكثرها. وبينما كان يتلمس بأصابعه وريقات غصن غض من شجيرة تفاح، ملأ سمعه هدير سيارة انحرفت عن الطريق العام وسلكت الممر الجانبي الذي يصل الدرب به. رفع رأسه فأبصر السيارة الرمادية، تلك التي رآها منذ نحو ساعة تقف أمام المدخل الرئيسي للمديرية

العامة ورأى أمير غزلان ومرافقه الأنيق الثياب ينزلان منها. أبصرها تنعطف من الممر الجانبي وتتقدم في الدرب باتجاه بناء المعمل. كان هو، آنذاك، قد بلغ في سيره بين الشجرات آخر الفسحة من الشرق قريباً من السفح المنحدر للطريق العام، فوقف متطلعاً إلى السيارة التي تجاوزته ببطء مثيرة غيمة غبار خفيفة وراءها. لاحظ من موقفه أن راكبي المقعد الخلفي فيها، وهما دون شك أمير غزلان وصاحبه، قد أدنى أحدهما رأسه من الآخر ثم رأى السيارة تتوقف عن تقدمها وتتراجع بعد ذلك في سيرها إلى أن تبلغ من الدرب ما يحاذي موقفه، هو أنور، تحت سفح الطريق العام. فتح الباب الأيسر للعربة ونزل منها الرجلان، أمير غزلان في الأول وصاحبه بعده، واتجها إليه في مكانه إلى جانب الشجيرة التي كان يدير بين أصابعه وريقاتها الدقيقة والشديدة الاخضرار.

لأول مرة يرى أنور أمير غزلان منتصباً على قدميه وهو مقبل إلى مواجهته. في تلك الزيارة رأى هيكله المكور غاطساً في معظمه وراء منضدة مكتبه، يغور أحياناً حتى لا يبين منه سوى عنقه بين كتفيه المتهدلين، ويرتفع أحياناً حتى كأن ما يعلو عن مستوى ثدييه من جذعه كتلة مكورة تطفو على الزجاج اللماع الذي كان يعلو سطح المنضدة. أما الآن، فهذا هو الجثمان المنتفخ يراه أنور كاملاً! ما أشبهه بذلك الشخص التمثال الذي طالما رآه دعاية لماركة ميشلان للإطارات المطاطية!... هيكل قصير القامة مكور في تفلطح، يتكون جذعه من أنابيب حلقية مركب واحدها فوق الآخر. ولكن، قال أنور لنفسه، ولكن شخص ميشلان ذاك يبدو خفيف الدم مثيراً للضحك. أما أمير غزلان، فإن ملامح وجهه الكامد وجبهته الناتئة فوق وجنتيه الداكنتي السمرة، لا تثير غير

النفور إذا لم يكن التقزز. حتى الابتسامة التي انفرجت عنها شفتاه الغليظتان لم تفلح في أن تخفف مما يوحي به تكوينه المنفر وهو يتقدم جاراً صاحبه المرافق له من يده خلفه. ترى ما وراء هذه الابتسامة؟

لم يتحرك أنور من مكانه بجانب الغرسة، بينما تقدم الرجلان إليه حتى أصبحا على بعد خطوة منه، في مواجهته. التفت حينذاك أمير غزلان إلى صاحبه وخاطبه بصوت عال قائلاً:

ـ هذا هو الأستاذ أنور يا علي بك. المهندس العظيم الذي يعتمد عليه مديرنا فياض بك وقال إنه ينتظر تقريره في قضيتنا. نحن أيضاً ننتظر ذلك التقرير. ألم يقل سعادة المدير العام أن أمورنا ستجري في مجراها الطبيعي حالما يأتيه تقرير مهندسنا العظيم؟

المهندس العظيم، ومهندسنا العظيم! بدا لأنور أن لهجة أمير غزلان في تلفظه بهذا الوصف له كانت تحمل من السخرية أكثر مما تحمل من الاطراء. امتلأ صدره حنقاً، وزاد من حنقه أن البغيض توجه بكلامه إلى صاحبه كأنه يعرض به بضاعة أو يشير إلى معلم من المعالم الجامدة، غير مكلف نفسه أن يحييه أو يعرفه بذلك الصاحب. دفعه هذا الحنق إلى أن يدير وجهه عن الرجلين ويخطو مبتعداً عنهما دون أن يتكلم. فضل أن يتجاهلهما على أن يرد على ما سمعه بكلمات قد تسوقه إلى تعنيف أمير غزلان. إلا أن علي بك، كما سماه البغيض، تقدم إليه معترضاً خطوه ومادّاً كلتا يديه ليصافحه وقال، وقد رسم على شفتيه ابتسامة واسعة:

ـ تشرفنا. حياك الله يا حضرة المهندس. الثقة التي يضعها بك أخونا فياض بك جعلتني في شوق إلى رؤيتك. كيف حالك يا أستاذ أنور؟

كان في لهجة الرجل من الحرارة ما بدّد سحابة الحنق التي خيمت على مشاعر أنور. توقف عن سيره وصافح اليد، بل اليدين اللتين امتدتا إليه، وهو يتأمل في وجه صاحبهما وهيئته العامة. كان كلاهما، الوجه والهيئة، على نقيض ما كانا عليه عند أمير غزلان. فقد كان علي بك، وهو في منتصف العمر، أزهر الوجه، دقيق الملامح وطويل القامة. في عينيه كانت تلتمع نظرة ذكية وأنيسة، مخالفاً في تكوينه الجسدي كل الخلاف تكوين أمير غزلان. فهل تكون طباعهما على مثل هذا الخلاف أيضاً، أم تراهما من ناحية الطباع من طينة واحدة؟ تساؤل دار في ذهن أنور بعد أن سلّ كفه من بين كفي مخاطبه، بينما كرر هذا سؤاله حين لم يسمع رداً عليه فقال:

ـ نعم كيف حالك يا أنور بك؟

قال الفتى: بخير والحمد لله.

قال الرجل: الحمد لله على كل حال. ولكن، يا عزيزي، لا أظنني ألومك لو أني سمعتك تشكو وتتذمر.

تساءل أنور، والجفاء لا يزال يكسو لهجته، قائلاً:

ـ أشكو وأتذمر؟ مِمَّ؟

قال مخاطبه: من حياتك في هذا المنفى البعيد. فهمت من أخي الأستاذ فياض... لا بل من مديرة مكتبه الجميلة الذكية، أنك آت مباشرة من قلب دمشق الندي الرطب إلى هذه الصحراء القاحلة. كما علمت أنك لست ابن أيّ كان. أبوك شاكر بك... شاكر بك الذي أعرفه جيداً.

تورد وجه أنور، كعادته كلما سمع ثناء يحرجه أو تعليقاً يضيق به

شعوره. لم يكن ما سمعه في الواقع ثناء، بل تطرقٌ لا مبرر له إلى ذكر والده بصورة توحي بأن مقامه هنا منقصة لا تليق به، هو أنور. وهذا ما جعله يشتد في جفائه وهو يرد على مخاطبه بقوله:

ـ ليس في وجودي هنا شيء يدفع إلى الشكوى والتذمر. أنا مهندس زراعي، وعليّ في السنوات الأولى بعد تخرجي أن أعمل في أيّ مكان تحتاج المصلحة فيه إليّ. عملي هنا مفيد ومثمر، وهو تجربة أحتاج إليها وتعينني في حياتي المقبلة.

صفق علي بك بيديه والتفت إلى صاحبه أمير غزلان. كان هذا طيلة الحديث ملتزماً السكوت، منفرج الشفتين عن أسنانه المصفارة، وقد صفن بإحدى رجليه مائلاً بجذعه إليها كأن الوقوف تحت أشعة الشمس العمودية في تلك الساعة قد أجهده. التفت علي بك إليه وقال:

ـ حماسة الشباب يا أبا أحمد. تطلّع إلى هذا الشاب المترف، ابن شاكر بك، الذي يقول هذا الكلام. عمله في الشمس والغبار وفي مجتمع هذه المنطقة المختلفة مثمر ومفيد! كلمة واحدة من والده الكريم قادرة على أن تحوّل وظيفته إلى أية بقعة جميلة من بقاع وطننا يكون عمله فيها مثمراً ومفيداً. ثم... ألم تلاحظ هذا الخاتم في بنصر يده اليمنى؟ إنه خاطب يا عزيزي. تراه يهجر خطيبته، وهي لا بد أن تكون من طبقته ومستواه، ليقدم عمله المفيد والمثمر إليكم يا أبا أحمد. عليكم أنتم، بالمقابل، أن تقدموا إليه شكركم الجزيل والدائم لتضحيته بنفسه في سبيل مصلحتكم!

ارتسمت على شفتي أنور ابتسامة خفيفة للإشارة العابرة في كلام علي بك إلى خطيبته. قال في سره: لا بد إنها أسمهان، سكرتيرة المدير العام، التي زودت مخاطبه بالمعلومات عنه... إنه رجل ذكي،

بل ماكر، ولم يأتي به أمير غزلان من العاصمة عبثاً. عليهما، وهو والأستاذ صبحي، أن يحسبا حساباً جيداً لهذا الرجل!

تكلم هذه المرة أمير غزلان الذي أتعبته وقفته الطويلة في الشمس بأكثر مما تتحمله ساقاه القصيرتان. قال، بعد أن أطلق من حنجرته قهقهة خشنة لكلام صاحبه الموجه إليه:

ـ ما رأيك يا علي بك في أن نكمل حديثنا في المعمل؟ قل للأستاذ أنور ليتفضل ويرافقنا لنشرب شيئاً بارداً في المكتب عندي. مكتبي مكيف وليس مثل مكاتب مركز الاستصلاح التي لا أدري كيف يصبر الموظفون على حرّها المحرق مع أننا أصبحنا في عزّ الخريف.

قال علي بك: فليحترق الموظفون كيف شاؤوا. أما الأستاذ أنور فاترك أمره إليّ. حالما أصل إلى دمشق سأتحدث بشأنه إلى سيادة الوزير، ولن يتأخر صدور قرار نقله. لن يكون ذلك إكراماً لي، إذ يكفي أن يعرف سيادته أنه ابن شاكر بك. أنت لا تدري يا أبا أحمد أن ثلاثة أرباع الكبار في مناصب الدولة العليا تلاميذ لشاكر بك يعترفون بجميله ويقدرونه حق قدره. أما الآن فأرجو يا عزيزي أن تقبل دعوة أخينا أبي أحمد لنشرب شيئاً مرطباً في مكتبه. تفضل معنا يا أستاذ أنور.

ردّ عليه أنور بقوله: أنت إنسان كريم يا علي بك. أشكر لك ما تذكره عن أبي الذي يعرف أني مهتم بعملي هنا كل الاهتمام. اسمحوا لي بأن أبقى هنا. ما دام السيد المدير العام قد حدثكم عني فقد عرفتم أنه ينتظر تقريري. وجودي هنا الآن هو جزء من مهمتي في إعداد التقرير. آخر ما توصلنا إليه أن هذه الفسحة من الأرض، بين الدرب الذي اختلف بشأنه السيد أمير مع عشيرة السياد وبين الطريق العام، هي حرم الطريق العام. بهذه الصفة لا يجوز لأحد أن

يتجاوز عليها. ولكن السيد أمير، مع الأسف الشديد، قد تجاوز عليها. هذه الغرسات التي أصبحت شجيرات مورقة، غرسها هو. هذا شيء لا بد من أن أضمنه تقريري. ولذلك عليّ أن أتثبت من مساحة الأرض المعتدى عليها وتاريخ الاعتداء ونوعية الاعتداء. مع السلامة يا علي بك. تشرفت بمعرفتك!

استدار أنور بعدما قال هذا وخطا بين صفي الشجيرات دون أن يصافح علي بك أو يلقي نظرة على صاحبه. كان واثقاً بأن ما نطق به قد ساق الازعاج، وربما الخوف، إلى هذا الأخير. أما عن علي بك، فيجب أن يفهم أنه لا يخاطب صبياً غراً تخدعه الكلمات المعسولة أو تطمعه الوعود التي يمنّيه بها. كل هذا سيرضى به أبو منير، وربما ضحك منه حين يحدثه به في صباح الغد.

نعم سيحدث الأستاذ صبحي بهذا وبغيره في صباح الغد. ألم يكن في نيته أن يستوضح منه عن مسموعاته في دار الحاج نعمان حول الأستاذ شكيب، ليعرف صدق ما تقولت به السيدة شاهناز من كذبه؟ تذكر كم كان قبل ساعات قليلة متردداً، وشاعراً بالحرج من التطرق إلى الكلام عن ذلك الأمر. كان أمراً ذا أهمية وله حساسيته الخاصة في نفسه. أما الآن، وبعد مقابلته لعلي بك وأمير غزلان، وبعد الحوار الذي دار بينه وبينهما، فقد سخر من التقدير الذي أعطاه لذلك الأمر. أي قيمة لأقاويل وشائعات تدور على ألسنة أولئك الفارغين من هموم الحياة الجادة أمام ما يعيشه من قضايا هنا؟ أمام همّ عشيرة السياد التي انتزعت منهم أراضيهم بأبخس الأثمان ثم منعوا من سلوك دربهم فيها؟ وأمام وقاحة مستغل يبتز الضعاف من المواطنين، واضعاً يده على ما ليس له،

ومستعيناً على ابتزازه بسطوة ذوي النفوذ وفساد السيئين من أولي الأمر؟

لم يعد لأقوال السيدة شاهناز في تفكير أنور، ولا لشعوره بالرثاء للأستاذ شكيب، القيمة والقدر نفسيهما. ومهما عرّفه الأستاذ صبحي عن هذه القضية، إذا حانت الفرصة وسأله عنها، فلن تحرجه المعرفة أو تزعجه. ما يشغل فكره الآن ويستأثر باهتمامه هو أن يتصدى مع الأستاذ صبحي، أو وراء الأستاذ صبحي، لأمير غزلان ليوقفاه عند حده ويحرماه مما استولى عليه بالحيلة والقهر من السياد المساكين ومن الدولة الغافلة أو النائمة نواطيرها عن كرومها المثقلة بالعناقيد...

بكل هذا كان أنور يحدث نفسه، بعد أن ابتعدت السيارة الرمادية براكبيها متجهة إلى بناء معمل الزيوت النباتية، وإلى مكتب أمير غزلان في ذلك المعمل، ذلك المكتب الواسع الجنبات الفخم الأثاث والمكيف الهواء.

- ١٢ -

في الصباح التالي كان أول ما تلقى به الأستاذ صبحي المهندس أنور، حين دخل عليه غرفة مكتبه، وحتى قبل أن يرد عليه تحيته، هتافه به:

- صدرت الأوامر... هيىء نفسك للتنفيذ!

قال الأستاذ صبحي هذا وابتسامة عريضة ترتسم على شفتيه. ردّ أنور عليه متسائلاً:

- أية أوامر يا معلمي؟ لعلك وجدت المطعن الذي تفسد به صفقة أمير غزلان مع الدولة...

اختفت الابتسامة عن شفتي الأستاذ صبحي واكتسبت ملامحه علائم الجد. قال بلهجة المؤنب:

ـ كأنك ترى هذا الرجل في منامك. أنا أكلمك عن أوامر امرأة عمك أم منير. صدرت أوامرها بأن تتناول غداءك عندنا. ليس اليوم بل غداً.

جاء دور أنور في الابتسام. ابتسم وهو يقول:

ـ هذا يسرني. ولكن...

قال صاحبه: لا تعتذر كما تفعل كل مرة، فهي لن تقبل المعذرة. لو رأيتها وهي تتلمس ذلك الوشاح الحريري برؤوس أصابعها. تديره مرة على رأسها، وتلقيه مرة على كتفيها، وتلفه مرة ثالثة على عنقها! أعادتها خطيبتك العزيزة لي بنت أربعة عشر، إذا لم يكن في شكلها ففي عقلها.. لا تؤاخذني، ولا تنقل ذلك عني!

اتسعت ابتسامة أنور وهو يقول:

ـ كل هذا من أجل قطعة قماش؟ هدية بسيطة، ودون ما تستحقه أم منير في رعايتها لي، وفي اهتمامها الذي فضحتني به أمام بنات المديرية. عن الدعوة، قبلتها مع الشكر. ولكن عندي ما أقوله لك يا معلمي.

قال أبو منير: خيراً إن شاء الله. كيف حال الرحبة، وحال المرآب وآلياتك فيه؟

أجاب: الأمور في المرآب لا غبار عليها. ولكني قابلت علي بك أمس بعد أن تركتك وقبل أن أصل إلى المرآب.

تساءل الأستاذ صبحي: علي بك؟ من يكون هذا البك؟

قال أنور: إنه الرجل الأنيق الهندام الذي جاء به صاحبنا من

العاصمة. هذا الرجل يعرف أبي جيداً... أو أنه يدّعي معرفة جيدة به.

وانطلق الفتى يروي لصاحبه كيف لقي بالأمس الرجلين في الفسحة بين الدرب والطريق العام، والحوار الذي دار بينه وبين علي بك، كما أخبره بالدعوة التي اعتذر عن عدم قبوله لها في مرافقة الرجلين إلى مكتب أمير غزلان، وماذا قال لهما في اعتذاره. علّق الأستاذ صبحي على ما سمعه بقوله:

ـ هذا أول الغيث. ما أن بدأت تثبت وجودك يا ابني يا أنور حتى بدأت الترضيات تنهال عليك. أولها الوعد بانتزاعك من الجحيم الذي نعيش فيه هنا وإعادتك إلى حضن أمك وأبيك. ما قولك بهذا الوعد؟ على كل أرجوك... لا تقبل بالنقل من هنا قبل أن تلبي دعوة امرأة عمك...

قال أنور، متظاهراً بالاستياء: هل تسخر مني يا أبا منير، أم تستصغر عقلي فتظنني أغتر بالكلام الذي أسمعني إياه هذا الرجل؟ ما قاله لم يقله حباً بسواد عينيّ. إنهم منذ الآن يخشون مغبة ما سيتضمنه تقريري. لا سيما حينما رأوني أتفقد فسحة الأرض التي وجدوني عندها. إذا كان هذا البك قادراً حقاً على نقلي، وقام به، فإنه يفعله للخلاص من وجودي هنا. ولكني، حتى لو أنه أراد نقلي، فإني من ناحيتي لن أقبله.

قال الأستاذ صبحي، متحمساً: أعجبتني يا ولد. ما فهمته أنت من كلام هذا البك لا يحتاج إلى ذكاء كبير، وليس هو ما أعجبني منك. أعجبني قولك الأخير الذي يعني اقتناعك بوجوب ثباتنا في البحث عن الحق وانتصارك له. إلى الأمام إذن!

ضحك أنور ضحكة قصيرة وقال:

- إلى الأمام، كما تشاء. كأنك قائد جيش يتقدم عسكره...

قال أبو منير: ولِمَ لا؟ قواد الجيوش ليسوا أحسن منا. على الأقل نحن لا نتلقى الأوامر إلا من ضمائرنا، بينما أولئك ينفذون أوامر تأتيهم من سياسيين لا ضمائر لهم.

ضحك أنور مرة أخرى وهو يقول: هذه فلسفة خطرة يا معلمي، والكلام فيها يسبب لنا مشاكل. اتركنا في حديث السياد وتطاول أمير غزلان على حقهم. عندي شيء آخر أريد أن أعرضه عليك. بل أريد أن أسألك عنه. ترددت في مفاتحتك به أكثر من مرة، ولا أدري هل يحق لي أن أتحدث عنه أم لا.

قال الأستاذ صبحي: لا تتردد. اسأل عمك عما تريد. أيّ شيء تقصد؟

قال أنور: لم يتسع لي الوقت لأخبرك عن إقامتي في اليومين أو الثلاثة بعد العيد في حلب. التقيت هناك بصديق والدي الحميم، الحاج نعمان. كنت خبرتك عن تعرّفي على أفراد أسرته في الأيام الماضية. في هذه المرة كان هو شخصياً في المدينة، وقد تناولت الطعام على مائدته. وفي أثناء ذلك...

وتوقف أنور عن الكلام وقد عاوده تردده، فاستحثه صاحبه على المتابعة قائلاً:

- عن الطعام، صحتين! أعرف ولائم هؤلاء الأثرياء المتنعمين من الناس... الكبب بأنواعها، والخراف المحشية، وصواني الحلويات! لم تكمل كلامك. وفي أثناء ذلك ماذا حصل؟

قال أنور: نعم... كان الحديث على المائدة حديثاً غريباً يا أبا منير. تمنيت أن السيدة شاهناز، عقيلة الحاج نعمان، لم تتفوه به أمامي.

تحدثت تلك السيدة عن صديقنا الأستاذ شكيب بما أزعجني حقاً. أصحيح هذا الذي قالته عن بيت الأستاذ شكيب... أعني عن شريكة حياته؟ لا أدري إذا كان من حقي أن أطرح عليك هذا السؤال يا أبا منير. ولكني أحببت الأستاذ شكيب. إنه إنسان يستحق الحب.

غض الفتى من بصره وهو يقول هذه العبارة كأنه يتفادى التقاء نظراته بنظرات الأستاذ صبحي. ولم يفته مع ذلك أن يلاحظ كيف تبدلت ملامح صاحبه من الانبساط إلى التجهم، وكيف حرك عنقه وكتفه بالعزّة المعهودة قبل أن يقوم من كرسيه ويتجه إلى النافذة المطلة على الساحة أمام بناء المكاتب. وجده قد لزم الصمت لبرهة قصيرة قبل أن يعود إلى وراء مكتبه ويتكلم بلهجة حاول أن يعود بها إلى انبساطه السابق. قال:

ـ طلبت منك أن تسألني عما تريد، لذلك يحق لك أن تطرح هذا السؤال عليّ. ويحق لي أنا، لسبب لن أخبرك به الآن، أن لا أجيبك على السؤال. من دون أن تفصّل لي، عرفت نوعية الكلام الذي تلفظت به امرأة الحاج نعمان عن شكيب وأهل بيته. لم يسعدني الحظ بأن أتناول مثلك الطعام في ذلك المنزل العامر، ولكن الحاج نعمان ليس إنساناً مجهولاً، ولا امرأته السيدة شاهناز...

سأله أنور: إذن فأنت تعرف هؤلاء الناس يا أبا منير؟

لم يرد الأستاذ صبحي على هذا الاستفهام مباشرة بل قال:

ـ لا أحب أن أتحدث عن الناس بالطريقة التي تتحدث بها النسوان. ولكني أقول لك إني أفضّل شكيب على كثير ممن أعرفهم، إذا لم أقل على كل الذين أعرفهم. أفضّله على علاّته. وما هي علاّته؟

إنها تتمثل في ما دار عليه الكلام الذي أسمعوك إياه على مائدة الطعام، والذي يجب أن لا تثق من أنه كلام صادقين. ثم يا عزيزي... يجب أن تعرف أن كثيراً من الناس يرى القشة في عين أخيه ولا يرى الخشبة المعترضة في عينه هو.

سأله أنور: من تعني بهذا يا أبا منير؟

تبسم الأستاذ صبحي وردّ بقوله: مرة أخرى، لا أحب أن أتحدث عن الآخرين بالشكل الذي تتحدث به النسوان... السيدة شاهناز وأمثالها. إذا كرر عليك أخونا شكيب الدعوة لزيارته في داره فإني أتمنى أن تجيبها. جرّب بعدها أن تذكر بالخير زوجة شكيب أمام مدام شاهناز، ستعرف من ردّة فعلها آنئذ أشياء لم تكن تعرفها عن هذه السيدة الكريمة، عقيلة الحاج نعمان الديرباني...

وسكت قليلاً ملقياً نظره إلى بعيد، باتجاه شباك الغرفة، وما لبث أن قال مغيّراً من طبقة صوته:

ـ أما الآن، فهيىء نفسك لاستقبال السيد أمير غزلان... هذه سيارته تقف أمام مكاتبنا.

قام أنور من كرسيه واستدار متطلعاً من النافذة، فرأى السيارة الرمادية تقف حقاً أمام المبنى. فُتح بابها وخرج منه، لا أمير غزلان، بل صاحبه علي بك. التفت أنور إلى الأستاذ صبحي وقال:

ـ هذا علي بك وحده. أتراه قادماً ليراك؟

عاد الأستاذ صبحي إلى الجلوس على كرسيه وراء المنضدة، بعد أن كان تركه ليحسن النظر إلى السيارة القادمة، وقال:

ـ بل ليراك أنت يا عزيزي. ليس له شأن بي. ربما جاء ليودعك. خذ مكانك على هذا الكرسي ولننتظر ما الذي أتانا به البك.

مرت دقيقة أو دقيقتان قبل أن يبدو ضيف أمير غزلان واقفاً أمام غرفة الأستاذ صبحي بقامته الطويلة وملابسه الأنيقة. كان باب الغرفة مفتوحاً، ومع ذلك فقد وقف الرجل ومدّ يده ليقرع بأصابعها خشب الباب مستأذناً بالدخول. وفي الوقت الذي قام فيه أنور من مقعده كالمرحب، ظل الأستاذ صبحي مطمئناً إلى جلسته وردّ على القرع بصوت فاتر، قائلاً:

ـ تفضل يا أستاذ.

لم يستطع أنور مجاراة الأستاذ صبحي في تظاهره باللامبالاة. ما كان به ميل كبير إلى علي بك، إلا أنه وجد أن تجاهله كل التجاهل ليس من اللياقة بشيء. قال للأستاذ صبحي، وهو يمد يده ليتلقى الكف التي مدت لمصافحته:

ـ هذا علي بك يا أبا منير. حدثتك عن لقائي به أمس عند الظهر.

قام الأستاذ صبحي بتثاقل عن كرسيه وراء المنضدة، ومدّ يده لمصافحة القادم بدوره وهو يقول:

ـ آه... أهلاً وسهلاً. تشرفنا. لا تؤاخذنا يا بك. لسنا معوّدين هنا على أن نحظى بزيارة الأكابر. عملنا مع الفلاحين وعمال ورشات الميكانيك. حتى البكوات من أمثال المهندس أنور يتجردون من مزايا طبقتهم حين يشتغلون معنا. تراهم يلبسون الأوفرول والجينز، وقد يصل بهم الأمر إلى لبس الدشداشات.

أطلق علي بك من حنجرته ضحكة قصيرة قبل أن يقول، وهو يشير إلى كرسي في الجانب الآخر من منضدة المكتب:

ـ الأستاذ صبحي كثير التواضع. لم يعد في أيامنا هذه أكابر وأصاغر يا أستاذ. كلنا إخوة وعبيد الله. هل تأذن لي بالجلوس؟

قال الأستاذ صبحي: تفضل وخذ راحتك يا بك... يا علي بك! نعم، حدّثني عنك المهندس أنور هذا الصباح. أخبرني أن لك معرفة جيدة بوالده المحترم. ماذا تفضّل، قهوة أم شاي يا علي بك؟

كان تكرار الأستاذ صبحي للقب البك لافتاً للنظر. ولا شك أن رائحة السخرية فيه لم تغب عن فطنة المخاطب به. ومع ذلك فإن الابتسامة لم تمح عن شفتي الرجل وهو يرد على السؤال الموجه إليه ويقول:

ـ شكراً. إذا كان لا بد من ضيافتكم لي فإني أفضل القهوة. الحقيقة أن معرفتي بشاكر بك، التي ذكرها لك نجله الكريم، معرفة قديمة. وقد فوجئت البارحة مفاجأة سارة بوجود الأستاذ أنور في هذا المكان النائي.

قال الأستاذ صبحي: أظن المهندس أنور فوجىء كذلك بوجود صديق عزيز لوالده الكريم في هذا المكان النائي!

قال علي بك، كالمعترض: صديق لشاكر بك؟ يشرّفني هذا. الواقع أن معرفتي بشاكر بك هي معرفة تقدير وتوقير أكثر منها صداقة. أنا مسافر بعد ساعة، ووجدت من واجبي أن أحيي نجله الكريم قبل السفر. أخبروني في الرحبة أن الأستاذ أنور يداوم هنا في الصباح.

كان أنور في هذه الأثناء يتلهى بتقليب بعض الأوراق على المنضدة أمامه، تاركاً تبادل الحوار إلى الأستاذ صبحي وهذا الوافد. وجد أن لا بد من تدخله في الحديث ما دام أصبح دائراً حوله، فقال:

ـ أتعبت نفسك يا علي بك. شكراً.

قال الرجل: تعبكم راحة. أردت أن أذكرك يا عزيزي بأني في الخدمة. الأستاذ فياض صديق قديم، وإذا كانت هناك حاجة إلى

توصية فإنه لا يردّ لي طلباً. أنا في طريقي إليه الآن لأودعه أيضاً قبل سفري. قضية النقل التي تكلمنا عنها البارحة ليست من صلاحيات فياض. أمرها يعود إلى المراجع العليا في الوزارة، وأصدقائي فيها كثيرون. وأحسبني أستطيع أن أعدّ سيادة الوزير من بينهم.

لاحظ أنور هنا أن منكب الأستاذ صبحي، في جلسته وراء المنضدة، قد علا وانخفض في عرّته المعتادة، فلم يملك نفسه عن الابتسام. لا بد أن هذه العبارات عن صلة المتحدث بالمدير والوزير، وعن التوصية وأمر النقل، قد ضربت على عصب أبي منير. احتد صوته وهو يرد على ما سمعه قائلاً:

ـ إنك يا بك تدلّل حبيبنا المهندس أنور وتتجاهل عواطفنا تجاهه وتعلقنا به، وتتجاهل كذلك مستلزمات المصلحة العامة. لماذا لا تقصر توصياتك على السيد أمير غزلان، صديقك المحترم؟ أظنه في حاجة كبيرة إلى من يخرجه من مأزق أوقعه فيه شيطان الجشع والطمع...

على خلاف الأستاذ صبحي، كان علي بك امرءاً بارد الأعصاب. لم تمح الابتسامة عن شفتيه ولا فارقته طلاقة الوجه وهو يرد على أبي منير. قال:

ـ هذه مسألة أخرى. سمعت من صديقي أمير شكوى من تحاملك عليه يا أستاذ صبحي. أمير إنسان طيب الجوهر وإن كان لا يعرف كيف يعامل الناس. وقد تحدثت في قضيته مع الأستاذ فياض فقال لي إنه ينتظر من عزيزنا المهندس أنور تقريراً حول بضعة أمتار من الأرض مختلف على ملكيتها بينه وبين بعض الفلاحين. من ناحيتي طمأنت أمير بأن ابن شاكر بك لن يكون إلا مع الحق والقانون.

كما أني نصحته، نصحت صديقي أمير، بملاينة بسطاء الناس هنا والتساهل في التعامل معهم. إنهم ضحايا الجهل والتخلف، ولَيس من الإنصاف أن نزيد بؤسهم بتعنتنا في معاملتهم لمجرد أن القانون معنا.

قال الأستاذ صبحي، وكأنه يستجر مخاطبه ليعرف منه قدر مداخلته في شأن أمير غزلان:

ـ عواطفك مشكورة تجاه بسطاء الناس هنا. لا بد أن صديقك الطيب الجوهر حدث سيادة المدير العام أمامك عن حكاية الدرب الذي منع هؤلاء البسطاء من سلوكه في تنقلاتهم اليومية.

فارقت الابتسامة شفتي علي بك وقال بلهجة جد:

ـ نعم، الدرب. ما قيمة هذا الدرب؟ مجرد ممر ترابي تعثرت سيارتنا اليوم والبارحة في حفره، صالح لمرور الحمير والدواب الأخرى فقط. قلت لأمير بشأنه: القانون ليس كل شيء يا صاحبي، وكثيراً ما يتنافى القانون مع الإنصاف، وأكثر منه تنافيه مع الأخلاق الطيبة. وقلت له: هؤلاء الذين يشتكون منك يا أبا أحمد... ما اسمهم؟ هل تعرف ماذا يسمّون يا أنور بك؟

أجاب أنور، وقد توجه السؤال إليه: نعم، إنهم السيّاد. السياد تعني السادة، جمع سيد بلهجة المنطقة هنا. ولكن ما أبعدهم عن السيادة يا علي بك!

عقّب الأستاذ صبحي على عبارة أنور، متسائلاً كالمحتج:

ـ ما بهم هؤلاء السياد؟

إلا أن علي بك لم يترك مجالاً للجواب على هذا التساؤل، فقد تابع كلامه قائلاً:

ـ قلت لصديقي: هؤلاء الذين يشتكون منك، السياد أو السادة، جيرانك... لهم عليك حق الجوار، ويحسن بك أن لا تمنعهم شيئاً لا يضرك ما داموا هم في حاجة ماسة إليه.

قال الأستاذ صبحي: نِعْمَ ما قلته لصديقك يا بك! إنها نصيحة ذهبية! ولكن اسمح لي بسؤال. هل حدثك السيد غزلان عن بيعه للدولة الأرض التي اشتراها قبل ثلاثة أشهر من هؤلاء السياد، وعمّا يدور حول صفقة ذلك البيع من شكوك؟

عادت الابتسامة إلى شفتي علي بك، وسكت لثوان قبل أن يرد على السؤال الموجه إليه. قال، بعد أن رشف أول رشفة من فنجان القهوة الذي وضعه الآذن بين يديه:

ـ شكوك؟ أمير لم يحدثني عن شيء من هذا. ولكن الأستاذ فياض، صديقي مديركم، تطرق إلى الكلام في هذا الموضوع في زيارتي له مع أمير. مجرد شائعات، على ما يبدو، ولا سند لها من الواقع. على كل حال أنا الآن في انتظار أمير الذي سيأتي من البلدة مصطحباً محاميه لنرى معاً الأستاذ فياض قبل أن أسافر. سيشرح المحامي للمدير العام مراحل شراء موكله للأرض من الفلاحين، ثم بيعه الدولة قسماً من تلك الأرض. عملية، على ما هو مؤكد، قانونية مائة بالمائة.

قال الأستاذ صبحي، بمكر: قانونية... نعم، نعم! لا تنس يا بك أن القانون ليس كل شيء، وأنه كثيراً ما يتنافى مع الإنصاف ومع الأخلاق الطيبة! هذا إذا كان العمل قانونياً مائة بالمائة. وما رأيك إذا كان هناك تحايل على القانون في معاملة السياد وفي التعامل مع الدولة؟

سكت علي بك لثوان أخرى قبل أن يقول، متظاهراً بالاستهانة بما يسمعه:

ـ معاملة السياد بالحسنى والكرم، على عيني. أنا أحبذها كل التحبيذ وأحثّ أمير عليها. أما الدولة...

وأطلق هنا ضحكته القصيرة التي بدأ بها حديثه أول ما دخل إلى غرفة الأستاذ صبحي، وأضاف:

ـ أما الدولة يا عزيزي الأستاذ صبحي، فماذا ينالك أنت منها حتى تتحامل من أجلها على أخينا أمير؟ راتبك وتقاعدك مضمونان ما دمت تعمل في أطر قوانين الدولة وتعليماتها. لن تستفيد من معاكسة التيار في مصالحها غير ما يوجع رأسك. أقول ما أقوله لك عن تجربتي الشخصية وتجارب الآخرين، ولمصلحة من أحبهم مثل حبيبنا المهندس أنور... ومثلك أنت يا أستاذ صبحي!

على الرغم من لهجة علي بك المهذبة، كان واضحاً أن أقواله كانت مبطنة بوعيد. تحركت عزّة الأستاذ صبحي إلا أنه لم يعقب على تلك الأقوال بشيء. كل ما فعله أن تطلع إلى أنور بنظرة طويلة كأنه كان يقول فيها: هذا ما هو منتظر من هذا البك! ولما طال السكوت في غرفة المكتب تناهض زائرها من جلسته وقال:

ـ شكراً على القهوة يا أستاذ صبحي، وعلى حسن الاستقبال. عليّ أن أودعك يا عزيزي المهندس. لا بد لي من أن أتحدث إلى الوالد الكريم بالهاتف ثم أزوره. ماذا تحب أن تحمّلني إليه من أحاديث وأخبار؟

حكّ أنور وراء أذنه متباطئاً في الجواب. لعلّه كان ينتظر تعقيباً من أبي منير، على تهديد الرجل المبطن، بواحدة من كلماته اللاذعة في

سخريتها. ولكن الأستاذ صبحي ظل ساكتاً، وكان لا بد لأنور أن يتكلم. قام من مقعده ليصافح الزائر المتهيىء للخروج وقال:

ـ أخباري عنده بانتظام. أشكرك على كل حال يا بك. سفر سعيد وبالسلامة إن شاء الله.

واستدار سائراً نحو الباب، فأغلقه وراء الرجل... هذا الوافد من العاصمة ليعزز الجبهة المضادة لهما، الأستاذ صبحي وهو المهندس أنور، والمضادة كذلك للسياد، وللدولة معهم ومعهما.

انبسطت أسارير الأستاذ صبحي وهو يترك مجلسه وراء المنضدة ليقتعد كرسياً آخر بعيداً عنها، وقال:

ـ هكذا إذن... يخوفنا البك بوجع الرأس! يقول المثل: أنحس من القرد ما مسخ الله... وأنا أقول: أبعد من هذه البقعة التي لم يحتمل حضرته البقاء فيها أكثر من ليلة واحدة، لن يجد بقعة أخرى ينقلنا إليها! أقواله تثيرني. سيعرف من الذي سيصاب بوجع الراس منا. إلى الأمام، عليهم يا أنور!

ضحك الفتى من لهجة صاحبه، المزيجة من السخرية والتحدي، وقال:

ـ ألم أقل لك إنك تصلح قائد عسكر تتقدمهم إلى المعركة؟ على كل حال هو لم يهددنا إلا بعد أن أحرجته بإصرارك على ترديد العبارات التي تفوه بها واستخدامك إياها لتهديم حججه. كان رقيقاً ومهذباً في كلامه، على الأقل في أول الحديث.

قال الأستاذ صبحي: إن الأفاعي وإن لانت ملامسها... المهم أننا أحرجناه فأخرجناه. أخرجناه إلى الاعتراف بأنه جاء داعماً لأمير في باطله. هذا لا يهم. الحق معنا...

سكت أنور قليلاً قبل أن يقول:

ـ هل تذكر يا أبا منير ما سألتك عنه قبل أن يشرّفنا علي بك بزيارته؟ عن الموضوع الذي تحدثت به السيدة شاهناز؟

أجابه الأستاذ صبحي بعجلة: أذكر يا أنور... أذكر. قلت لك إنه حديث نسوان لا يليق بنا أن نتلهّى به عما هو أهم. أشرت عليك بأن تقبل دعوة أخينا شكيب، إذا كررها، وأن تتعرف على أفراد أسرته. هذا كل ما أريد أن تسمعه مني الآن. ربما كان هذا مهماً، على الأقل بالنسبة إليك، أما الأهم فهو أني أنتظر أخباراً من صديق لي في البلدة بعثت إليه مستفسراً عن شكليات شراء مديرية الصناعة الزراعية أرضها من رجلنا غزلان. سيأتيني الجواب في هذين اليومين. وأهم من هذا وذاك أن تقوم أنت بزيارة الآنسة أسمهان لتشرب عندها في المكتب فنجاة قهوة...

سأل أنور، مستغرباً: الآنسة أسمهان؟ لماذا؟

ابتسم الأستاذ صبحي وقال: كل الأسرار تجدها عند هؤلاء الفتيات الطيبات، سكرتيرات المسؤولين الكبار. بعد قليل تعقد جلسة في مكتب المدير العام يحضرها غرماؤنا: علي بك وأمير غزلان ومحاميه. ستفتح أسمهان الباب لهم في الدخول وتغلقه وراءهم عند الخروج، وستسمع من أحاديثهم نتفاً عند إدخالها فناجين القهوة لهم وعند إخبارها الأستاذ فياض بمن ينتظر مقابلته أو محادثته على الهاتف. الآنسة أسمهان ذكية ومرحة، ولا بد أنك لاحظت كم هي تعزّك.

ابتسم أنور وقال: فهمت... فهمت يا معلمي. ثم إن لي عندها بقية كلام عن الأقاويل التي تتناولني بالخير وبالسوء في استقبالات خالتي أم منير. متى تريدني أن أمر بمكتب سكرتيرة المدير العام؟

أجاب الأستاذ صبحي: عندي علم بأن الأستاذ فياض سيغادر مقره إلى جولة في القطاع الشرقي في الثانية عشرة والنصف تماماً. تستطيع أن تذهب لشغلك في مصلحة النقل وتعود بعد مغادرته مكتبه إلى تلك الجولة. أسمهان ملزمة بالبقاء حتى الواحدة والنصف، وربما أكثر، على رأس عملها. أنا في انتظارك، ولعلها هي كذلك في انتظارك.

الفصل الثالث

- ١ -

من أنور إلى سميرة

سمّورتي العزيزة

بعد التحيات... أعرف، ستقولين ما هذا التدليل في مخاطبتي؟ ليس من عادته أن يناديني هكذا! اعذريني. أشعر، بعد أن انتهيت من قراءة رسالتك الأخيرة بأن عليّ أن أطير شوقاً إليك. ولهذا ترين أن لهجتي أصبحت بالغة الخفة. من وزن الريشة، كما يقول أهل الرياضة. إنهم يتهمونني هنا بالجدية الزائدة عن الحد لمن هو في سني. ربما بوقار الكهول والشيوخ. ولكنهم لا يعرفون كيف أعود خفيفاً، بل طائشاً، حينما أفكر بك وأتحدث إليك... أعني حين أكتب إليك!

ولكن يا سميرة، يا عزيزتي، لا تظني أني أقول هذا فرحاً بما كتبته لي عن حكاية نقلي. سبب فرحي هو أني ظفرت برسالتك بعد طول انتظار. لماذا هذا التأخر في الرد على آخر مكاتيبي إليك؟ هل هو لثقل برنامج النصف الأول من العام الدراسي، أم أن هذا العام من أعوام الكلية من الكثرة والتعقيد بحيث يشغل الحبيبة عن محبها؟ أعود إلى حكاية النقل. بدا لي أنها سرّتك كثيراً، وهي جديرة بأن

تسرّني أيضاً. النقل للموظف، أياً كانت الوظيفة التي يتولاها، أمر مفترض أو متوقع. وهو حتمي لمن له ظروفي أنا. إذن هو شيء طبيعي. وتدور على ألسنة عمال الدولة في كل زمان الكلمة التي تقول: كل حال يزول وكل موظف منقول... أو معزول! إلا أن حدوث نقلي أنا، لو حدث في هذه الأيام، لن يكون بطلب مني ولا برغبتي الشخصية، كما أنه لن يكون في جانب المصلحة العامة. لذلك فأنا لا أريد له، في هذه الأيام، أن يحدث!

أتوقع أنك، لقراءتك هذه الكلمات، تزمين شفتيك الآن كما كنت تفعلين كلما حاولت إقناعك بصحة آرائي في محاوراتنا. أتوقع أنك تقولين: مصلحة عامة... كأن المصالح العامة يا مسكين واقفة كلها على رأسك وقوف الكرة الأرضية على رأس الثور! هذا بدلاً من أن تشكر لتلميذ والدك، الرجل النبيل الذي اسمه علي بك، سعيه في نقلك إلينا في أسرع وقت...

ترين كيف أتصور تصرفاتك وأتوقع أقوالك وأنت على بعد مئات الكيلومترات مني. وإنما يحسن بي أن أشرح لك، لكي تعذريني، خوافي الأمور التي لا تعرفينها. لعلمك، إن الرجل الذي اسمه علي بك ليس من النبل بحيث ظننت. قد يكون تلميذاً لأبي، وقد يكون ذا نفوذ يقدر به أن ينقلني من منفاي، كما تسمينه أنت أحياناً، إلى إدارة المشروع الجديد في الغوطة الشرقية. ولكن لا تصدقي أنه يفعل ذلك تقديراً لفضل والدي عليه. إنه يفعله، إذا تمكن حقاً من أن يفعله، ليخلص مني ومن خسائر يجرّها وجودي هنا على واحد من أصدقائه، أو عملائه. هذا الواحد هو رجل بشع اسمه أمير غزلان.

لعل هذا الاسم لم يمّح من ذاكرتك. كتبت لك مرة عن حكاية

حامله مع بعض الفلاحين هنا. وأحسبك سمعته مني مرة عندما كنت بينكم في فترة العيد. تذكّرك له يعيدك إلى النصيحة التي سقتها لي ذات مرة، حين قلت إن أمثال هذا الرجل لا يقاومون. حسناً... أنا وأبو منير، الأستاذ صبحي، وجدنا أنفسنا مضطرين إلى مقاومة أمير غزلان. لا نفعل هذا لثأر شخصي بيننا وبينه، ولكن لأن المصلحة العامة، التي زممت شفتيك عند قراءة اسمها، تضطرنا إلى ذلك... تضطرنا أنا ومعلمي الأستاذ صبحي.

لا أريد أن أصدع رأسك بحديث طويل عن المشكلة التي خلقها لنا، ثم لنفسه، الإنسان الذي اسمه غزلان. بدأ الأمر بأنه اشترى من جماعة سذج من أهل هذه الناحية التي نعيش فيها أرضاً بسعر يقل كثيراً عن سعرها الحقيقي. غفلة منهم وشطارة منه. لو اكتفى بهذا لقلنا: هنيئاً له، وذنبهم على جنبهم! ولكنه تعدّى حده بأن سدّ ممراً ضيقاً في أرض مترية في وجوه أولئك السذّج حائلاً بينهم وبين سعيهم وراء لقمة العيش في العمل والتنقل. تحايل في الوصول إلى ذلك على القانون ظاناً أنه يعطيه الحق في استغلاله هؤلاء المساكين. من هنا فتح لنا الباب لندخل نحن، صبحي وأنا، في هذه القضية.

مرة ثانية أتوقع تعليقك على ما أرويه لك. ستقولين: هل أنتم قضاة لتحكموا لهذا بأنه محق، وعلى ذاك بأنه مبطل؟ وقد تقولين: إذا كان هناك خلاف بين فريقين فالأمر مجرد مصالح شخصية... أين إذن المصلحة العامة التي تدعي أنك وصاحبك الأستاذ صبحي تتدخلان لصونها؟

على مهلك... ستجدين عندي لكل سؤال تطرحينه جواباً. شخصياً دخلت في القضية لأن الرجل أقحمني فيها إقحاماً. علّق

على مدخل الدرب الذي يريد منع سير الناس فيه لافتة تفقأ العين بكبرها وبغلظ الخط فيها. كتب عليها بأن الدرب مسدود بأمر رئيس مصلحة النقل في مركز الاستصلاح. ومن هومدير مصلحة النقل يا عزيزتي؟ هل تعرفين؟ إنه أنا خادمك المطيع! تجرأ ذلك الرجل فادّعى أني أنا سددت ذلك الممر أو أمرت بسده. بهذا الشكل أقحمني في مشكلته، كما قلت لك، إقحاماً.

أما إذا سألت عن علاقة المصلحة العامة بهذا، فإني أجيبك. أقول: حتى إذا لم تعتبري الانتصار لحق الضعفاء في هذا العالم من المصلحة العامة فإن السيد أمير غزلان قد اعتدى على تلك المصلحة حين ضحك على ذقن الدولة. ضحك عليها حين باعها أرضاً ثمن مترها المربع ليرة أو ليرتان بمائة وست عشرة ليرة للمتر الواحد. ليس متراً مربعاً واحداً، بل عشرات الآلاف من الأمتار المربعة. ألا توافقينني على أنها جريمة بحق المصلحة العامة أن يسرق هذا الرجل من جيبي وجيبك مئات الآلاف من الليرات ثمن أرض سعرها آلاف قليلة، واشتراها هو بيضع مئات من الليرات فقط؟ من هنا وجدنا أيضاً، الأستاذ صبحي وأنا، أن علينا أن نتدخل... فتدخلنا.

قلت لك إني لن أصدع رأسك بهذه المشكلة، ومع ذلك فعلتها! عليك إذن أن تتحملي قراءة هذه السطور التي أصبحت صفحات. أنت دفعتني إلى كتابتها بوصفك علي بك بأنه رجل نبيل. علي بك يا عزيزتي هو صديق أمير غزلان، أو شريكه، وربما كان «زلمته»، أي خادمه المأجور، كما يسمون أمثاله. وعلي بك، حين علم بأن تقريري الذي أقدمه إلى مديرنا العام يدين صديقه، لا في قضية الدرب المختلف عليه وحدها، بل إنه يستدعي فسخ صفقة شراء الأرض من قبل الدولة... حين علم علي بك بهذا سعى لنقلي

من هنا. سعى إلى ذلك قبل أن تدخل معلومات التقرير مرحلة تنفيذ ما تدعو إلى تنفيذه.

هذا ما لزم عرفناكم به يا عزيزتي. وهو ما جعلني أقول إن نقلي في هذا الوقت على ما فيه من تقريب لي منك، لا يسرّني كثيراً. سيكون إجراء في غير جانب المصلحة العامة، وليس في جانب مصلحتي الخاصة، وحتى إنه لن يكون في جانب مصلحتك أنت يا عزيزتي. ستقولين: كيف؟ أتظنين أني سأتركك تفهمين كلمة واحدة من مقررات عامك الدراسي لو أخذت مكاني إلى جانبك في هذه الأيام؟ اصبري عليّ إذن شهرين أو ثلاثة لتتأمن أمورنا كلينا. تنجحين أنت في امتحاناتك، وأنجح أنا في إنصاف المستضعفين وإعادة حق الدولة وما لها إلى نصابهما...

أوه... نسيت شيئاً مهماً لا بد من إخبارك به. ولكني أشفق على وقتك الثمين، المشغول بدراسة آثار راسين وفيكتور هوغو وشارل دوغول، من أن يضيع في الاستماع إلى أنباء آخر زياراتي لحلب، وبصورة خاصة عما رأيته وسمعته في دار صديق والدي، الحاج نعمان. في هذه الزيارة كانت الأسرة مجتمعة بكافة أفرادها، بدءاً برأسها الحاج المبجل وانتهاء بالفتى المدلل السيد ربيع. سأعفيك اليوم من هذا وأتركه للرسالة القادمة.

للمرة الثالثة سأقول لك ما يدور بخاطرك. تريدين أن تقولي لي: أنت شيطان... تعرف أن هذه الأخبار التي تحجبها عني أهم عندي مما ملأت به الصفحات السابقة من كلام على المدعو غزلان ومشاكله مع الفلاحين. ولكنك تريد أن تقلّد كتاب الروايات المتسلسلة، فتقطع حديثك عند ما يهمني وتشوقني معرفته! إذا صحّ

هذا يا عزيزتي فإنه يرضيني. ذلك يعني أنك إذا لم تكوني في شوق إليّ، فإنك ستشتاقين إلى رسائلي...

فإلى رسالتي القادمة إذن. وأنا لن أخط منها حرفاً قبل أن أقرأ تعليقاتك على هذري في هذه، مصحوبة بأخبارك الطيبة ومطيبة بأنفاسك العطرة. وتقبّلي قبلات محبك:

أنور

ـ ٢ ـ

زيارة حلب التي أشار إليها المهندس أنور في رسالته السالفة إلى خطيبته حدثت بعد بضعة أيام من مرور علي بك على مكتب الأستاذ صبحي ومغادرته المركز رقم ٦ عائداً إلى دمشق. وفي تلك الرسالة قصر المهندس كلامه على تبرير تدخله في مشاكل أمير غزلان، فلم يتحدث عن أخبار الأيام التي قضاها في حلب ومقابلته لأفراد أسرة الحاج نعمان وللمحامي شكيب مجد الدين. بل إنه، حتى في حديثه عن قضية الدرب والسياد المساكين، لم يخبر خطيبته بما كان يحب أن يخبرها به من اكتشافه هو وصاحبه معلومات جديدة ستنفعهما في إثبات وجهة نظرهما وتحقيق ما يرميان إليه في مواجهتهما لذلك الرجل.

والصحيح أن الذي اكتشف تلك المعلومات لم يكن أنور بنفسه بل الأستاذ صبحي. توصل هذا إلى اكتشافها بمثابرته وحسن اطلاعه على سير الأمور في الدوائر الرسمية، وبعلاقاته المتينة بالقائمين على مختلف المصالح في المركز القريب والمحافظة البعيدة. أما أنور فإن أول معرفة له بذلك الاكتشاف كانت حين رن جرس الهاتف في مكتبه بعد ظهر أحد لأيام، قرب انتهاء الدوام، وكان المتكلم الأستاذ صبحي. قال هذا بلهجة المستعجل:

ـ آلو... أنور يا حبيبي... اجعل طريقك عليّ عندما تترك الرحبة. لا تستعجل في الذهاب إلى المطعم.

تبادر لخاطر أنور أن أم منير طلبت إلى زوجها أن يستصحبه لتناول الغداء معهما. قال:

ـ لا أستطيع يا أبا منير. الشباب ينتظرونني لنتغدّى معاً. إنها حفلة وداع زميلنا المهندس نجم الدين الذي سيفارقنا إلى مركزه الجديد بعد غد.

ردّ الأستاذ صبحي بقوله: لا يزال هناك وقت قبل تجمع الشباب. يجب أن أراك الآن، فعندي لك خبر يفتح شهيتك عندما تتغدى مع أصحابك.

ليس الأمر إذن دعوة من أم منير، قالها أنور لنفسه. وحين دخل المكتب على الأستاذ صبحي وجده قد بسط مجموعة من الأوراق أمامه، ينقل إصبعه على سطور واحدة منها. بادره بالقول:

ـ أعلمتك أننا لا بد واجدون مطعناً في عمليات البيع والشراء لأراضي أمير غزلان. هذا هو. كثر الله خير أصحابنا في مجلس المحافظة. واحد منهم محروق قلبه، مثلي ومثلك، من تجاوزات المتنفذين على البسطاء والمساكين زودني بهذه الأوراق. إنها صور لبعض المعاملات الرسمية. تفضل وألق نظرة عليها.

قلّب أنور تلك الأوراق متمعناً في محتوياتها، واستمع إلى الأستاذ صبحي مبيناً ما استنتجه من قراءتها فوجد أن المعاملات فيها تتضمن نقاطاً لا شك في ضعفها. إلا أن فائدتها في إلغاء العقود المذكورة فيها تحتاج إلى ملاحقة وجهد غير قليل. وتحتاج بصورة

خاصة إلى إقناع المراجع العليا بوجوب إعادة النظر في معاملات نفذت بنودها وأصبحت جزءاً من الواقع.

أبرز نقاط الضعف التي بدت لأنور، بعد الأستاذ صبحي، كان في الإعلانات المفروض، قبل توقيع الصفقة مع أمير غزلان، أن تعلق وأن تنشر في أمكنة محدودة وبتوقيت معين. هذه الإعلانات، عن رغبة مديرية الصناعة الزراعية في شراء أرض وصفات هذه الأرض، علقت في الإدارة المركزية في العاصمة كما تقضي أحكام القانون، ولكنها لم تعلّق في المديرية الإقليمية كما تقضي الأحكام أيضاً. وكان على المديرية المشترية أيضاً أن تنشر هذه الإعلانات في دوريتين معروضتين لاطلاع عامة القراء في العاصمة والمدن الأخرى. ولكن الذي حدث هو أنها ظهرت في صحيفتين من نوعية غير النوعية المنصوص عنها. ظهرت تلك الإعلانات أولاً في مجلة أسبوعية قراؤها نخبة المثقفين الذين يقل اهتمامهم بالأخبار العامة وبأمور البيع والشراء، ثم في جريدة يومية تصدر في محافظة مبعدة، سيئة الطباعة والإخراج، لا يفيد ظهورها فيها الغاية المطلوبة من الإعلان.

رفع أنور رأسه عن الأوراق على المنضدة وسأل صاحبه:

ـ هل تظن يا أبا منير أنّ رؤساءنا سيجدون في هذه المخالفات الشكلية مبرراً لإعادة النظر في أمر شراء الأرض وإلغاء صفقة البيع؟

أجاب الأستاذ صبحي: القانون هو القانون. إذا وجد من يؤمن بوجوب تطبيقه في كل الأحوال وعلى كل الناس فإن هذه المخالفات الشكلية، كما تسميها أنت، تكفي لأن تكشف أيّ طبخة ملغومة طبخها أمير غزلان حتى باع الدولة متراً مربعاً قيمته ثلاثة فرنكات بمائة وست عشرة ليرة.

اعترضه أنور قائلاً: أو أنه دفع ثلاثة فرنكات للسياد المغفلين في ما ثمنه مائة وست عشرة ليرة. سرقهم في كل متر مربع مائة ليرة وخمس عشرة ليرة وخمسة وثمانين قرشاً!

علت شفتي الأستاذ صبحي ابتسامة رضى وهو يقول:

ـ تماماً. أرانا، أنا وأنت، تقاسمنا هم هذه القضية. أنت يهمك السياد والظلم الذي نزل بهم، وأنا تهمني الدولة والغش الذي كانت ضحيته. وإنما علينا أن نفهم أننا، أنت وأنا، لا نكفي وحدنا لبلوغ ما نسعى إليه. هل تذكر ما قاله لك الأستاذ فياض يوم ذهبت لتهنئته بالعيد؟

أجاب أنور: قال لي، عن أمير غزلان، إن التجاوزات التي يقوم بها أمور لا يسكت عنها. وقال إنه، أي المدير العام، يعتمد عليّ في كشف تلك التجاوزات في تقرير مفصل أرفعه إليه.

أضاف الأستاذ صبحي: وقال لك أيضاً إن المراجع العليا ستكون معك في حالة كشفك للتلاعب. أليس كذلك؟! إذن عليك أن تهيىء التقرير مستنداً إلى هذه المعلومات. هذا هو المطلوب منك.

ابتسم أنور بدوره، وقال: حاضر يا معلمي. ولكن أتراني أستطيع أن أخطو خطوة، في كتابة التقرير وفي غيرها من الأمور، بدون معونتك وإرشاداتك؟ ثم يا معلمي...

قال هذا وسكت. سأله الأستاذ صبحي: ثم ماذا؟

أجاب: أقصد أن المعلومات التي بين أيدينا تفيدنا في كشف الضرر الذي أصاب خزينة الدولة. وقد تؤدي إلى إحالة المتورطين بغشها وسرقتها إلى التفتيش ثم إلى القضاء. ولكن الضرر الذي أصاب

السياد كيف نتوصل إلى رفعه؟ أنت قلت إني شخصياً مهتم بمصلحة السياد...

قال أبو منير: ولا عليك. اعتمد عليّ. خلنا نبدأ بالثور الكبير فنوقعه، وبعد ذلك لكل حادث حديث. خذ هذه الأوراق معك. تجد فيها نصوص شروط التعاقد، وصورة الإعلانين المنشورين في الصحيفتين اللتين ذكرتهما، وملاحظات أخينا الذي زودني بكل هذا. طبيعي أنه حريص على أن لا يذكر اسمه في الموضوع. وستسمح بلا شك بأن ألقي نظرة على مسودة التقرير. والآن تفضل وانصرف إلى الذين ينتظرونك على الغداء...

كل هذه تفصيلات أحب أنور أن يضمنها رسالته إلى خطيبته إلا أنه وجد أنه أطال في الكتابة أكثر مما يجب. أما ما أنهى به تلك الرسالة عن أشياء مهمة ادّعى أنه نسي إيرادها، فما كان الأمر منه نسياناً، بل تناسياً. أو، على الأصح، كان تهرباً. ما كان واثقاً من قدرته على أن يروي لها كل ما مرّ به في سفره الأخير إلى حلب، وهو سفر فرض عليه فجأة بينما كان منصرفاً إلى تهيئة تقريره العتيد.

فرض عليه ذلك السفر بأمر مهمة جاء من المدير العام مباشرة، عليه فيها أن يقوم بتسلم آليتين كبيرتين جديدتين تضافان إلى آليات الرحبة، وأجهزة فنية متنوعة تخص مصالح المركز الأخرى. الآليتان وصلتا مؤخراً من طرطوس وهما موجودتان في المرآب العام في حلب في انتظار استلامهما لصالح المركز رقم ٦. أما الأجهزة فعليه القيام باستلام بعض منها وشراء بعض آخر من مستودعات باعة متفرقين في المدينة. جاءه أمر المهمة هذا على غير انتظار، فاستشار

الأستاذ صبحي في أن يوكل الاستلام إلى المعلم شاهين وينصرف هو إلى كتابة تقريره. لم يوافق أبو منير على ذلك وقال له:

ـ هناك استلام وهناك شراء. لا بأس في أن يرافقك المعلم شاهين، ولكن الأمر معهود إليك ولا يصح أن تكله إلى غيرك. أما عن التقرير، فلا عليك. يمكن لتقريرك أن ينتظر ثلاثة أيام أخرى أو أربعة. ربما استطعت أن أزيدك معلومات تفيدك في كتابته في هذه الأيام، سافر إذن. على الأقل لتسلم لي على شكيب، إذا لم تكن مشتاقاً إلى رؤية السيدة الفاضلة شاهناز وأبنائها المدللين. ثم لا تنس أن أمامك، عند رجوعك، عودة إلى رؤية الآنسة أسمهان. لم تعطك في تلك المرة كل المعلومات عن مقابلة علي بك ومرافقيه لمعلمها. لعل مكتبها يكون أقل ازدحاماً في المرة القادمة فتتبسط معك في الحديث.

امتدت إلى أربعة أيام، كما قدّر الأستاذ صبحي، إقامة المهندس أنور في حلب، وهو الذي كان يتوقع أن ينهي مهمته في يوم أو يومين. كان لا بد من مراجعة الدوائر لإجراء كشوف والحصول على موافقات وأخذ تواقيع مسؤولين قبل استلام الآليتين، وهما بلدوزر مجنزر ورافعة شوكية، والأجهزة الالكترونية والحواسب الدقيقة الأخرى. أغلب الملاحقات كان يقوم بها المعلم شاهين منذ الصباح حتى انتهاء الدوام الرسمي، ولكن كان لا بد من وجود أنور بذاته في أكثر الأحيان للمشاهدة والتوقيع. أما فترة بعد الظهر حتى الصباح التالي، فقد كانت وقتاً حراً بالنسبة إليه. لم يبدأ بالاتصال بدار الحاج نعمان لأنه كان واثقاً بأن صديق أبيه والسيدة زوجته لن يتركا له مجالاً للتصرف بوقته حالما يعلمهما بوجوده في بلدتهما. لذا فضل أن يمرّ في مساء اليوم التالي لوصوله على الأستاذ شكيب

مجد الدين في مكتبه، ليجدد العهد به ولينقل إليه تحيات الأستاذ صبحي. كما إنه لم ينس إلحاح هذا الأخير عليه في أن يبحث عن الحقيقة حول ما سمعه من أقاويل تمس سمعة صاحبه، بأن يرى هذا الصاحب نفسه وبأن لا يتردد في قبول دعوته إلى التعرف على أفراد أسرته.

قال الأستاذ شكيب، وهو يفتح ذراعيه بطولهما مرحباً:

ـ وأخيراً فكرت بنا يا أستاذ أنور. منذ متى لم تشرّف حلب الشهباء بزيارتك؟

تورد وجه أنور، كأنه فوجىء بالترحيب الحار الذي نطقت به لهجة المحامي وباندفاعه في استقباله. صافحه واتخذ مجلسه على الديوان العريض إلى جانب المنضدة ورد على السؤال قائلاً:

ـ الصحيح يا شكيب بك أن عملي جاء بي مرة أو مرتين في الشهور القليلة الماضية إلى مدينتكم الجميلة. ولكن ضيق الوقت لم يسمح لي بإزعاجك في المرور عليك. أرجو المعذرة على تقصيري.

أشار المحامي بيده إلى الرجل الذي كان واقفاً أمام منضدته يعرض عليه ملفاً كان في يده، وهو بلا شك معاونه في المكتب، داعياً إياه إلى الانصراف، وقال وهو يجلس إلى جانب زائره:

ـ إزعاجي؟ أنت تظلمني في هذا. أخشى أن أخانا صبحي حذرك من التردد عليّ لئلا أخطفك منه. كيف حاله؟

أجاب أنور: على أحسن حال، وأنا أحمل إليك تحياته وشوقه إلى أن يراك. عمله المتواصل لا يسمح له بذاك.

قال الأستاذ شكيب: عمله! إنه ينبش الأعمال من باطن الأرض إذا لم يجدها على ظهرها. ستحدثني عما يشغله في هذه الأيام. وقبل

ذلك أسألك عما إذا كان ما يشغلك عن زيارتي هو ترددك على أصحاب لك آخرين... أسرة الحاج نعمان مثلاً. الحاج نفسه هنا منذ أسابيع.

قال أنور: رأيته مرة واحدة في عودتي من دمشق بعد عطلة العيد. كان لا بد من ذلك، فهو صديق قديم لوالدي.

قال المحامي: حسناً فعلت. لا ألومك على هذا، ولا تظنني في ما أخبرتك به عن الشائعات التي تدور حول غيباته الطويلة أحمل في نفسي شيئاً ضده. كانت لي به علاقة عمل ثم انقطعت. وما زلت وكيلاً لابنه في دعاوى تنظر في محاكم الساحل. ما هي انطباعاتك أنت عنه؟

أجاب: كما قلت لك... هو صديق أبي الحميم، ولا بد أن يكون انطباعي عنه جميلاً حتى لو أن مقابلته لي كانت دون ما كانت عليه من الحفاوة. بالغ بالترحيب بي ولم يشعرني بأني غريب عنه.

ابتسم الأستاذ شكيب وهو يسأل: والأسرة الكريمة؟ لا بد أن احتفالها بك ازداد في حضور صديق أبيك. السيدة شاهناز مثلاً...

أحس الفتى بشيء من الضيق الذي أحس به حين أدارت زوجة الحاج نعمان الكلام عن المحامي وزوجته في تلك المرة بصورة لم تعجبه آنذاك. لم يشأ أن يتمادى في الحديث في هذا الاتجاه فغمغم بكلمات غير مفهومة. قال المحامي:

- حسناً. لا أريدك يا عزيزي أن تخرج عن تهذيبك برواية أشياء غير مرضية عن الآخرين. أذكر في المرة الفائتة أنك أخبرتني عن مشكلة بين متنفذ ومستضعفين في مقر عملك، شغلتكما أنت

وصبحي. كنت متألماً لما أصاب أولئك المستضعفين. هل توصلتما إلى إنصافهم؟

فرّج هذا السؤال عن أنور ما تملّكه من ضيق، فسارع في الإجابة عليه قائلاً:

ـ نحن في طريقنا إلى ذلك. أبو منير واثق من النتيجة، إذا سارت الأمور في مسارها الطبيعي. ولكني لست مثله في التفاؤل. لديّ بعض الشكوك...

قال الأستاذ شكيب: صبحي إنسان عنيد، ويبالغ في عناده أحياناً. ما هي شكوكك أنت؟

أجاب أنور: الرجل الذي اسمه أمير غزلان اشترى أرضاً من الذين وصفتهم أنت بالمستضعفين بمبلغ ضئيل، وباعها من إحدى مؤسسات الدولة بمبالغ خيالية. مضى على هذا وذاك عدة شهور. يطمع أبو منير في أن يلغي العمليتين، أو الأخيرة منهما على الأقل، لأنه اكتشف مخالفات قانونية في المعاملات التي تم بها الشراء والبيع. من ناحيتي أود لو عرفت رأيك في قيمة هذه المخالفات في فسخ عقود مبرمة ومنفذة.

تطلع المحامي إلى ساعة يده قبل أن يقول: سأعطيك رأيي إذا أعطيتني تفاصيل المخالفات التي تذكرها. ولكن ليس الآن. نتم حديثنا في طريقنا إلى النادي.

قال أنور متسائلاً: النادي؟

أجاب المحامي: نعم. لا تعتذر. انتهى عمل المكتب ولا تزال أمامنا ساعتان إلى موعد العشاء. كنت أحب أن تجيء في غير اليوم.

الأولاد مع أمهم غائبون عن البلد في زيارة جدهم في إدلب، وإلا لكنت أخذتك معي إلى البيت.

مرة أخرى تبدد ضيق كان يركد في أعماق نفس أنور، مبعثه الزيارة التي أشار عليه الأستاذ صبحي بأن يقوم بها لأسرة المحامي، على غير رغبة منه. هذه الزيارة لن تتم اليوم إذن! تابع الأستاذ شكيب قائلاً:

ـ سيأسف الأولاد لمجيئك في غيابهم. كانوا في شوق إلى رؤيتك حين حدثتهم عنك بعد لقائنا الفائت.

قال أنور: أنت وأبو منير تغاليان في حسن ظنكما بشخصي.

قال المحامي، وهو يأخذ بيده ويتهيأ للقيام: أنت إنسان يحبك كل من يعرفك يا حضرة المهندس المتواضع. سآخذ نفس أركيلة في النادي واستمع إلى عناصر الاستشارة التي تريدها مني. أما العشاء فنتناوله في مطعم افتتح جديداً، ودعايته في البلد كبيرة. ما رأيك؟

أصبحا على رأس الدرج، خارج المكتب الذي ترك الأستاذ شكيب معاونه فيه بعد أن زوده ببعض التعليمات. قال أنور في محاولة للتهرب من دعوة العشاء:

ـ النادي، نعم يا شكيب بك. ولكن عن العشاء، أرجوك...

قاطعه صاحبه قائلاً: مرة أخرى لست أقبل منك اعتذاراً. نحن، معشر المحامين، لا نفتح أفواهنا إلا بثمن. عشاؤك معي هو ثمن رأيي في المعضلة التي تستشيرني فيها. تفضل. أنت تعرف أن النادي لا يبعد كثيراً من هنا.

ـ ٣ ـ

كان رأي الأستاذ شكيب مقارباً لما رآه الأستاذ صبحي حول

إمكانية فسخ عقد شراء الأرض من أمير غزلان بناء على المخالفات التي عددها له أنور. وحدها هذه المخالفات تكفي للفسخ، بشرط أن يتبنى المسؤولون الكبار القضية فيلاحقوها ولا يتركوا مجالاً للتدخلات المشبوهة. لذلك لا بد، على ما يراه الأستاذ شكيب، من معرفة مدى النفوذ الذي يتمتع به الرجل الذي اسمه علي بك، ومدى قدرته على وضع العصي في عجلات سير القانون. فالرجل لم يأت من دمشق إلى ناحية المركز رقم ٦ إلا لهذه الغاية. وكل شيء محتمل الوقوع في أمور، مثل هذا الأمر، طالما غض النظر فيها عن مخالفات أكبر خطراً من التي ارتكبت في صفقة الشراء هذه.

قال الأستاذ شكيب، مدللاً على صحة أحكامه في الموضوع، وكان قد أنهى نفس أركيلته في النادي ولف حبلها عليها:

ـ لعلك تذكر الحكاية التي رويتها لك قبل أن نفترق تلك الليلة... حكاية المهندس المحبوس بتهمة محاولة الرشوة؟

عادت إلى ذاكرة أنور تلك الحكاية وحواره مع مضيفه بشأنها بعد سهرتهما في هذا النادي نفسه. قال:

ـ أذكرها جيداً... عن السيدة الشابة التي جاءتك لتسعى في إطلاق سراح ابن عمها المسجون بتهمة محاولة رشوة موظف كبير. وأذكر كذلك أني أنكرت عليك قبولك التدخل بالطريقة التي تكلمت عنها آنذاك.

تنحنح الأستاذ شكيب، كأنه بذلك يكتم ضحكة لا يريدها أن تنطلق، وقال:

ـ ترى هل خف إنكارك عليّ بعد ممارستك الحياة العملية هذه الأسابيع الكثيرة، أم أنه زاد؟ أقول لك الآن إن مساعيّ في الافراج

عن المهندس عدلي من معتقله، أفلحت في حينها. هل ذكرت لك قبل الآن أن اسمه عدلي؟

أجاب أنور: لا. لم تسمّه لي حين رويت لي القصة.

فتابع المحامي كلامه قائلاً: لا يهم. اسمه عدلي. كان في تلك الحادثة مظلوماً. أو، على الأقل، لم تكن في حادثته عناصر جرمية كافية لتجعل منه متهماً. نجحت وساطتي في إطلاق سراحه قبل أن تجري محاكمته، بل وقبل أن يحال على التحقيق.

قال أنور: أنقذته إذن من عواقب ظلم نزل به. وفي هذه الحالة يتوجب عليّ أن أعفيك من العتب ومن الاستنكار.

ارتسمت ابتسامة عريضة على شفتي الأستاذ شكيب وهو يقول:

ـ ولكني يا عزيزي دفعت ثمن ذلك الإنقاذ. لم تنجح وساطتي إلا بعد دفع الثمن. دفعت واقعياً رشوة، لا أعين لك مبلغها ولا أسلوب دفعها، لقاء إلغاء ملاحقة برشوة لم تقع مطلقاً، بل إن صحة محاولتها لم تثبت!

سكت أنور لثوان، شبه حائر في ما يجب أن يحكم به على عملية مخاطبه، ثم ما لبث أن سأل:

ـ ماذا تريد أن تقول لي يا شكيب بك؟

قال المحامي وهو يقوم من مقعده متهيئاً لمغادرة النادي، غير راد على السؤال مباشرة:

ـ أجعتك. حان وقت العشاء. المطعم قريب من هنا أيضاً، نقصده على الأقدام وتسمع مني الجواب على ما تسأل ونحن نسير.

على أن الأستاذ شكيب لم يعد إلى موضوع تلك الحكاية إلا حين بلغ مع أنور ذلك المطعم واتخذا مكانهما فيه. في الطريق إليه راح

يسأل ضيفه عن أخبار عمله وعن الناس الذين يخالطهم في مكان إقامته، وعن الأستاذ صبحي وتقلبات مزاجه. كما سأله عن مدى علمه بالمشاحنات التي تجري بين صاحبه هذا الأخير وبين زوجته أم منير، والتي كثيراً ما كانت مبعث التعليقات الضاحكة عليه حين كان مقر عمله في المدينة هنا، حلب. ترك أنور لمضيفه أن يتحدث على هواه وراح يجيبه على ما يسأله عنه في طواعية وطلاقة وطيب نفس، إلى أن ارتد هو بذاته إلى الموضوع الذي سأله عنه حين خرجا من النادي. قال:

ـ عمّا أريدك أن تعرفه حين أخبرتك عن نجاحي في إطلاق عدلي، أجيبك بأني لم أقدر على تعديل الاعوجاج إلا باعوجاج مثله. عدّلته بما يخالف الاستقامة المفروض بمثلي ومثلك اتباعها. الاعوجاج يا ولدي يملأ دنيانا. وليس مستبعداً أن تتكالب الأسباب على ما ترياه أنت وصبحي حقاً فتبعدكما عن بلوغه. عليكما إذن أن تقطعا الطريق على تدخل علي بك في القضية إذا كان قادراً على التدخل. ماذا انتقيت من اللائحة التي بين يديك؟

قال المحامي هذا حين رأى أنور يطيل النظر في لائحة الطعام. وما لبث أن أضاف:

ـ اختر ما تشتهي. عليّ أن أصرفك عن الكلام في مثل هذه الأمور التي تقطع الشهية. موائد مطعمنا تكاد تكون مشغولة جميعها، والوجوه الجميلة ليست قليلة حول هذه الموائد كما ترى. فلنمتع أبصارنا بالتأمل فيها في انتظار أن يأتوا إلينا بما نمتع به أفواهنا. ثم، عليك أن تعلمني عما إذا كنت ستزور عمك الحاج نعمان أم لا.

لم يضق أنور هذه المرة بإيراد الأستاذ شكيب اسم صديق والده، وهو يقصد أسرة الصديق على الأكثر. كان اهتمامه منصرفاً إلى ما

دعاه إليه قبل قليل من التأمل في الجلوس حول موائد المطعم، نساء ورجالاً من مختلف الأعمار ومختلف درجات الجمال والأناقة، وفي المطعم نفسه كمكان يراه لأول مرة. كل شيء في هذا المكان كان يشير إلى الجدّة، وإلى وفرة الإنفاق في الإعداد والتزيين. ولكن، قالها أنور لنفسه، لا يمكن لوفرة الإنفاق وحدها أن تشتري الذوق! فقد لفت نظره اللونان السائدان في ما تقع عينه عليه. ففي كسوة كراسي هذا المكان الفاخر، وفي أغطية موائده وزخارف جدرانه، وحتى في ثياب ندله، ترافق اللونان البعيدان عن التلاؤم، الأسود والأخضر...

ابتسم أنور لنفسه، وربما في سره أيضاً، لانشغاله بهذه الملاحظة عن التحدث إلى صاحبه، وحتى عن الانتباه إلى وجوه النساء الجميلات، الكثيرات، اللواتي كن عن يمينه وشماله، وقد دعاه إلى أن يمتع نظره بالتطلع إليهن. وتناهى إليه صوت الأستاذ شكيب يقول له، بعدما سجّل النادل ما طلبه وانصرف:

- ها تراني أفلحت في أن أجعلك تتأمل في مجالي الحسن حولنا. حسن هؤلاء الجميلات حولنا، من شابات ونَصَف. أن تكون خاطباً لا يمنع أن تتطلع إلى الوجوه الجميلة وتعجب بها. خذ اليوم حريتك في انتظار الغد. وكما يقول المثل: اليوم خمر، وغداً أمر!

ابتسم أنور وسأل: هل هو مثل؟ إنه، على ما أذكر، عبارة امرئ القيس حين جاءه الناعي بمقتل أبيه وهو يشرب الخمر مع أصحابه. الحمد لله أن ليس من خمرة أمامنا...

قال المحامي وهو يبتسم بدوره: إذا كنت تشتهي الخمرة، بأنواعها، فإنها موفرة هنا. لم يخطر لي أن أعرض هذا عليك. أنت تهز

رأسك مستنكراً. أعرف. قصدت أن أقول إنك اليوم معي وغداً مع أسرة الحاج نعمان. ألست مصيباً في تقديري؟

«هذه ثالث مرة يعرّض فيها مضيفي بأسرة صديق والدي هذه الليلة»، قال ذاك أنور لنفسه. وفي هذه المرة أيضاً لم يعلق على جملة مخاطبه بشيء، إلا أنها أعادت إلى خاطره نيته في أن يتصل حقاً بدار الحاج نعمان غداً. سيفعل ذلك أياً كانت نظرة الأستاذ شكيب إلى علاقته بأهل تلك الدار...

طرح أنور هذه الأفكار عن باله وانصرف إلى تناول الطعام، وإلى حديث آخر في شؤون متفرقة مع الأستاذ شكيب، إلى أن غادرا المطعم وافترقا. هو عائداً إلى الفندق، ومضيفه عائداً إلى النادي، ليكمل فيه سهرته كما قال.

في الغد كان لا بد لأنور أن ينشغل في أول النهار بالتردد على الدوائر الرسمية والمرآب الكبير وعلى بعض المخازن التجارية، مصحوباً بالمعلم شاهين أو بدونه. تناول غداءه مع المعلم في الميدان، في ذلك المطعم الذي تناوله فيه تلك المرة، ثم عاد إلى فندقه. وفي نحو الساعة السادسة أدار قرص الهاتف على منزل الحاج نعمان وهو يتمنى أن يرد عليه الحاج نفسه، لا زوجته. فأحاديث هذه الأخيرة لا زالت تقبض نفسه كلما عادت إلى ذاكرته. على أن من أجابه لم تكن هذه ولا كان ذاك. كان فتى الدار الذي أعجبه منه أنه عرف صوته قبل أن يسمّي له نفسه: هتف به قائلاً:

ـ أنور بك؟ العفو... أخي أنور! أنت هنا... لهذا أجد شهباءنا متوهجة بالأضواء. إنه وجودك! أهلاً وسهلاً بك.

وأتبع كلماته هذه بضحكة قصيرة. حياه أنور وسأله إذا كان يستطيع أن يتحدث إلى عمه الحاج. أجاب ربيع:

ـ مع الأسف. فهو ليس في الدار، ولا في المدينة كلها. لا لم يسافر إلى خارج القطر، ولكن إلى اللاذقية. المفروض أن أرافقه، وأخّرت سفري إلى الغد. ربما لأن حسي الداخلي أشعرني بأنك آت إلينا.

ومرة أخرى أطلق ضحكته القصيرة. قال أنور إنه باق إلى غد وربما إلى اليوم الذي يليه، وإنه سيتصل مرة أخرى بالهاتف قبل أن يغادر المدينة. ردّ عليه ربيع، كالمستنكر:

ـ تتصل؟ وما هو عملي أنا هنا إذن؟ أنت في فندقك نفسه... لا تتحرك من مكانك، فأنا قادم إليك.

لم يترك له مخاطبه مجالاً ليرد عليه، فقد أطبق السماعة من جانبه رأساً. وبعد دقائق قليلة رآه يقتحم عليه بهو الفندق ليمسك بكفيه الاثنتين هازاً إياهما بشدة وكلمات الترحيب تتتالى على لسانه. الصحيح أن أنور لم يكن يتوقع هذه الحرارة في اللقاء من الشاب الذي كان يتصوره لامبالياً وبارد العاطفة. بادره هذا بالقول:

ـ من حسن الحظ أن لا والدتي ولا دلال كانتا في البيت. لذلك أستطيع أن أستأثر بك لنفسي، ولو موقتاً. متى نزلت في بلدنا؟

أخبره أنور بأنه قدم أول أمس، وأضاف مبتسماً:

ـ قبل كل شيء خذ مكانك على أحد هذه المقاعد واسترح. سأطلب لك فنجان قهوة. قطعت المحادثة فجأة فلم أسألك عن الوالد والوالدة وشقيقتك. كيف حال الجميع؟

قال ربيع: كلهم بخير، ومشتاقون إلى رؤيتك. لم يخبرني أحد منهم بهذا، وأنا أقوله من عندي لأني واثق من صحته. أعتقد أنك تذكر زيارتنا تلك للمدينة.

ابتسم أنور مرة أخرى لمبادرة الفتى إياه بهذا السؤال بدون مناسبة، وردّ عليه قائلاً:

ـ وكيف لا؟ أنا مدين لك بالدلالة الممتازة لي في تلك الأسواق المتميزة. أمور كثيرة فيها تذكّر بالحميدية في دمشق وبالأسواق المتفرعة منها. ولكن «المدينة» في حلب طراز آخر. وما دمت قد ذكرت تلك الزيارة، فإني أقول إن شيئاً فاتنا منها. وأظن السبب كان ضيق الوقت.

سأله ربيع: أي شيء تعني؟

قال أنور: مررنا بالجامع الكبير مسرعين. درنا في الأسواق حوله طويلاً، ولم نجل فيه بما يستحق.

تطلع ربيع إلى ساعة يده وقال: إذا كنت تأسف على هذا فما أسهل أن نستدركه. لا يزال لدينا من الوقت ما نصل فيه إلى الجامع.

قال هذا ووضع من يده، على المنضدة، فنجان القهوة الذي جاء به الخادم لتوه، وتناهض للقيام من مكانه وهو يضيف:

ـ هذا إذا لم يكن لك موعد آخر، أو لم تكن تنتظر زيارة إنسان غيري.

قال أنور وهو يعجب للسرعة التي ينتقل بها الفتى من الكلام إلى الفعل:

ـ لا هذا ولا ذاك يا ربيع. استرح أرجوك. ما قصدت أن أستغل لطفك فأتعبك في جولة أخرى بين معالم حلب الشهباء. يكفي أني اطمأننت عليك وعلمت منك أن الوالد والوالدة بخير.

عاد ربيع إلى مقعده فألقى بجسده عليه وهو يقول:

ـ كما تشاء. أخبرتك بأني لاحق غداً بالوالد إلى اللاذقية، وأن هذه فرصتي في مرافقتك. حسبت أنك مستعجل لأن تصلي ركعتين في الجامع الكبير! هو أيضاً جامع أموي، مثل الجامع الأموي في مدينتك، دمشق. هل تعرف من بناه من الأمويين؟

قال أنور مبتسماً: هل هذا امتحان لمعلوماتي في التاريخ؟ جامع حلب بناه سليمان بن عبد الملك، وجامع دمشق بناه قبله أخوه الوليد. في جامع دمشق رأس النبي يحيى، يوحنا المعمدان، وفي حلب قبر أبيه النبي زكريا.

ضحك ربيع وهتف: عشرين على عشرين! أخبرتك أثناء جولتنا تلك بأني أحتفظ بذكريات الصبا من تنقلي بين خانات المدينة القديمة، وأني ربما عدت إلى زيارة تلك الخانات لاستعادة الذكريات. فعلتها في الواقع بعد أيام من تحدثي إليك، فلم أحصل على غير خيبة الأمل.

تساءل أنور: خيبة أمل؟

قال الفتى: تأمل. زرت خان البنادقة في أول الأسواق. الخان الذي أوقفتك على بابه في تلك المرة ووصفت لك كيف تظن، بعد أن تترك السوق ومن فيه وراءك، أنك انتقلت إلى إحدى مدن إيطاليا بالمكاتب والمتاجر التي في داخله، وبالناس الذين يحتلون المكاتب والمتاجر، وحتى باللغة التي يتكلمها أولئك الناس.

قال أنور: أذكر أنك قلت لي إن التجار وأصحاب الوكالات في ذلك الخان هم أحفاد البنادقة الذين جاؤوا من شواطىء إيطاليا وأسسوا فروعاً لبيوتهم التجارية في هذه المدينة منذ قرنين أو أكثر من الزمن.

قال ربيع: صحيح. إنهم أولئك الذين كنت أراهم في متاجر الخان حين كنت أتردد عليه حاملاً من أبي مكاتبات لعملائه فيه. لم أكن أعرف، في ذلك الزمن، شيئاً كثيراً عن إيطاليا. إلا أن الجو في داخل الخان، وطريقة التعامل بين ناسه، واللغة التي كنت أسمعهم يتحدثون بها أحياناً، كل ذلك كان يوحي بالاختلاف عما كان خارجه كل الاختلاف. إلا أني في المرة الأخيرة...

سكت هنا ربيع لحظة فسأله أنور:

ـ أيّ مرة؟

أجاب الفتى: بعد سفرك بأيام، كما قلت لك، عدت إلى خان البنادقة عصراً، فصدمت بما شاهدته. عشر سنوات، أو ما يقاربها، مرّت على انقطاعي عنه. في هذه السنوات العشر تغير كل شيء فيه. احتلت غرفه الأرضية مصبغة ومطبعة ومخزن للفحم. كانت الأدراج التي تقود إلى طابقه العلوي تنتهي بممر بشكل شرفة تزنّر ذلك الطابق وتنفتح عليها أبواب المكاتب والمتاجر. أما الآن فقد قطعت الشرفة بحواجز شوهاء، وتحولت تلك المكاتب الحسنة التنظيم والفرش إلى مستودعات تراكمت فيها بالات الأقمشة والثياب المستعملة والأواني البلاستيكية، كأنها لم تكن في يوم ما زاوية من غير هذه البلاد ومن غير هذا الزمن مغروسة في مدخل سوق «المدينة». نعم يا أنور، أقول لك عن حق إني صدمت بغياب الصورة القديمة المرسومة في ذهني لخان البنادقة ولتحوله لشكله الحالي، المبتذل والأشوه!

ابتسم أنور ابتسامة عريضة وقال:

ـ ربيع يا عزيزي... ما كنت أظنك شاعراً. تتكلم بنفسية الشاعر ومفرداته. ذكرتني بالذين يبكون على الأطلال من قدماء الشعراء.

ما كان ينقصك إلا أن تذرف الدمع على المصير الذي انتهى إليه خانك المحبوب.

وحقاً كانت كلمات ربيع الأخيرة تنطق بالأسى. إلا أنه ما لبث أن ابتسم بدوره وردّ على تعليق صاحبه بقوله:

ـ شاعر؟ أتيت بها! أعلمتك بأني سأستأثر بك اليوم. ما أظنك جائعاً في هذه الساعة. سترافقني إذن إلى اجتماع تعقده شلة من أصدقائي في مثل هذا اليوم من كل أسبوع. شلة أفرادها أدباء ومتأدبون، والشعر أحد اهتماماتهم. لست شاعراً كما وصفتني، وإنما يمكنك أن تعدّني بين محبي الشعر.

قال أنور معترضاً: ولكن...

فبادره ربيع بالقول: لا محل للكن هنا. من حظنا اليوم أن الاجتماع، وهو يكون في كل مرة عند واحد من أعضاء الشلة، يعقد اليوم في منزل إحدى سيداتها. هي فتاة جميلة، وتنظم الشعر كذلك. سنتعشى هناك... عشاء خفيفاً بالطبع، ولكنه مع الشعر والتحدث فيه قد يكون كافياً لإشباعنا...

عاد أنور إلى اعتراضه بكلمته الأخيرة، وقال:

ـ ولكن يا أخي ربيع، أظن والدتك ستنقم مني أن أظل معك يوماً كاملاً من دون أن أشعرها بوجودي وأقول لها مساء الخير. أرجوك، اعفني من هذه السهرة.

قال ربيع: عن الوالدة، لا يكن لك فكر. اترك أمرها إليّ. في الصباح، وعلى درج المنزل، قبل أن أركب سيارتي، سأعلمها بأنك هنا وأعترف لها بأني حجزتك طول الليل فلم أتركك إلا بعد أن نام الساهرون. بالطبع ستؤنبني، ولكني أكون أدرت محرك السيارة

وانطلقت في طريقي. ما عليك إلا أن تتلفن لها بعد ذلك، وحين تراها ضع كل مصائب الدنيا على رأسي...

لم يملك أنور غير أن يضحك ثم يقول متظاهراً بالاستنكار:

ـ هل يجوز هذا؟

تجاهل ربيع السؤال وأضاف يقول: أنت مهندس زراعي، على عيني. ولكن هذا لا يمنع من أن تكون مثلي، لا أديباً بل متأدباً. ألا تحب حضور الأمسيات الشعرية؟

أجاب أنور: حضرت العديد منها. الصحيح أني أفضل قراءة الشعر، ولا سيما في كتب القدامى، على سماعه من شعراء ليس لهم من الشاعرية غير اسمها.

قال ربيع: الشاعرة التي ستراها وتسمعها الليلة ليست من ذلك الطراز، وإن كان أفراد الشلة الآخرون سيغرقوننا بكلام لا نفهمه. ولكن من أجل عين تكرم مرجعيون!

مرة أخرى ضحك أنور وقال: هل لي أن أتصور أنك معجب بالشاعرة التي سنكون ضيوفها هذا المساء؟

ردّ صاحبه بقوله: المهم أنك سترافقني، ولك بعد ذلك أن تتصور ما تشاء. كلامك عن أنك تقرأ الشعر في كتب القدامى يجعلني أدعوك إلى أن توطن النفس على الصبر على ما ستسمعه من شعراء الشلة. كلهم شعراء من الطراز العصري! ولكن، كما قلت لك، من أجل عين...

فأكمل أنور الجملة قائلاً: تكرم مرجعيون... أو يكرم مرج من العيون! على خيرة الله إذن. ما كنت أظنني، يا ربيع، أنتقل من تسجيل البلدوزر المجنزر والرافعة الشوكية في الصباح إلى سماع

الشعر في المساء... ولو كان شعراً حديثاً. متى موعدك لهذه السهرة؟

قال ربيع: ماذا؟ هل تطردني؟ لن أتركك! إن كانت للك رغبة في شراء شيء من السوق فأنا رفيقك. سنتجول في الأسواق ونجلس في أحد المقاهي إلى أن يحين الموعد.

قال أنور: إذا كنت لا تريد أن تستريح من مرافقتي اعمل معروفاً وخذني بسيارتك إلى الميدان لأرى المعلم شاهين. بعد ذلك أنا تحت تصرفك. اسمح لي قبل ذلك بدقيقتين لآتي ببعض الأوراق من غرفتي.

واستدار مسرعاً إلى المصعد متجهاً إلى غرفته، بينما انحدر ربيع في جلسته بجذعه في المقعد العريض، ماداً أمامه ساقيه الطويلتين وهو يطلق من فمه صفيراً خافتاً بلحن من الألحان الشائعة في هذه الأيام.

ـ ٤ ـ

لم يندم أنور لمصاحبته لربيع إلى تلك السهرة، وإن لم يكن إعجابه كبيراً بكل ما دار فيها من أحاديث وما ألقي فيها من قصائد. لقد سرّه أن وجد نفسه فيها في جو مختلف عن الأجواء التي عاش فيها هذه الأشهر الأخيرة، سواء في المركز رقم ٦ أو حلب نفسها. صحيح أنه كان متأدباً لا أديباً، حسب تعبير رفيق سهرته، وصحيح أنه لم يكن ممن جرفهم تيار الإعجاب بالشعر الحديث بين شباب اليوم، إلا أن هذه الأمسية بين شباب في عمره، متعلقين بالكلمة الحلوة والمعنى الجميل، أعادته إلى ذكريات سنيه الدراسية وذكريات تجوله في دروب حديقة الجامعة والمشادّات التي كانت تنشب بين زملائه وزميلاته حول فلان وفلان من الكتاب والشعراء والمفكرين، والتي كان يشارك فيها بحماس واندفاع.

ولا شك في أن ألمع من في الأمسية كانت مضيفتها. فتاة نحيلة القد دقيقة تقاطيع الوجه، جذابة الملامح أكثر منها فائقة الحسن. وكان إلقاؤها لثلاث مقطوعات من نظمها حسن التعبير عما ضمنتها من معان اتصفت بالرقة أكثر من اتصافها بالعمق. كما كان صوتها ناعم النبرة موسيقياً. هذا ما قاله أنور لربيع وهما في طريق العودة إلى الفندق. وقد أدرك أنه بثنائه على تلك الصبية كان يرضي صاحبه. فما غاب عنه، وهو يرى النظرات المتبادلة بين صاحبه والمضيفة، أن الشاعرة كانت عنده أهم من شعرها. وحين قال له ذاك ببعض التورية عقب ذلك الثناء لم يزد الفتى عن أن ضحك ضحكة قصيرة، أعقبها بسكوت ليس من عادته. لم يخرج من سكوته هذا إلا حين وقف بسيارته أمام مدخل الفندق ونزل منها ليصافح أنور مودعاً. قال له عند ذاك:

ـ إذن أنت غير حاقد علي لجرّي إيّاك إلى سهرتنا؟ أنا آسف على أني لن أستطيع رؤيتك غداً. عمّا ستقوله لأمي حين تلتقي بها، خذ حريتك. ضع كل الذنب على رقبتي واطمئن إلى أني لن أكذّبك حين أرجع إليها، بعد أربعة أيام. أنا وأبي. ألن تكون هنا بعد أربعة أيام؟ شيء مؤسف. تصبح على خير.

في الصباح التالي أمضى أنور مطلع نهاره يرافقه المعلم شاهين في ملاحقة عمله بين الدوائر والمخازن المتناثرة في أرجاء المدينة. كان يعرف أن لا بد له من الاتصال هاتفياً بدار الحاج نعمان، إذ لا مجال له من التهرب من ذلك ما دام ربيع قد نفض إلى أمه دون شك أخبار وجوده وسهرتهما معاً أمس. غير أنه عزم على تأخير مكالمته إلى ما بعد حلول المساء ليتاح له الاعتذار عن زيارة الدار بانشغاله خلال النهار وبارتباطه بمواعيد مسبقة في السهرة، مكتفياً

بالتحية الشفهية والسؤال عن الصحة وحسن الحال. إلا أن الأمور لم تجر على ما أراد. ففي حوالى الساعة الثالثة، بينما كان يتهيَّأ في غرفته للقيلولة بعد تناوله الغداء في أحد مطاعم المدينة، رن جرس الهاتف وتناهى إليه من السماعة صوت السيدة شاهناز. حيته ثم قالت له بلهجة المعاتبة:

ـ أين كنت طول النهار يا حبيبنا؟

اعتذر إليها من تأخره في محادثتها بما لا بد أن يكون ربيع أخبرها به: أمس لم تكن هي في البيت، وفي الليل جرجره ابنها إلى سهرات أصحابه. ردّت عليه قائلة:

ـ واليوم؟ الساعة تجاوزت الثالثة ولم تتذكر أن لك داراً وأهلاً هنا. ستقول لي إنك تناولت غداءك وإنك تعب من ملاحقة شغلك. أسمح لك بهذا الآن. أما عن المساء، فنحن في انتظارك. تعرف أن عملك ليس هنا وأن أخاك ربيع لحقه. ولكن الباقين، دلال وخطيبها وأنا معهما، كلنا ننتظرك. لا تتأخر علينا إذن... في السابعة والنصف أو الثامنة على أبعد حد.

كل ما استطاع أن يرد به عليها في ما قالته كان كلمات مفردة: نعم أو لا. قال في سره «لا بد مما ليس منه بد!» ورفع صوته واعداً إياها بالمجيء في الوقت الذي عينته له. راح، بعد أن أطبق السماعة، يقلب مجلة مصورة اشتراها في طريقه إلى الفندق قبل أن يغلبه النعاس ويستسلم إلى قيلولته.

في تمام الثامنة نزل من سيارة الأجرة أمام باب العمارة. أما باب الشقة، فما أن لامس زر جرسه حتى فتحته السيدة شاهناز كأنها كانت تنتظره وراءه. صافحها محيياً فأخذت بيده، وهي تردد كلمات الترحيب، جارة إياه وراءها إلى الردهة الكبيرة. فطن وهو

يسير وراءها إلى الاستغراب المقارب للدهشة الذي أحس به حين وقعت عينه عليها في زيها اليوم. آخر تصوراته لها كانت وهي ترتدي الدشداشة المطرزة المسبغة على جسدها إلى معصمي الذراعين وكاحلي القدمين، والوشاح الملتف على رأسها فلا يبين من وجهها منه إلا ما بين الجبين وأعلى العنق. أما الآن، فها هي قد قفزت في نوعية ملبسها إلى القطب الآخر. فستانها المورد الهفهاف الذي يتقور على صدرها بفتحة واسعة تبين نصوع بشرتها عند أرومة ثدييها، ويتوقف أدناه بمستوى ركبتيها كاشفاً عن حسن امتشاق ساقيها على امتلائهما، كان نقيض تلك الجلابية السابغة المحتشمة. وكذلك كان انحسار كميها إلى منتصف العضدين عن ساعديها العبلين، وانسدال شعرها على منكبيها دون غطاء والأحمر القاني المتوهج على شفتيها. أترى زوجة صديق أبيه وجدت في غياب بعلها، ولو لأربعة أيام أو خمسة، فرصة للتفلت والانطلاق من تحفظ فرضته على نفسها، أو فرضه هو عليها، في حضوره؟

قالت له حين وصلت به إلى وسط البهو: خذ راحتك. دلال وسهيل في طريقهما إلينا. يبدو أن لديهما مشروعاً لنا هذه الليلة. قالا لي أن لا أعد عشاء في البيت. سأضع القهوة على النار وأعود إليك.

اختفت لدقيقة أو دقيقتين، ثم عادت فجلست في مقعد مقابل لمقعده، تفصل بينهما طاولة عالية في وسط البهو، وشبكت يديها على ركبتيها وهي تتطلع إليه، لا تنطق بكلمة كأنها تنتظر منه هو أن يتكلم. كل ما فعله هو أنه راح يرد على ترحيبها مغمغماً بكلمات مبتذلة، بينما كان يدير في سره كلمات وأفكاراً أخرى. كان يقول لنفسه: إنها حقاً امرأة جميلة، وإن الحاج نعمان يظلمها،

أو يظلم نفسه، حين يغيب عنها غيباته الطوال. وقال لنفسه كذلك: يجب أن لا أسيء الظن بتحولها في الزيّ والزينة بين حضور الحاج نعمان وغيابه. لا بد أنها، مثل كل امرأة في سنها وحسن تكوينها، تحتفظ لرجلها بجمالها حين يكون إلى جانبها، أو حين تحرم منه فإنها تعرض ذلك الجمال للآخرين، كأنها تحتاج إلى شهادة منهم به. وعادت إلى خاطره جملة همست بها حينما كان يسير إلى جانبها في زاوية من زوايا سراي اسماعيل باشا في تلك الليلة، عندما قالت: أليس حراماً أن يعيش الإنسان بغير حب؟ قالت ليلتها هذه العبارة أو ما يشبهها. والحب عند السيدة شاهناز وأمثالها يعني الرجل ولا شك. فلعل إحساسها بهذا الحرام هو الذي يقف وراء ما استغربه هو، أنور، من انتقالها في ملبسها ومظهرها من قطب إلى قطب يقابله ويناقضه.

أخرجه من كل هذه الخواطر ارتفاع صوتها وهي تقول:

ـ ما هذا يا أنور؟ كأنك في تفكيرك لست عندنا. لم تجبني عن سؤالي عن أهلك، الوالد والوالدة، وعن الخطيبة أيضاً، إلا بهزة رأسك وبكلمات لم أفهمها.

احمر وجهه وهو يردّ بقوله:

ـ لا تؤاخذيني. يشرد فكري أحياناً لأني قضيت اليوم في مشاحنات كثيرة. رئيس إحدى الدوائر يصر على عدم إنهاء مهمتي قبل أن أحضر له أوراقاً ليست تحت يدي. هذا يعيق عودتي إلى المركز، مقر عملي. بالي كان مشغولاً بهذا.

تضاحكت وهي تقول: حسناً يفعل هذا الرئيس. لعله يستبقيك بيننا مدة أطول. ربيع، قبل أن يسافر، حكى لي حكاية سهرتكم

البارحة عند لبنى. شوّقني بما رواه عن تناشدكم الأشعار في السهرة. هل صحيح أنك أعجبت بشعر لبنى؟

ابتسم وهو يقول: قرأت هي مقطوعات قصيرة ورقيقة. الواقع أن الشعر الحديث لا يروق لي كثيراً. أعجب به أحياناً إذا أحسن الشاعر إلقاءه بصوته. أما قراءته مكتوباً فإنها نادراً ما تحمل شيئاً يرضيني.

نهضت، من مقعدها المبعد عنه وقالت:

ـ سآتي بالقهوة. ربما كنت مثلك. فأنا قليلة الفهم للشعر الذي تمتلىء به صفحات المجلات في هذا الزمن، ولكني أحب المجالس التي يتبارى فيها الشعراء بقراءة قصائدهم. حسدتكما أنت وربيع على سهرتكما أمس.

واستدارت دالفة إلى داخل المنزل وعادت بعد قليل بصينية تحمل عليها فنجانَي القهوة. قالت، معتذرة عن توليها هذا بنفسها:

ـ المرأة التي تخدمنا تتركنا أحياناً قبل مغيب الشمس. تفضّل.

انحنت وهي تضع له الفنجان على الطاولة الصغيرة الواطئة أمامه، فزلّت نظرته إلى تقويرة فستانها الواسعة وما كشفته من صدرها العريض الناصع بياض البشرة. لم يتعمد تلك النظرة، ومع ذلك خجل من نفسه وقام من جلسته ليتناول فنجانه واقفاً. استقامت هي كذلك من انحناءتها ووقفت قبالته تتناول من فنجانها رشفة وراء رشفة. كانت في وقفتها جدّ قريبة منه، فلفته منها موجة عطر أحس به حلواً وجارحاً في آن واحد. كاد لسانه يسبقه بالإعراب لها عن طيب هذا العطر ولكنه تماسك وقال مدارياً حرجه:

ـ كنت في شوق إلى رؤية العم أبي ربيع، وأنوي أن أسرّ أبي بالكتابة إليه عنه مرة ثانية في رسالتي القادمة. كيف صحته؟

قالت: بخير والحمد لله. لو كنت أعرف رئيس الدائرة الذي تكلمت عنه لرجوته أن يبقيك هنا إلى عودة عمك من اللاذقية. عليك أن تكتفي بنا نحن الحاضرين في هذه الأثناء. لا أدري أين ذهبت دلال بخطيبها في هذا الليل... تعال معي.

وأمسكت كفّه بأصابعها، بعد أن وضعت الفنجان على المائدة، وجرته متقدمة إياه إلى باب في نهاية البهو. ازداد حرجه وهو لا يدري إلى أين تريد أن تقوده. قال:

ـ ألا ننتظرهما هنا؟

ردّت قائلة: بل اتبعني. سنجلس في الشرفة. خريف هذا العام يذكرني بصيفه. أحس بأني أختنق في جو الصالون، والضوء الساطع يزيد من حره. في الشرفة ظلمة، ولا برد فيها هذه الليلة.

كانت الشرفة في الجانب الآخر من البناء، مطلة على حديقة العمارة، ليس فيها من النور إلا ما يصل إليها من أضواء الشارع المفصول عنها بالحديقة. شرفة واسعة في جانب منها كرسيان خفيفان ويتوسطها مقعد طويل على شكل أرجوحة. أجلسته على ذلك المقعد وجلست إلى جانبه، وأصابعها لا تزال تطبق على كفه. قالت:

ـ كما ترى. الجو هنا... ماذا تسمونه؟ رومنتيكي؟ لا ينقصه إلا قمر بدر في وسط السماء. تستطيع أن تتكلم فيه عن الشعر والشعراء على هواك.

لم يملك أنور نفسه عن الابتسام. أحس بأن حرجه تبدد في نور

الشرفة الخافت وفي هبة النسيم الندية التي ارتفعت من الحديقة دونها. وأعجبه من هذه الأم لفتى وفتاة، مقاربين له في العمر، تعلقها بالشعر وإصرارها على التحدث عنه. لم يعد يحس بالضيق من وجوده وحيداً مع هذه السيدة في منزلها المتسع الأرجاء، وتضاءل كذلك في هذا الجو شعور النقمة الذي حمله لها منذ ذلك العشاء في آخر زياراته لهذا المنزل. كان عليه أن يعلّق بكلمة على عبارتها الأخيرة، فقال:

ـ أنا أتكلم عن الشعر والشعراء؟! صحيح أني أحب الشعر ولكن بضاعتي، حتى من حفظه قليلة. ألهتنا مشاغل الدنيا عنه. لذلك كنت شاكراً لربيع أن أعادني إلى أجوائه، ولو لساعات قليلة، في تلك السهرة.

أطلقت جليسته ضحكة ناعمة وقصيرة وهي تفلت يده من قبضتها، ودفعت في الوقت نفسه الأرض بقدميها فاهتز المقعد الأرجوحة بهما في حركات نائسة. قالت:

ـ ألهتك مشاغل الدنيا! تتكلم بلهجة ابن السبعين وأنت في ميعة الصبا. فكر في غير هذا يا عزيزي. أنا لم أنس سهرتنا تلك في سراي إسماعيل باشا. هل نسيتها أنت؟ غنت الجوقة ذلك الموشّح. فاكتشفت أنك كنت تحفظ أبياته قبل أن تسمعه من صبري أفندي وجماعته. أذكر أنك أعدت تلك الأبيات لنفسك بصوت هامس عندما كنا في الجانب المظلم من السراي نتجول في أبهائها. أقول لك إني طربت لقراءتك لها حينذاك أكثر من طربي بغناء صبري أفندي لها على نغمات العود ونقرات الدربكة. أرجوك... إقرأ لي الآن هذه الأبيات يا حبيبي يا أنور!

التهب وجه الفتى لهذه الكلمات التي سمعها، ولا سيما لعبارة

محدثته الأخيرة: يا حبيبي يا أنور! لم يكن في اللهجة التي قيلت بها العبارة أثر لغواية أو إغراء. إنها نفس اللهجة التي رددت بها على مسمعه قولها أكثر من مرة: يا ولدي يا أنور! ومع ذلك فقد أحس بالضيق والحرج يعاودانه لسماعه هاتين الكلمتين منها. كان يعرف الأبيات التي تعنيها ولكنه اصطنع الجهل، وبصوت تسربت إليه بحة خفيفة سألها:

ـ أية أبيات يا سيدتي؟

أوقفت هي اهتزاز الأرجوحة بأن ثبتت قدميها بأرض الشرفة، وعادت فتناولت بأصابعها كفه ضاغطة عليها برفق. كانت كفها مليئة ورخصة وتتوهج حرارة. قالت له:

ـ ما أظنك نسيتها. أبيات الموشح التي تتحدث عن الساهر والراقد والمريض والعائد. أحب أن أسمعها منك الآن.

لم يجد بداً من أن يستجيب لما تطلب. سكت للحظات أعادت هي في أثنائها هز الأرجوحة، إلا أنه ثبتها بضغط قدمه إلى الأرضية، فما كان قادراً على تلاوة الشعر والمقعد ينوس به هكذا. وانطلق يقرأ من ذاكرته تلك الأبيات:

ما أقصر الليل على الراقد وأهون السقم على العائد

يفديك ما أبقيت من مهجتي لست لما أوليت بالجاحد

كأنني عانقت ريحانة تنفست في ليلها البارد

فلو ترانا في قميص الدجى حسبتنا في جسد واحد

أحس أنور بأن جليسته شدّت الضغط على كفه الممسكة بها قبل أن تفلتها وتبتعد عنه بكل جسدها إلى زاوية الأرجوحة. وسمعها تردد بصوت خفيض بيتي الموشح الأخيرين:

كأنني عانقت ريحانة تنفست في ليلها البارد

فلو ترانا في قميص الدجى   حسبتنا في جسد واحد

فتضاحك وهو يقول:

- إذن فأنت تحفظين الأبيات مثلي!

فتنهدت قبل أن تردّ بقولها:

- ليس مثلك. ولو كنت أحفظها كما يجب لما أحسنت قراءتها مثلك. تنفست في ليلها البارد! ربما كان ما يصفه الشاعر ليلاً مثل هذا الليل... أما تحس بأن ليلنا أصبح بارداً؟

ورآها تنهض من جلستها وتقف إلى جانب الأرجوحة فتهزها به ثم تقول:

- في تلك الليلة، في سراي اسماعيل باشا، بعد أن سمعت هذا الموشح من حنجرة صبري أفندي، قفزت على لساني ونحن نغادر السراي آخر الليل كلمة أراها تقفز إليه الآن، ولكني لا أجرؤ على النطق بها أمامك. هؤلاء الشعراء حينما يتكلمون عن العشق يجعلونك تؤمن بأن الحياة بلا عشق حرام. ألا توافقني على هذا يا أنور؟

تلك الكلمة التي لا تجرؤ السيدة شاهناز على النطق بها أمامه، عرفها أنور. إنها بلا شك العبارة التي تذكّرها هو قبل قليل وهو يتأمل مضيفته متمعناً في المحاسن التي تكشف عنها زيها الليلة: حرام أن يعيش الإنسان من غير حب! خطر له أن يجاريها في تفكيرها وفيما تحس به وأن يستشهد لها ببيت شعر قديم مستقر في ذاكرته، يقول:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى

فكن حجراً من يابس الصخر جلمدا...

ولكنه تردد في أن يفعل، وأمسك لسانه عما همّ به متخوفاً من أن يجاوز الحد في مسايرتها في هذا المجال. أنقذه من بلبلة مشاعره صوتها الذي ارتفع، وهي تتقدم إلى حافة الشرفة، قائلة:

ـ جاؤوا. أسمع صوت سيارة سهيل. لماذا قمت؟ إبق في مكانك، وأنا ذاهبة للقائهم.

واستدارت متجهة إلى داخل المنزل. سمع بعد ذلك صوت انفتاح الباب ثم جلبة الداخلين، ولم تمض دقيقة أو دقيقتان حتى اقتحمت دلال الشرفة يتبعها سهيل، خطيبها. هتفت الفتاة به:

ـ مساء الخير يا حضرة المهندس وأهلاً بك. كيف تطيق الجلوس في هذا البرد، وفي هذه الظلمة؟

وأدارت زراً على الجدار فسطع النور. قام هو ليحييها ورفيقها ويسألهما عن الصحة والأحوال، بينما تابعت هي تقول:

ـ تأخرنا عليكما. كان لا بد أن أتأكد من أن القلعة مضاءة هذه الليلة، فذهبنا بأنفسنا إلى هناك.

تساءل أنور: القلعة؟

أجابت؟ نعم. ألم تخبرك أمي؟

تدخل خطيبها في الحديث قائلاً: ولكننا لم نخبر امرأة عمي بشيء. قلنا لها فقط أن لدينا مشروعاً في هذه الليلة.

قالت: صحيح. لم نخبرها. تركناها مفاجأة. أنت تعرف قلعة حلب، ذكرت لي ذلك مرة قبل الآن.

توجهت بسؤالها هذا إلى أنور، الذي أجابها بقوله:

ـ وكيف لا. تجولت في داخلها في إحدى رحلات الجامعة. هل تنوون زيارتها اليوم؟

قالت: ليست زيارة للقلعة نفسها. سنقصد قهوة إلى جانبها ونمتع أنظارنا برؤيتها من خارجها وهي مضاءة. سترى كم هي جميلة تحت الأضواء. ليس في كل الأيام ينيرونها هكذا، ولكنهم اليوم يفعلون. هل تناولت قهوتك؟ إذن هيا بنا.

ـ ٥ ـ

تجاوزت الساعةُ التاسعةَ والنصف حين وقفت سيارة سهيل في ساحة ضيقة تفصلها كتلتان أو ثلاث من المباني عن هيكل دار الحكومة الضخم الذي يقابل مدخل القلعة، مبعداً عنها بعض الشيء، ونزل منها سهيل داعياً جماعته إلى الاقتداء به والاتجاه إلى المقهى سيراً على الأقدام.

كانت السيارة قد اخترقت المدينة من الغرب إلى الشرق ومن الشمال إلى الجنوب، مارة بالشوارع الفائقة الإضاءة ثم بتلك التي بدأت أنوارها تقل بإغلاق الحوانيت في آخر المساء، ثم بأحياء المدينة السكنية القديمة التي شحت أنوارها حتى قاربت الظلمة، إلى أن وصلت بركابها إلى كتلة النور المتوهجة المتمثلة بأسوار القلعة وبروجها المسلطة عليها موجهات الإضاءة العملاقة. ولاحت لأعين القادمين كراسي المقهى الذي دعاهم إليه سهيل، منتشرة في العراء على رصيف عريض يشبه ساحة صغيرة، في الجانب الأيمن من الطريق الذي كان أنور يعرف أن الناس يسمونه طريق حول القلعة. تلك الساحة الصغيرة كانت في زاوية التقاء ذلك الطريق بدرب ضيق قادم إليه من أحشاء المدينة العتيقة. وأمام أنوار المصابيح الموجهة عالياً إلى عمارة القلعة، كان المقهى يبدو للأعين مغموراً

بظل أسود كثيف لم تفلح المصابيح القليلة، المعلقة بأسلاك تمتد فوق طاولاته، في أن تخفف من ظلمته. والواقع أن أنور لم يتبين كثرة تلك الطاولات ولا كثرة المتحلقين حولها إلا حين جلس مع مضيفيه إلى واحدة منها، فأصبح جلوس المقهى الآخرون في مستوى نظره. قبل ذلك كان مشدود البصر إلى المنظر الرائع الذي كانت تتبدى به أبراج قلعة حلب في الأعلى، كما يتبدى به مدخلها الضخم المتدرج تحت الإضاءة القوية من مستوى الأرض حتى صدر السور.

هتف وهو يجلس بتؤدة على الكرسي الذي قربه سهيل من موقفه:

ـ ما أجمل هذا المنظر! ما كنت أظن لحجارة القلعة هذه الألوان الخلابة.

قالت دلال: أردناها لك مفاجأة... حتى أمي لم نخبرها. خشينا أن تحبسك في البيت لتحشو معدتك بأصناف الطعام. ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان يا ماما.

ابتسمت أمها وقالت: هكذا تتكلمين عني يا دلال؟ سيظن ضيفنا العزيز أن همي الأول هو الأكل والشرب، بينما...

ولم تتم عبارتها، فقال أنور: أنا لا أظن غير الخير يا سيدتي. ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، ولكنه لا يحيا بدونه أيضاً. الحياة مادة ومعنى، وفي اعتقادي أن الاثنين لهما في نفسك مكانة ممتازة.

التفتت دلال إلى خطيبها وقالت: تعلم يا سهيل من أنور كيف تجامل النساء وتستميل قلوبهن. لم أسمع منك كلاماً مثل هذا في يوم من الأيام.

ضحك سهيل وقال: ما هذا يا صديقي؟ ما ظننتك بعد السكوت

الطويل قادراً على أن تنطق بهذه الحِكَمِ فتثير عليّ خطيئتي. هل أقول: سكت دهراً ونطق كفراً؟

ضحك أنور بدوره وقال: لم أقل إلا ما أشعر به عما تتحلى به السيدة الكريمة. ألست من رأيي في ما قلته؟

قال سهيل: تأملي يا دلال. إنه ماكر أيضاً. بهذا السؤال يحاول أن يثير امرأة عمي عليّ أيضاً. آه من هؤلاء الشوام...

ضحكوا جميعاً وتهيأ أنور ليرد على عبارة سهيل الأخيرة غير أن نادل المقهى وقف على رؤوسهم، يسألهم عما يريدون شربه، فلم يترك له مجالاً لذلك. قال سهيل:

ـ ما رأيك بنفس تنباك يا أنور؟ أغلب زبائن هذا المقهى يجيئون إليه لهذا.

وأشار إلى الجلوس حوله على الطاولات المتناثرة، يكاد كل منهم يمسك بحبل أركيلة يمتص أنفاسها منه. قال أنور:

ـ شكراً لك أن تطلب ما تشاء. أما أن فيكفيني التطلع إلى هذا المنظر الفريد في جماله.

وأدار رأسه إلى كتلة القلعة فوق تلّها العالي، وقد توهجت حجارتها بالأضواء المنصبة عليها حتى كأن النور كان يشع منها. قالت دلال:

ـ تطلّع حتى تشبع. بعد أن تنتهي من قهوتك، وينهي سهيل نفس أركيلته، سنترك السيارة في موقفها ونمضي إلى داخل البلد سيراً على الأقدام، إلى السفاحية...

سأل أنور، مستفهماً: السفاحية؟

قالت هي: نعم، السفاحية. لا يخيفك الاسم. إنه حارة تتصل

بأسواق «المدينة». في أول السفاحية دكان بائع فول يفتح دكانه ليلاً، من بعد صلاة العشاء حتى الفجر، ويقصده كثير من هؤلاء الذين تراهم موزعين حول طاولات المقهى في آخر السهرة. موافقون جميعاً... أليس كذلك؟

سكتت السيدة شاهناز وسكت أنور عن الجواب، والسكوت قبول. لعل استغراق أنور في تطلعه إلى القلعة المنارة هو الذي منعه من الاعتراض على الاقتراح، لو خطر له أن يعترض. لقد كان حقاً مشدود البصر إلى المنظر الذي كان مرسوماً بالنور على سواد السماء وراءه في الأعلى، وفوق سواد طريق حول القلعة في الأدنى. بدا له سور القلعة المدور الذي يطوّق سفح تلها، بصخوره المصفارة تحت الأضواء الساطعة، كسوار ذهبي يحيط بزند أسمر عبل. أما حجارة الأبراج البارزة فوق جدران السور، والفتحات في تلك الأبراج، فقد تصورها حجارة كريمة بين لامعة وكامدة مغروسة في ذلك السوار الذهبي...

مدت السيدة شاهناز يدها من وراء كرسي خطيب ابنتها حتى بلغت بكفها منكب أنور فأراحتها عليه وقالت:

ـ بعد هذا السكوت الطويل سيسمعنا ضيفنا العزيز قصيدة نظمها في قلعة الشهباء!

قال أنور، وقد أحس بأنه أطال السكوت حقاً:

ـ إنها تستحق، لو أني كنت شاعراً. قلت لكم إني زرت القلعة مرة مع زملائي طلاب الجامعة. أحتفظ من تلك الزيارة بذكرى منظر القاعة الحمدانية وحبس الدم ومزار إبراهيم الخليل أو مسجده، وبذكرى تمزق إحدى رجلي بنطالي من وقعة وقعتها على إحدى صخورها. أما هذه الإنارة الباهرة فشيء جديد عليّ. قرأت عن

برامج اسمها صوت وضوء في القصور التاريخية في أوروبا، وحتى عند سفح الأهرام وأمام أبي الهول في مصر. لماذا لا يضيفون الصوت إلى الإضاءة في أثر جميل وتاريخي مثل هذا؟

قال سهيل: أعجبتني يا أنور. خشيت أن تتهمني بالإقليمية حين قلت لك قبل قليل مازحاً: آه من هؤلاء الشوام! ولكني الآن أقولها عن جد: إسأل عن هذا جماعتك في الشام، في دمشق عاصمة بلدنا.

سأله أنور مستفهماً: جماعتي؟ من تحسبني يا أخي؟

قالت دلال: لا تستمع إلى سهيل. يريد أن يجرك إلى مواضيع لا تهمنا بشيء.

قال أنور وهو يستغرب اعتراض الفتاة بينه وبين خطيبها: إنه يتحدث عن جماعتي كأنه يعدّني من أهل الحل والربط. صحيح أني من أبناء العاصمة الأصلاء، ولكن هؤلاء يا عزيزي أبعد ما يكونون عن الطبقة التي تظنها... على الأقل في هذه الأيام.

عادت دلال إلى الاعتراض بقولها: هذه عادته. يحاول أن يدفعك إلى التحدث معه في السياسة وذيول السياسة. أرجوك يا أنور أغلق عليه وعلينا هذا الباب. متى تتحركون إلى السفاحية يا جماعة؟ أما تشعرون بالجوع؟

لهذه الكلمات من دلال، أسرعت أمها بالنهوض قبل غيرها وقالت بمرح:

- إلى السفاحية! إلحق بي يا أنور.

وبينما انشغل الشابان، دلال وخطيبها، بدفع الحساب إلى صاحب المقهى في دكان على الجانب الأخير من الشارع، انحرفت السيدة

شاهناز إلى اليمين في الدرب المتجه إلى قلب الحارة المجاورة، يتبعها ضيفها. كانت أرض ذلك الدرب مرصوفة بحجارة مربعة وغير مستوية كأنها، بعريها من الإسفلت المفروشة به الشوارع المجاورة وطريق حول القلعة، تشير إلى أن الحي الذي يخترقه ينتمي إلى عالم آخر وزمن آخر. وكان الدرب يضيق كلما تقدم فيه السائر، كما تزداد ظلمته بتباعد المصابيح المعلقة في زوايا الأزقة المتفرعة منه. لم تكن السيدة مسرعة في سيرها، ومع ذلك فقد تأخر سهيل وابنتها عن اللحاق بهما. وقفت هي في فجوة باب مغلق واستندت إلى حديد الباب وراءها وقالت:

ـ هذه من فعلات سهيل. لا بد أنه وجد موضوعاً لحديث طويل، أو لنقاش حول أمور عامة مع صاحب المقهى. يا سهيل!

ورفعت صوتها بالنداء على خطيب ابنتها، مما كان يدعو إلى الاستغراب في مثل هذه الساعة لولا أن الدرب كان مقفراً من المارة. وهتفت بأنور قائلة:

ـ لا تبعد فتضيع مني. تعال إلى جانبي.

قالت ذلك بلهجة أم تحذر طفلها من الابتعاد عنها في زحمة الطريق. ذلك أن أنور في هذه الأثناء كان قد خطا خطوات في زقاق جانبي غارق في الظلمة، كأنه يريد اكتشاف ما وراء الظلمة فيه. ولم تمضِ لحظات حتى ارتفعت أصوات قرع قدمي دلال على حجارة الدرب ثم قهقهة ضحكتها قبل أن تطل وخطيبها من إحدى الزوايا. قالت الأم:

ـ وأنت التي تسألينا إذا لم نكن جعنا! ما الذي أخّركما؟

ابتسمت الفتاة وهي تقول: تركنا لكما الوقت لتتسعكا على

مهلكما في الأزقة المعتمة. أعرف، منذ تلك الليلة في سراي إسماعيل باشا، أن أنور يحب الأحياء الشعبية والدور العتيقة فيها. السفاحية أكثر شعبية وقدماً من حي الفرافرة ذاك. ثم إنك يا ماما تعرفين الطريق إلى دكان الفوال. إذا كنت مستعجلة فاتبعينا...

قالت هذا وأمسكت بيد خطيبها وجرّته راكضة، كأنها تتحدى أمها أو تفاخرها بخفة خطوها وسرعة تحركها. كانت دلال، كعادتها، تلبس فستاناً طويلاً يضرب إلى قدميها وتنتعل حذاء واطىء الكعب يعينها على العدو بسهولة فوق أرضية الدرب الحجرية. قالت السيدة شاهناز، وهي ترى الاثنين يبتعدان عنهما ويختفيان في آخر الزقاق:

ـ الملعونة! هي تعرف أني بهذا الحذاء العالي الكعب لا أستطيع اللحاق بها. ومع ذلك فنحن لها. الفوال ليس بعيداً عنا... استعجل معي.

قال أنور وهو يلحق بها: أخشى أن يتعبك المشي السريع.

ردت عليه بقولها: ولا يهمك. الأرض هنا مائلة في انحدارها إلى السفاحية. السير فيها مريح لولا بلاطها الأملس الذي يزحلق القدم. دعني أسند يدي إلى كتفك.

ووقفت هي حتى حاذاها هو عن يسارها، فمدت ذراعها من وراء رقبته وأراحت كفها على منكبه الأيسر مطوقة بذلك كتفيه. هل كانت متعبة من قطعها المسافة القصيرة بين رصيف المقهى وهذا المكان، حتى تعتمد عليه بهذه الصورة؟! لقد ألقت عليه في هذه الحركة جسدها بكل ثقله، فأحس بطراوة هذا الجسد ولين مفاصله في كل خطوة يخطوانها معاً. في أول الأمر كان همّه أن يريحها باعتمادها عليه، غير منتبه إلى تقارب جذعيهما تقارباً يكاد يكون

التصاقاً. إلا أن عطرها الحلو والحاد الذي فغمه بهذا التقارب، والحرارة التي ألهبت جنبه اللاصق بجنبها، ثم هذه الوسادة المليئة والرخصة في آن واحد التي كانت تترجرج على عضده من كرة ثديها الأيسر في سيرهما، كل هذه ذكرته بأن امرأة جميلة، رائعة الجمال، في هذه الظلمة والسكون والجو الندي، كانت تضمه... كانت تضمه بذراعها، لا ضمة الأم لوليدها ولا ضمة الصديق لصديقها، بل ضمة العاشق لمعشوقها...

حتى هذه اللحظات لم تكن نظرة المهندس الزراعي أنور إلى السيدة زوجة الحاج نعمان الديرباني غير نظرة صديق للأسرة. نظرة فتى من جيل ابنها وابنتها إلى أمهما، ربة البيت الجميلة في طلعتها والأنيقة في هندامها والتي تجاوزت سن الصبا ولكنها لم تبلغ سن الكهولة بعد. تحدث عنها في رسائله إلى خطيبته مثنياً على إحاطتها له بالرعاية كلما زار دار الحاج نعمان، ولم يكتمها إعجابه بسلامة ذوق ربة الدار هذه في ترتيب منزلها وفي زيّ الملابس التي ترتديها. لم يخطر له، حتى حين نقم عليها ترديدها الأقوال التي لم تعجبه عن زوجة الأستاذ شكيب، أن لهذه الامرأة همّاً غير همّ ابنتها وعاطفة غير الإشفاق على ولديها والمحبة لزوجها. ولكن... هذه هي تتبدى له فجأة امرأة أخرى، منذ أحس بذراعها تطوقه وبجسدها يلتصق بجسده. ولم تقف هذه الامرأة عند هذا. لقد رفعت كفها عن أعلى منكبه، دون أن تخفف من شدة ضمتها له، وراحت تخلل بأصابعها شعره الكثيف جاذبة إليها رأسه إلى أن أصبح في مستوى رأسها وإلى أن لاصق خدها خده. لفحت وجهه آنئذ موجة لهب لا يدري هل انبعثت من أعماقه هو، أم انتقلت إليه من الوجنة الناعمة، المتوهجة حرارة، التي ضغطت على

وجنته ومن الشفتين الممتلئتين والنديتين اللتين أطبقتا على ملتقى شفتيه بخده إطباقاً حميماً. امتلأ صدره، بهذا اللصوق المفرط منها به، برائحة عطرها الذي كان يحس به قبل قليل خفيفاً، على حدته، ونديا فأصبح الآن ثقيلاً مسكراً أزاغ بصره وأدار رأسه.

لم يدر أنور، في غمرة أحاسيسه المتضاربة بما هو فيه، هل هو الذي وقف عن المسير أم أن رفيقته هي التي أوقفته في الظل المعتم لمدخل إحدى البوابات في ذلك الزقاق الضيق. الذي يدريه أنه، كردة فعل غير واعية لإطباق شفتيها على خده بتلك الصورة، باعد رأسه عنها وأدار جسده ليتفلت من دورة ذراعها المليء العاري، والدافىء على الرغم من رطوبة جو آخر الليل، حول عنقه. لم يفلح في محاولة ابتعاده، أو أنه لم يبذل في المحاولة من الجهد ما يجعله يفلح في الابتعاد. أصبحت هي مواجهة له، ذراعاها الاثنتان تطوقان منكبيه وكرتا ثدييها تطبقان على صدره. رفعت في هذه المرة جسمها على رؤوس أصابعها وغمغمت، وبصوت أبح قائلة:

ـ أنور... أنور... حبيبي!

وأطبقت شفتيها بقوة وإصرار، لا على وجنته وسط خده، بل على شفتيه...

ثلاث كلمات تلتهما قبلة طويلة! ازداد رأس أنور دوراناً ونبضت عروق صدغيه بالدم الدافق فيها نبضات متسارعة. في هذه المرة كانت محاولته التفلت من عناقها بالغة العنف. أمسك بمعصميها بقوة فأبعدها عنه، وتراجع هو بجسمه خطوتين إلى الوراء حتى بلغ بظهره الجدار، إلى جانب مدخل البوابة، فأسنده على حجارته الخشنة. ترددت أنفاسه معجلة للحظات، ثم طامن من لهاثه وقال بصوت أبح:

ـ تأخرنا. ماذا سيقولان عنا؟

لم تجبه أول الأمر. رآها، في العتمة، تفتح حقيبة يدها المعلقة بذراعها وتخرج منديلاً منها وتمد به يدها إليه وهي ساكتة. ثم ما لبثت أن قالت بصوت هادىء لا أثر للانفعال فيه:

ـ لماذا أنت مضطرب هكذا؟ نقول لهما إننا تهنا في هذه الأزقة المعتمة. تعال...

أطبقت بأصابعها على كفه وجذبته إلى زاوية من الزقاق معلق فوقها مصباح مضيء. قالت:

ـ كأنك خائف. يدك مثلجة. تعال لأمسح الأحمر عن شفتيك.

وحقاً كانت يده في برودة الثلج في حين أن أصابعها كانت تنفث لهباً وهي تمر بالمنديل على شفتيه. وبكل هدوء أخرجت إصبع حمرة وراحت تديره على شفتيها أمام مرآة الحقيبة. ومن جديد أمسكت بيده وجذبته في هذه المرة برفق وهي تقول:

ـ لا بد أن دلال هيأت لنا صحون الفول وهي تنتظرنا. اتبعني.

لم تلتصق به. بل إنها لم تسر إلى جانبه. تقدمته مسرعة في خطوها نحو دكان بائع الفول في مدخل حي السفاحية من أحياء حلب الشهباء القديمة.

ـ ٦ ـ

في آخر رسالة من أنور إلى خطيبته بعد عودته من مهمته في حلب، وستكون تلك آخر رسائله إليها من مقر عمله في مركز الاستصلاح، قال لها إنه أشفق عليها من القراءة الطويلة فلم يذكر لها شيئاً عن زيارته لأسرة الحاج نعمان ولا أورد أخبار ابن الحاج وابنته وزوجته.. زوجته بصورة خاصة. واضح أن الأمر لم يكن منه

إشفاقاً، ولا حتى نسياناً كما ادّعى. وإلا فكيف يمكنه أن يضمّن رسالته حكاية ما جرى له في تلك الليلة، منذ ما وقف في باب دار صديق أبيه حوالى الثامنة مساء حتى الساعة التي وقف فيها بعد منتصف الليل أمام دكان ذلك الفوال في أول أزقة السفاحية المنفتحة على دروب «المدينة» في أحشاء أحياء حلب القديمة؟

قطعاً ما كان في مكنته أن يفعل ذلك. قصر رسالته على الحديث عما يدخل في نطاق عمله في مركز الاستصلاح، واحتفظ لنفسه بذكرى ما جرى له في أول تلك الليلة وبيلبلة المشاعر والأفكار التي ملأت صدره ورأسه في آخرها، حين أوى إلى فراشه بعد أن وصل إلى فندقه، وظلت تملأهما حتى بعد أن ترك المدينة. غادر الفندق مبكراً في ذلك الصباح، ولم يكن قد نام إلا فترات قصيرة ومتقطعة من ساعات ليله الباقية، وسارع بسيارته إلى المرآب المركزي منتظراً قدوم المعلم شاهين إليه، ليصدّق ما قاله أمس للسيدة شاهناز من أن عليه مغادرة مدينتها منذ طلوع الشمس.

السيدة شاهناز! ما الذي فعلت به هذه الامرأة؟! كيف أقدمت على ما أقدمت عليه معه في هدأة الليل وسكون الحيّ وفي ظلمة ذلك الزقاق؟ وهو، كيف تقبّل هو منها ما فعلته في استسلام، فلم يبتعد أو يرفض أو يقول بوضوح إن هذا بها لا يليق وبالنسبة إليه لا يجوز؟ أتراها اعتقدت أن سكوته كان قبولاً ومشاركة؟ لا بد أن ذلك كان ظنها! إنه الآن يذكر كلماتها حين أوقف سهيل سيارته أمام الفندق. في الطريق إلى الفندق كان هو، أنور، راكباً إلى جانب السائق بينما كانت شاهناز ودلال في المقعد الخلفي. وعلى الرغم من أنه لم يلتفت ليرى وراءه فقد أدرك أن مضيفته لم تكن تستند بظهرها إلى ذلك المقعد، بل كانت منحنية إلى الأمام. كان

يحس بأصابعها تلامس نقرة رقبته أو تمتد فتخلل أدنى شعر رأسه كلما انحرفت العربة في سيرها أو ارتجت، مما ينبيء عن أنها كانت معتمدة بكفيها على المقعد الأمامي وراء ظهره. بل إنه في مرة أو مرتين أحس بدنو رأسها من رأسه وبنفحة من عطرها تفغمه، رادّة إياه إلى لحظة إطباق شفتيها على شفتيه بعد أن همست في أذنه بتلك الكلمات بذلك الصوت الأبح...

نعم، إنه يذكر الآن ما نطقت به هذه المرأة حين أوقف خطيب ابنتها سيارته أمام الفندق. ظلت طول طريق العودة ملازمة الصمت، وعندما مدّ أنور يده ليفتح باب العربة لينزل منها، ارتفع صوتها تقول لابنتها:

ـ ما رأيك يا دلال؟ لم يبق من الليل غير ثلاث ساعات أو أربع. كيف نترك ضيفنا، بعد سهرة ليلتنا الأخيرة، لينام في فندقه التعيس هذا؟

قال الفتاة متسائلة:

ـ ماذا تقصدين يا أمي؟

وضعت الأم يدها على منكب أنور أمامها وقالت:

ـ غرفة ربيع خالية في البيت. نأخذ أنور معنا فينام بقية الليل في سرير ربيع. ليكن ابناً لنا مكانه. ولو لليلة واحدة...

أطلقت دلال ضحكة عالية وقالت:

ـ أفكارك جهنمية يا ماما. ما رأيك يا ضيفنا العزيز؟ ضجة السوق لن تتركك تشبع نوماً بعد سهرتنا الطويلة. لا تنزل. تفضل معنا.

قالت الأم: نعم يا حبيبي. تفضل معنا.

استمع أنور إلى الحوار بين الأم وابنتها في أول الأمر وكأنه في

غيبوبة. ولكن لفظة «يا حبيبي»، مكررة من فم شاهناز نبّهته من غفوته فانتفض لها كالملسوع. تحرك لسانه بالكلام لأول مرة منذ تركوا دكان الفوال، فقال:

ـ شكراً. ليس هذا معقولاً يا سيدتي.

قال شاهناز: ولِمَ يا أنور؟

تردد قليلاً قبل أن يجيبها بقوله: المعلم شاهين ينتظرني في الصباح في المرآب المركزي قريباً من حي الميدان. علينا أن نبكر في تسيير الآليات حتى نصل في الوقت المناسب إلى مركز الاستصلاح. تصبحون جميعاً على خير. أودعكم منذ الآن، وتحياتي إلى عمي الحاج وإلى ربيع...

وها هو أخيراً في مركز الاستصلاح. انشغل عند وصوله إلى مكتبه في مديرية النقل في الرحبة بإنجاز معاملات التسليم وبتفقد أمور دائرته في غيابه القصير، ثم بالاطلاع على البريد الوارد في ذلك الغياب. بريد رسمي. مغلفاته السمراء إذا لم تقبض الصدر بمحتواها فهي لا تحمل إليه غير الرتابة والإملال. إلا أن مغلفاً أبيض أفرده لونه منها ساق إلى نفسه الحبور بمرآه. إنه رسالة من سميرة، خطيبته. قلب أنور ذلك الغلاف بين كفيه ثم دسه في جيبه دون أن يفتحه ليقرأه. فما كان يريد للمعلم شاهين، الذي كان يتخذ مقعده على كرسي في زاوية غرفة المكتب، أن يدرك من ملامح وجهه التأثر الذي يسري إليها من قراءته لتلك الرسالة. فليتركها إلى أن يخلو بنفسه.

وهكذا فعل. قرأ رسالة خطيبته فنسي لها ما كان يتضارب في صدره من مشاعر وما يتردد من أفكار. ملأته عبارات تلك الرسالة غبطة بما صورته كاتبتها فيها عاطفتها وما أوردته من أخبارها.

وأضافت أنها تحمل إليه بشارة اطلعت عليها قبل قليل من عمها، أبيه شاكر بك. تلك البشارة التي اعتقدت سميرة بأنها ستسر خطيبها كل السرور، كان خبر سعي علي بك المتوقع نجاحه إلى نقله هو أنور إلى دمشق. عند هذا تحول تفكير أنور إلى اتجاه آخر. تضاءلت في نفسه آثار زيارته الأخيرة لحلب وما مرّ به في مخالطة لأهلها فيها، ووجد نفسه يمسك بالقلم ليخط إلى خطيبته الرسالة التي اطلع القارىء عليها في أول هذا القسم من هذه الرواية.

أنهى أنور كتابة الرسالة وكان عليه، وقد حان وقت الغداء، أن يقصد مطعم المركز ليتناوله فيه. إلا أنه لم يجد في نفسه الشهية لذلك. كما إنه، وعلى خلاف عادته بعد عودته من أسفاره، لم يجد فيها رغبة في المرور على الأستاذ صبحي في مكتبه ولا محادثته بالهاتف. عاد التشوش إلى أفكاره والتضارب إلى مشاعره، ولم يكن يدري أهذا الذي يملأ صدره غم من تعرضه لتجربة ليلة البارحة، أم هو راحة لخلاصه من تلك التجربة بسلام؟ أهو ضيق هذا الذي يحس به أم أنه بقية غبطة من لذة محرمة سيقت إليه ولم يسع هو إليها متعمداً؟ أقنع نفسه بأن زهده في الطعام وفي مقابلة الأستاذ صبحي وفي رؤية زملائه يرجع إلى ما فقده من كفاية النوم في الليلة الماضية، وأن عليه أن يعود إلى غرفته فيقرأ قليلاً بل أن يغرق في نوم يسد به حاجته من الراحة والسكينة. وهكذا اضطجع في سريره فلم يغادره إلا في صباح اليوم التالي.

في صباح اليوم التالي تلقاه الأستاذ صبحي، حين بكر عليه في مكتبه، فاتحاً ذراعيه بطولهما، عريض الابتسامة، وهو يقول:

- يا ألف صباح خير. الناس هنا يقولون: من طوّل الغيبات جاب الفوائد. لا نريد من فوائدك غير الأخبار الطيبة يا عزيزي أنور.

ارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتي أنور وهو يرد على صاحبه بقوله:

ـ وأي فائدة أكبر مما جئت به يا أبا منير؟ إذا شرفتنا في الرحبة رأيتها بعينك: بلدوزر مجنزر بقد الدنيا ورافعة شوكية لا تقل عن البلدوزر في حجمها. أما الأخبار الطيبة فهي عن الأستاذ شكيب. حمّلني سلامه وتحياته إليك. هو بخير ومشتاق إلى رؤيتك. بقي أن تسمعني أنت أخبارك الطيبة.

أسبل الأستاذ صبحي ذراعيه وغاضت الابتسامة عن ملامحه مخلفة مكانها لعرته المعهودة قبل أن يقول:

ـ أخباري لا أستطيع الحكم على طيبها منذ الآن. بعد أن تقابل الأستاذ فياض نعرف من أيّ نوع هي.

قال أنور متسائلاً:

ـ أقابل الأستاذ فياض؟ هل طلب المدير العام أن أقابله؟

قال الأستاذ صبحي: نعم يا عزيزي. سأل عنك أكثر من مرة. الآنسة أسمهان في انتظارك. من نغمة صوتها عرفت أنها أكثر شوقاً إلى رؤيتك من معلمها. إذا أسرعت في الذهاب فستشرب معها فنجان قهوة قبل أن يصل الأستاذ فياض إلى مكتبه. عليك إذن أن تنصرف من هنا...

ابتسم أنور للهجة صاحبه الملحة، كأنه كان يطرده بها من غرفته. طاوعه فخرج من عنده واجتاز الساحة بين مجمع موظفي الإدارة وبناء المديرية فلم تقع عينه على سيارة المدير العام في موقفها. هذا يعني أن توقع الأستاذ صبحي في محله وأن سكرتيرة المدير فارغة لأن تكمل حديثها الذي بدأته له ولم تتمه في المرة الماضية. كان

باب غرفة مكتبها مفتوحاً على مصراعيه حين أقبل عليها من الرواق الضيق، فأشارت إليه بيدها مذ رأته وهتفت تقول:

ـ الحمد لله على السلامة يا مهندس أنور. تفضّل... تعال لتسمع مني الأخبار السارة.

صافحها مبتسماً للهجتها المرحبة والمرحة، وقال:

ـ الله يسلمك يا آنسة، ويرضى عليك. أية أخبار سارة لي عندك؟

أشارت إليه ليجلس على كرسي قريب من مكتبها وقالت، وعلى شفتيها ابتسامة ذات مغزى:

ـ الأخبار التي أعنيها سارة لي أنا. لم تعرّفني قبل الآن باسم خطيبتك يا أستاذ...

قطب أنور ما بين حاجبيه وقد فوجىء بعبارتها الأخيرة. ما علاقة اسم خطيبته بالأخبار السارة... السارة للآنسة أسمهان وليس له؟ قال متسائلاً:

ـ اسم خطيبتي؟

قالت: نعم. إنها سميرة عبد المعين. سميرة عبد المعين هي رفيقة صباي وطفولتي يا باشمهندس، وهي خطيبتك. لم أصدق حين سمعت اسمها الكامل، منذ ثلاثة أيام، تنطق به أمامي إحدى زميلاتنا هنا. لهذا قلت إن الخبر السار هو لي، وأرجو أن يكون كذلك لك.

انبسطت ملامح أنور حين فهم هذا من مخاطبته وردّ بقوله:

ـ لا شك في أن هذا يسرني. منذ متى تعرفين أنت سميرة؟

أجابت: قلت لك إنها رفيقة الصبا. افترقنا بعد شهادة البكالوريا.

توجهت هي إلى الجامعة، علاماتها أهلتها لذاك، والتحقت أنا بمعهد السكرتارية وهو ما جاء بي إلى هنا، أنا وأمي. أمي أصبحت تسأل عنك. فهي تعرف سميرة جيداً وتعزها مثلي. علاقتك بنا لن تقف عند الرسميات... أصبحنا أهلاً. قهوتك وسط، أليس كذلك؟

هز رأسه إيجاباً تاركاً لها أن تستقل بالكلام. قالت، بعد أن أوصت الآذن بتهيئة القهوة:

ـ ثم إن سيادة المدير العام كلفني بأن أستدعيك لمقابلته حال ما تعود من مهمتك. هذا أيضاً وراءه خبر سار... ولكنه لك. أما لي فسيكون خبراً محزناً.

قال: لم أفهم يا آنسة أسمهان.

قالت: أسمهان هو اسمي، مع حفظ الألقاب. أليس هكذا يقولون في المكاتبات الرسمية؟ اسمي، إذن، أسمهان!

اتسعت ابتسامته وهو يقول: نعم يا أسمهان. لم أفهم عليك.

قالت: في غيابك عاد إلينا صديق مديرنا العام، علي بك. تتذكره بلا شك. يبدو أنه صديق محب لوالدك. تحدث مع الأستاذ فياض في أمر نقلك إلى دمشق الشام... إلى مزرعة تجريبية في الغوطة تهتم بها الوزارة اهتماماً كبيراً في هذه الأيام. خبر إذا تحقق فهو سار لك ومحزن لنا. ألم أقل لك؟

وسكتت منتظرة جوابه. أما هو فقد سيطر عليه السهوم وقال بصوت خافت، كأنه يحدث بهذا نفسه:

ـ بهذه السرعة؟

قالت، حين لم تبلغها كلمته الهامسة:

ـ ماذا، يا أنور بك؟

أخرجه سؤالها من سهومه فابتسم وهو يقول:

ـ أنور... مع حفظ الألقاب، يا أسمهان!

ضحكت وقالت: لا تفوتك واحدة. ماذا قلت يا... أنور؟ نعم، إذا تحقق هذا فستكون لي عند سميرة بشارة لأني أول من يخبرها. مالك مقطباً هكذا كأن ما أخبرتك به لا يعجبك؟ تفضل وخذ فنجانك.

والحق أن الوجوم عاد إلى ملامح أنور وهو يفكر بحكاية النقل هذه. قرأ عنها أمس في رسالة خطيبته، وها هي اليوم تعود إليه على لسان مديرة مكتب المدير العام. تأمل في الفتاة وهي تخطر أمامه، مرة لتضع طاولة صغيرة أمام مقعده ومرة لتأخذ فنجان القهوة من الآذن وتنحني لتضعه على الطاولة، فقفزت إلى ذهنه، بالمقارنة، صورة خطيبته صديقة هذه الفتاة. شرد للحظة عن التفكير بالنقل وبعلي بك وبالأستاذ فياض، ليقارن بين الصديقتين. تلك طويلة القد مستقيمة، بيضاء البشرة، وهذه دقيقة القامة وملامح الوجه، رقيقة الشفتين، أقرب ما تكون إلى السمرة. تكاد تكون نقيضة لسميرة. هذا لا يعني أن هذه الفتاة التي تقف أمامه ليست جميلة. إنها كذلك ولكن جمالها يبدو مضاداً لجمال خطيبته، والضد يظهر حسنه الضد... أما قال الشاعر القديم هذا؟

ابتسم أنور لنفسه في سره حين انتبه إلى أين ذهبت خواطره في تلك اللحظة، وقال وهو يرى الفتاة في مكانها أمامه كالمنتظرة منه كلمة لم يفه بها:

ـ شكراً. قهوة سيادة المدير العام طيبة يا... يا أسمهان. أريد أن أسألك.

تراجعت لتأخذ مجلسها في المقعد المقابل له، وقالت:

ـ تفضل واسأل. كلي، كما يقولون، آذان صاغية.

قال: أَسأل عن علي بك. تحدث عن نقلي مع الأستاذ فياض. ألم يتحدث عن قضية مرتبطة بجارنا في معمل الزيوت النباتية، المدعو أمير غزلان؟

هزت أسمهان برأسها وقالت بمكر:

ـ هذا أمر آخر. الخبر الذي نقلته إليك كان سراً من أسرار المصلحة المفروض أن لا أبوح به. ولكني خنت الأمانة فيه لأنه يتعلق بك شخصياً. خنتها مجاناً يا عزيزي. وما تسألني عنه الآن سر من أسرار المصلحة أيضاً، لا علاقة لك به، فيتوجب عليّ أن لا أفشيه لك. ومع ذلك...

وقطعت كلامها مبتسمة من جديد، فقال أنور متسائلاً:

ـ ومع ذلك؟

قالت: ومع ذلك، فقد أخون الأمانة لك من جديد، ولكن بثمن هذه المرة... ليس مجاناً. لنؤجل يا أنور حديثنا إلى فرصة أخرى. سيارة المدير العام وقفت أمام البناء.

علت في هذه الأثناء الجلبة في الممرات وتكاثرت أصوات الخطى أمام غرفة مديرة المكتب. لم تقع عين أنور على الأستاذ فياض عند مجيئه، إذ دخل إلى مكتبه من الباب المفتوح على الرواق. وما لبث صوت الجرس أن ارتفع مستدعياً أسمهان. قامت هذه معجلة، وهي تلقي على أنور نظرة ضاحكة، وفتحت الباب المؤدي إلى

غرفة رئيسها وغابت وراءه. وما انقضت دقيقتان أو ثلاث حتى عادت لتقول للشاب:

ـ تفضل يا أستاذ أنور. سيادة المدير العام يستقبلك.

مد المدير العام، الأستاذ فياض، يده لأنور مصافحاً وأشار إليه بأن يجلس على المقعد القريب، ثم انصرف إلى النظر في أوراق كان موظف يقف أمامه يقدمها إليه واحدة بعد الأخرى. كان يجيل نظره في تلك الأوراق معجلاً ويضع توقيعه في أسفل كل منها بدون أن يفوه بكلمة. وحين خرج الموظف حاملاً أوراقه معه أسند المدير العام جذعه إلى ظهر كرسيه ورفع رأسه قائلاً لأنور:

ـ كنت في مهمة في حلب... أليس كذلك؟ يبدو أن استلام الآليات أخذ منك وقتاً طويلاً.

قال أنور: ليست الآليات وحدها يا سيدي. أكثر ما أخّرني استلام الأدوات المكتبية والتجهيزات الالكترونية. الموردون متعددون والشكليات كثيرة. ما كان ممكناً أن ننجز ما أنجزناه في يومين فقط، والتأخر كان على الرغم مني.

ابتسم الأستاذ فياض في تحبب وقال:

ـ لا يؤاخذك أحد على هذا. سمعتك في دقة التنفيذ ومراعاة المصلحة العامة لا غبار عليها. كنت أنتظر تقريراً منك عن الشكوى حول تلك الأرض، أرض...

وتوقف كأنه لا يتذكر الاسم، فأكمل أنور الكلام قائلاً:

ـ أرض السياد. صحيح. مهمة الاستلام المستعجلة أخرت كتابتي للتقرير ذاك. عناصره حاضرة وسأقدمه لسيادتك قبل انتهاء هذا الأسبوع.

تضاحك المدير العام وهو يقول:

ـ قل إن شاء الله. خذ راحتك، فالأرض في مكانها والسياد المشتكون في مكانهم أيضاً. في غيابك، وربما قبل سفرك، جاءني الرجل المشتكى منه، خصمهم، فعرض لي أمره معهم. تقول الحكمة القديمة: إذا جاءك مشتكٍ مقلوع العين فلا تحكم له حتى ترى خصمه، فقد يكون هذا مقلوع العينين الاثنتين! هل استمعت أنت لحجج السيد أمير غزلان حول ملكيته للدرب أو ستبني تقريرك على أقوال أولئك الناس السيّاد وحدهم؟

فوجىء أنور بالسؤال، وأحس من لهجته بأن المدير العام طرحه مؤنباً إياه على تقصيره في عمل لم يؤده كما يجب. وهذا ما جعله يلزم الصمت للحظة، قبل أن يجمع شتات فكره ويقول:

ـ سبق أن قابلت، ومعي الأستاذ صبحي، السيد غزلان واستمعت إلى حججه. حججه تقوم على امتلاكه عقوداً مشكوكاً في قانونيتها. إذا تفضلت وقرأت التقرير الذي سأقدمه ستقتنع يا سيدي بأن هؤلاء المساكين خضعوا لعملية استلاب فاضحة، عدا عن منعهم من استخدام درب هو طريق للعموم وليس للسيد أمير خاصة. ثم إنهم ليسوا وحدهم ضحية ذلك الاستلاب. الدولة نفسها وقعت مثلهم ضحية لتجاوزات هذا الرجل.

كان في ثنايا جواب الفتى بارقة تحدٍ لم يدر هو كيف انساق إليه. دفعه إلى ما قال شعوره بالتحول الذي أصاب مديره العام في نظرته إلى أمير غزلان. وكأن الأستاذ فياض فطن إلى تأثر مخاطبه، فعاد في الكلام إلى لهجته المتحببة وهو يقول:

ـ لا ألومك على انتصارك لهؤلاء المساكين. عن منع السيد أمير لهم من المرور في الدرب، قدّم لي المذكور حجة مقنعة. إنه ينشىء

مصنعاً للزيوت النباتية على حاشية الدرب، والمرور المستمر للسابلة وللدواب بحذاء المصنع يعرّض المواد الغذائية المنتجة فيه إلى التلوث وإساءة الشروط الصحية المطلوبة لها...

لم يملك أنور نفسه عن الابتسام باستخفاف لما سمعه من رئيسه، وأن يقول:

ـ هذه حجة جديدة لم يتقدم بها إلينا الرجل قبل الآن. حجة مستدركة وواهية في آن واحد. الدرب يا سيدي كان مرفقاً عاماً ومستخدماً قبل أن يفكر السيد غزلان بإقامة مصنعه بعشرات السنين. كان الأحرى به أن يبعد مصنعه الجديد عن الطريق القديم، لا أن يطالب بالشيء المعاكس.

تضاحك الأستاذ فياض وقال:

ـ يعجبني حماسك يا مهندس أنور. كما أن تفكيرك بمصلحة الدولة وسعيك لكشف التجاوز على حقوقها يستحقان التقدير. بارك الله بك. ما أقصده هو أن لا نبعد عن الإنصاف في معاملتنا للمواطنين أياً كانت منزلتهم. القانون هو القانون، ويجب أن تطبق أحكامه على الناس بالسواء. أنا في انتظار تقريرك إذن.

فهم أنور من العبارة الأخيرة أن المقابلة انتهت، فنهض من مجلسه ورفع يده إلى جبينه محيياً ومستأذناً. إلا أن الأستاذ فياض لم يكتف بتقبل التحية في مكانه. استدار من وراء منضدته وقال له، وهو يضع كفه على منكبه في تودد:

ـ شاكر بك، والدك يا عزيزي، إنسان كبير وفضله يعترف به الكثيرون من زملائي وأبناء جيلي. ومحبوك أنت، لشخصك ولمكانة والدك المحترم، كثيرون أيضاً. بعضهم في العاصمة يريدون

أن يستأثروا بك هناك ويحرمونا بهذا من كفاءاتك. إذا حدث ذلك فاذكرنا عندئذ بالخير. مرة أخرى، أنا في انتظار تقريرك. إذا احتجت إلى شيء في هذه الأثناء فلا تتردد في الاتصال بي مباشرة. مع السلامة.

قال هذا واستدار إلى مقعده وراء منضدته.

ولما خرج أنور من الباب المفتوح على غرفة أسمهان وجدها واقفة وراءه، تحمل ملفاً كبيراً بيدها، كأنها كانت تنتظر خروجه لتدخل على رئيسها. قالت له فيما يشبه الهمس:

ـ انتظرني. لك فنجان قهوة آخر، ولا بد أن نكمل حديثنا.

وانسلت إلى غرفة المدير العام مطبقة الباب وراءها.

مضت دقائق قليلة عادت بعدها أسمهان إلى غرفتها. وفد إلى الغرفة في هذه الأثناء بعض موظفي المركز فوجدت الفتاة ضيفها منشغلاً بتحيتهم ومبادلتهم المجاملات. أراد هو القيام والانصراف، فالعودة إلى حديثهما المنقطع يبدو متعذراً في الوقت الحاضر. ولكنه كلما هم بذلك أشارت هي إليه بالتريث. من ناحية، كان هو مستعجلاً إلى العودة إلى الأستاذ صبحي لينفض له أفكاره غير المرضية عن التحول الذي بدا له في أقوال المدير العام. ومن ناحية أخرى فكّر بأن استعادة الحديث مع سكرتيرة هذا المدير قد تفيده في معرفة المدى الذي وصل إليه ذلك التحول. ولما خلت الغرفة أخيراً ممن كانوا فيها قرّبت أسمهان كرسيها من مقعد أنور، وقالت له بصوت خفيض:

ـ أخّرتك. لنعد إلى المعلومات التي سألت عنها. لها ثمن كما قلت لك. هل أنت مستعد للدفع؟

قالت هذا وعلى شفتيها ابتسامتها الواسعة. أجابها بمثل صوتها الخفيض، وبمثل لهجتها الماكرة:

ـ لا بد من معرفة الثمن قبل أن أجيب بلا أو نعم؟

أراحت كفّها على إحدى ركبتيه ضاغطة عليها بلطف قبل أن تقول:

ـ أنت مساوم شاطر. حسناً... لاحظ أني لم آمر لك بفنجان قهوة. الثمن الذي أطلبه يا سيادة المهندس أن تتناول هذا الفنجان عندنا، أنا وأمي، مساء الغد في شقتنا المتواضعة. مع القهوة برازق وأقراص بعجوة تذكرك بشامنا العزيزة. اتفقنا؟ غداً في الساعة الثامنة والنصف مساء، في جناح العازبات من البناء السكني رقم ٤ . حارتنا ضيقة ولن تضيع فيها.

لم تترك له مجالاً لأن يعتذر أو ليستفهم. فقد استدارت إلى منضدتها لتستقبل من ورائها وافداً يطلب مقابلة المدير العام. بينما أسرع هو في طريقه إلى الأستاذ صبحي.

بادره أبو منير، منذ ما دخل عليه غرفته، بقوله:

ـ خيراً... أطلت غيبتك. من المسؤول عن تأخيرك، المدير العام أو سكرتيرته الحلوة؟

ألقى أنور بجسده على الكرسي إلى جانب المنضدة وأجاب:

ـ كلاهما يا معلمي. كل منهما أخّرني بطريقته الخاصة. وكل منهما فاجأني بما هو جديد عليّ.

قال الأستاذ صبحي: لعلها مفاجآت سارة. ما هي مفاجأة مديرنا العام؟

قال الفتى: بل أبدأ بمفاجأة الآنسة أسمهان. أخبرتني بأنها صديقة

قديمة لسميرة، خطيبتي التي هي رفيقة طفولتها. أليست مفاجأة أن أجد لخطيبتي المبعدة عني من تعرفها معرفة وثيقة هنا؟

أجابه الأستاذ صبحي: بلى. وهي مفاجأة طيبة، إلا إذا كنت تخشى من مراقبتها لك وإرسالها التقارير بتصرفاتك الشاذة إلى خطيبتك صديقتها...

قال أنور محتجاً: تصرفاتي الشاذة؟ سامحك الله يا أبا منير. هذا عن مفاجأة أسمهان. أما عن مفاجأة الأستاذ فياض، فإني أخشى أن لا تعجبك.

زمجر الأستاذ صبحي قائلاً: كيف؟ خبّرني.

ردّ أنور قائلاً: الصحيح أنه مجرد شعور مني بتحول موقف مديرنا تجاه ذلك الرجل، أمير غزلان. لم يعد ذلك المتحمس لإيقافه عند حده سواء في غبنه للسياد عند شرائه أرضهم ثم بسد الدرب عليهم دون مبرر، أو في ما قدّرناه، من غشه للدولة وبيعها أرضاً بأضعاف أضعاف ثمنها الحقيقي.

تحرك رأس الأستاذ صبحي وكتفه بعرته دليل تأثره بما يسمعه، وقال:

ـ ما الذي جعلك تعتقد بهذا التحول؟ الشعور وحده لا يكفي. هل أصدر إليك توجيهاً صريحاً في الموضوع؟

لم يجب الشاب على السؤال لتوه. نهض من على كرسيه واستدار إلى الشباك المطل على الساحة متطلعاً إلى الموظفين وأصحاب المصالح الذين كانوا يجتازونها في تنقلهم بين مجمعات المركز، ملازماً الصمت ثواني كثيرة. ثم ما لبث أن عاد فجلس في كرسيه إلى جانب المنضدة وقال:

ـ نعم، إنه مجرد شعور. شعور أثارته فيّ طريقة كلامه حين أخبرني بأن رجلنا زاره وقدّم إليه حججاً بقانونية موقفه. هذه هي ثاني زياراته على الأقل. ثم إني عرفت أن هذه الزيارة، مثل سالفتها، كانت برعاية علي بك. علي بك الذي تعرفه...

قال الأستاذ صبحي: نعم، أعرفه.

تابع أنور كلامه قائلاً: الأستاذ فياض ينتظر تقريري. سأسعى إلى إنجازه في هذين اليومين. أريد أن تزودني بتفصيلات المعلومات التي حدثتني عنها... مخالفات شروط الإعلان في صفقة شراء مديرية الصناعة الزراعية للأرض، ونصوص القرارات التي تبين أبعاد حرم الطريق العام. كما أريد الحصول على مخطط الطريق العام نفسه. بالطبع لن أبيّض التقرير قبل أن توافق أنت على مسودته.

نهض الأستاذ صبحي لأقوال صاحبه من وراء منضدته واتجه إلى خزانة متعددة الأدراج بجانبها، فأخرج منها أوراقاً أضافها إلى مثيلات لها في مصنف كان أمامه، وقال وهو يبتسم ابتسامة الرضى:

ـ كل ما تطلبه جاهز يا أستاذ، أو ستجده جاهزاً غداً وبعد غد على الأكثر. أعجبتني لهجة المحارب في كلامك يا بنيّ. ستكون معركتنا حامية مع أميرهم الغزلاني هذا!

ـ ٧ ـ

لم يشر المهندس أنور، في حديثه مع الأستاذ صبحي، بكلمة عن حكاية النقل التي وردت على لسان خطيبته وكررتها بعدها أسمهان بلسانها، ثم ألمح إليها سيادة المدير العام في مقابلته هذه له. كان تفكيره بالتقرير المطلوب منه إعداده هو ما يشغل باله قبل كل شيء. وما كان يمكنه الانتهاء من هذا الاعداد في ليلة واحدة. لقد

عاد في اليومين التاليين أكثر من مرة إلى أبي منير ليستوضحه عن نقاط معينة في الموضوع، وليستشيره في كيفية معالجته لنقاط أخرى منه. العناصر التي بين يديه عن مخالفة الشروط القانونية في عملية شراء إحدى المؤسسات الحكومية لأرض أمير غزلان كثيرة. إلا أنها، مع كثرتها، هشة الأسس يستلزم قبولها اقتناع المسؤولين بتعمد هذا الرجل الغش والتلاعب في تعامله مع الهيئات الرسمية. هذا الاقتناع موجود وراسخ عند أنور وعند الأستاذ صبحي، إلا أن وجوده غير مؤكد عند المدير العام. دليل ذلك ما فاه به الأستاذ فياض عن الحجج التي تقدم بها أمير غزلان إليه، وكأنه، أي المدير العام، مستعد لاعتبارها صالحة ولقبولها. أسلوب ذلك الرجل البغيض في سد الدرب المحاذي لبناء مصنعه وقيامه بغرس الشتول في حرم الطريق العام يكفيان وحدهما للبرهنة على فساد تصرفاته وسوء نواياه. ولكن هل يكفي هذا لإقناع المدير العام بوجوب إعادة النظر في عملية البيع والشراء تمهيداً لفسخ عقد مبرم دخلت بنوده في حيز التنفيذ؟

فسخ ذلك العقد هو النقطة الرئيسية التي يستهدفها المهندس أنور في تقريره، وهي ما ينوي التركيز عليها والكشف عمّا يؤدي إليها. سيتبع ذلك الفسخ، وربما سبقه، نزع يد أمير غزلان عن حرم الطريق، ثم الادعاء عليه بالتعدي على أملاك الدولة وتغيير معالم هذه الأملاك بدون ترخيص. هذه دعوى ستكون مضمونة النتائج، ليس للمعتدي أمل في الخلاص من الحكم عليه فيها. أما عن السياد والغبن الذي نزل بهم، فإن التعرض إلى موضوع إنصافهم لا مجال له في الوقت الحاضر. إذ ليس من مبرر لتدخل مديرية الاستصلاح في خلاف مدني بين فريقين من المواطنين متخاصمين. من المؤكد أنهم سيستعيدون حقهم في استخدام الدرب الترابي الذي سده

عليهم ذلك الرجل. ولعل الملابسات التي ستخلقها مخاصمة الدولة لغريمهم تتيح لهم منفذاً إلى إعادة النظر في شرائه أرضهم بسعر يقل عن سعرها الحقيقي بعشرات المرات... «فلننتظر ما تأتي به الأيام!».

هذه الجملة الأخيرة قالها أنور لنفسه وهو يفكر بالأسلوب الذي سيكتب به تقريراً واضحاً ومقنعاً ومتين الأسانيد، يوضح فيه للأستاذ فياض بالدرجة الأولى كيف أن المدعو أمير غزلان قد قلع أعيناً كثيرة لخصومه، من السياد ومن مؤسسات الدولة، دون أن تصاب أية من عينيه بخدش. وفي الوقت نفسه كان أنور يتساءل عن مدى فاعلية علي بك، الذي أكثر من زياراته للمركز، في سير هذه القضية التي يعكف هو على كتابة التقرير عنها. تساؤل توقع أن يحصل على بعض الجواب عنه في زيارته لأسمهان، الفتاة الحلوة الحديث والتقاطيع، ولأمها، هذا المساء.

وكما توقعت له أسمهان، لم يصعب على أنور معرفة الشقة التي قصدها في البناء رقم ٤ وجناح العازبات فيه. كانت هذه أول مرة يدخل فيها الجناح الذي طالما سمع زملاءه من الموظفين العزاب يتندرون في الحديث عنه وعن ساكناته، وفي خيال كثير منهم صورة للفتاة التي تصلح له، بين الساكنات، شريكة حياة. كانت شقة أسمهان وأمها مسكناً صغيراً في أبعاده وفي قلة غرفه، ولكنه بلا شك كان كافياً لامرأتين وحيدتين، إقامتهما في هذه البقعة مفترض بها أن تكون موقتة مهما طال أمدها. وكان أثاث المسكن أنيقاً في بساطة، ألوانه منسجم بعضها مع بعض وجدرانه مزينة بلوحات رسوم تجريدية في أغلبها، كأنما سكبت فيها فتاة البيت

رشاقتها في الحركة ومرحها في الحديث. قالت له الفتاة، بعد أن بادلته التحية ورحبت به:

ـ الوالدة مشغولة في المطبخ. هؤلاء الشاميات العتيقات، لهن عقليتهن التي لا تتبدل.

قال مستوضحاً: ذكرك للمطبخ ولعقلية الشاميات العتيقات يخيفني. الشرط بيننا فنجان قهوة وقرص برازق...

اتسعت ابتسامة أسمهان وهي تقول: أقراص برازق وأقراص عجوة يا سيدي. ولكن أمي تجد هذا غير لائق بمقامك. إنها تعدّ لك مائدة صغيرة مما تسميه «حواضر البيت». ليكن الله في عونك...

دلفت الأم في هذه الأثناء إلى الصالون الصغير من باب جانبي. كانت امرأة صغيرة القد ومليئة الجسم في آن واحد. لا بد من أنها هي التي أورثت ابنتها قامتها غير الطويلة وأنها، في صباها، كانت مثل ابنتها اليوم في انسجام دقة ملامحها مع قصر قامتها. أما اليوم، وهي في سن كهولة غير متقدمة، فقد امتلأ جسدها وتكور وجهها الذي أدارت حوله وعلى رأسها طرحة بيضاء مزركشة الحواشي تستر به شعرها. قالت الأم مرحبة:

ـ يا مساء الخير وألف خير يا ابني. فرحت وشكرت ربي حين عرفت أن نصيب حبيبتي سميرة كتب لشاب في حلاوتك وطيب أصلك. يا أهلاً ومرحباً بك. قومي يا أسمهان. وضعت لك القهوة على النار. أنت تعرفين أحسن مني ذوق أنور بك بها. هذه قهوة أهلاً وسهلاً يا ولدي.

ابتسم أنور لنفسه وتذكر وصف الفتاة لأمها بأنها شامية عتيقة. قهوة أهلاً وسهلاً تعني أن أمامه فترة طويلة قبل أن تهيّىء له قهوة

مع السلامة. في هذه الأثناء اتجهت أسمهان إلى المطبخ وهي تغمز إلى أنور بعينها إشارة مكر من الجيل الفتيّ للجيل الشائب. وحين عادت بطبق عليه ثلاثة فناجين ملأى تقدمت إليه وهي تقول:

ـ أعرف ما يدور في نفسك. تقول إنك دفعت الثمن ولم تقبض البضاعة... شربت القهوة ولم تسمع جواباً على أسئلتك! لا تستعجل. أمامنا وقت لذلك الحديث.

سألتها أمها: أيّ حديث يابنتي؟

غمزت أسمهان بعينها مرة أخرى قبل أن تجيبها قائلة: الحديث الكاذب الذي رددته زميلتنا مطيعة عن ملازمة أنور بك للنوريات اللواتي يسمونهن هنا حجيات. زملاء مهندسنا العزيز يشهدون على بعده عن هذه السخافات التي يغوص فيها بعض الشباب إلى الركب. ولكن ماذا نفعل بقليلات الوجدان من البنات، وحتى من العجائز، المغرمات بخراب البيوت؟

ـ قالت الأم: يحمينا الله من أولاد الحرام. قلت لي إن بعضهن سألنك عن عنوان الخطيبة ليكتبن إليها بهذا الكلام الذي لا أصل له...

قالت أسمهان: وما هو شغلي هنا بعدما عرفت أن الخطيبة هي سميرة عبد المعين؟ طمن بالك يا أنور بك، وضع رجليك في الماء البارد... لا أحد يقدر على أن يوصل إلى سميرة خبراً كاذباً وأنا هنا.

كاد أنور أن ينفجر بضحكة لهذا التمويه من الفتاة على أمها. ولكنه تماسك إلى حين رأى الأم تعود إلى المطبخ لتنشغل فيه من

جديد، فضحك ضحكة هادئة وهو يتزحزح من مكانه على الديوان لتجلس أسمهان إلى جانبه وتقول:

ـ نعم يا سيدي... عن علي بك! في غيبتك عاد إلينا البك وتردد على مديرنا العام مرات ثلاثاً. اثنتان منها مع الرجل الأكرش ذي الحواجب الغليظة والشفتين المتورمتين الذي اسمه السيد أمير.

قال أنور معلقاً: ثلاث مرات! وتحدث البك مع الأستاذ فياض في أمور تهم ذلك الأمير بلا شك...

قالت: بلا شك. وبلا شك أيضاً سمعت أنا أحاديثهما. ليس كل الأحاديث بالطبع، ولكن ما طرق منها سمعي مصادفة أثناء دخولي مكتب معلمي وخروجي منه لحاجة المصلحة. أقول هذا كي لا تأخذ عني فكرة سيئة وتظنني أتلصص على رئيسي لأسمع ما يدور بينه وبين زواره من وراء الباب!

ابتسم أنور وربت على كفها المستندة إلى حافة الديوان بقربه، وقال:

ـ فكرة سيئة عنك؟ معاذ الله. أفكاري عنك بالغة الحسن يا... يا أسمهان.

قالت: أشكرك، وإن كان لا شكر على واجب! تريد الصحيح؟ أكثر ما اهتممت به كان ما دار بين الرجلين حول نقلك. كنت عرفت من قريب من تكون خطيبتك، لذلك فإن الأمر أصبح يهمني شخصياً. ولكني أراك لا تسأل عن أمر نقلك وتحصر اهتمامك بمايتعلق بالسيد أمير ومشاكله مع الفلاحين. أذكرهم هؤلاء الفلاحين، فقد تظاهروا في ذات يوم أمام مكتبنا مشتكين من هذا الرجل.

قال أنور: تعنين السيّاد. نعم إن أمرهم يهمني يا أسمهان، ويهمني شخصياً كذلك. أنت لا تعرفين أن نقلي مطلوب لاهتمامي الزائد بهؤلاء الناس. أو على الأصح، لملاحقتي تجاوزات صديق علي بك الذي يتأبطه في كل زيارة له لمديرنا. تجاوزاته على السياد وعلينا جميعاً.

تساءلت قائلة: علينا جميعاً؟ من نحن؟

أجاب، وقد سرت نفحة حماس في عباراته: أقصد بنا، نحن المواطنين... أنا وأنت والناس في مركز الاستصلاح وحوله وبعيداً عنه. أمير غزلان خدع الدولة وغرف من خزينتها مئات الآلاف، وربما الملايين. أنت تذكرين الكلمة التي تقول إن خزينة الدولة جيوب رعاياها... ومن هم رعاياها؟ نحن... المواطنون كافة.

صفقت أسمهان بيديها في مرح وقالت:

ـ أعجبتني يا أستاذ. أنت تتكلم مثل خطباء اجتماعات التوعية التي ندعى إليها كل يوم والثاني ونحضرها مرغمين. لحديثنا تتمة.

قالت الفتاة هذا حين دخلت أمها الصالون ببعض الصحون على صينية بيدها، وأشارت إلى ابنتها قائلة:

ـ قربي يا بنتي طاولة الوسط من أنور بك، ثم ارجعي إلى المطبخ لتجلبي ابريق الشاي والأقداح...

لم يكن أنور يتوقع أن تكون زيارته هذه وليمة عشاء، ولكنه لم يجد له مهرباً من أن يتقبلها كذلك. كان أمامه عمل في العودة إلى كتابة تقريره في بقية سهرته، فانتزعته حفاوة أم أسمهان، واسمها الذي تناديها به أحياناً ابنتها هو أم أحمد، انتزعته تلك الحفاوة من ذلك العمل. لم يزعجه هذا كثيراً. لينتظر الأستاذ فياض ذلك

التقرير يومين أو ثلاثة أو أكثر... ألم يقل له هو نفسه: لا تستعجل في الأمر وخذ راحتك؟ فليأخذ راحته إذن، بل سروره وانشراح صدره أيضاً بالتعابير الضاحكة للفتاة والتعليقات الساذجة للأم على أقوال ابنتها، وحول مائدة متعددة ألوان المآكل... مآكل تذكره بحواضر بيت كل أم شامية عتيقة، مثل أمه هو أنور، عندما تقدم طعامها إلى ضيوفها الطارئين والمستعجلين.

وعندما عادت أم أحمد إلى مطبخها، منشغلة بلملمة بقايا المائدة وبإعداد قهوة «مع السلامة»، خلا الجو لأسمهان لترجع إلى حديثها قبل أن توضع المائدة. قالت لأنور:

ـ نعم سيدي... أين كنا؟ تذكرت. كنا عند الخطاب الحماسي الذي قلت فيه إن خزانة الدولة جيوب رعاياها. هذا صحيح إذا احتوت جيوب الرعايا شيئاً تأخذه الدولة لتملأ به خزينتها. عنك أنت، لا أعرف شيئاً كثيراً في هذا الموضوع. أما أنا وأمي، من بين رعايا دولتنا الكريمة، فجيوبنا دوماً فارغة، باستثناء الأيام الخمسة الأولى من الشهر، بعد قبض الراتب من محاسب دائرتنا.

ضحك أنور قبل أن يقول: هل رأيتني تحمستُ في كلامي؟ أعتذر عن إزعاجي لك به. أردت أن أقول إن أمر السياد البسطاء يهمني مثلما يهمني أمر نقلي. بل إن أمر النقل على ما أقدّر مرتبط كل الارتباط بمشكلة السياد هؤلاء مع السيد غزلان ومشكلة غزلان مع الدولة.

قالت الفتاة: لم تخطىء في تقديرك على ما أعتقد. ما سمعته من كلام ضيف مديرنا العام، أعني الوجيه الكبير علي بك، يوحي بهذا. سمعته يثني عليك أمام الأستاذ فياض، وفي قلب الثناء يدس بعض الانتقاد لتصرفاتك.

قال أنور: هذا ما أريد معرفته. بماذا سمعته يتكلم عني؟

سكتت قليلاً، كأنها تعود إلى ذاكرتها، قبل أن تقول:

ـ تحدث عن الشباب المثاليين المتحمسين الذين بحماسهم غير المتزن يعرقلون التطور والتوسع الاقتصادي. فهم يقفون أمام تنفيذ المشاريع التي يسعى لتحقيقها رجال الأعمال المنتجون، بحجة تطبيق التخطيط الاشتراكي والتمسك بحقوق الطبقات الفقيرة. ضرب مثالاً على ذلك تحاملك على أمير غزلان الذي ضحّى بالكثير في سبيل إنشاء مصنع يستخرج فيه الزيوت النباتية من الفستق السوداني وبذور دوار الشمس، وهي أصناف نباتية سيزرعها في أراض كانت بوراً وستتحول بجهوده والأموال التي ينفقها إلى مزارع نموذجية. هكذا قال علي بك.

سألها أنور: كان هذا الكلام في حضور أمير غزلان طبعاً. ما الذي قاله هذا الرجل عني للمدير العام؟

قالت: لم يقل شيئاً أمامي. ما سمعته يتكلم، وما أظنه يعرف الكلام. شكله يوحي بأنه لا يحسن غير الشخير. على كل حال ما كان ممكناً لي أن أسمع كل ما كان يدور من حديث. كنت أدخل إلى غرفة المدير العام وأخرج منها حسب ما يستدعيني المعلم أو حين أحمل إليه ورقة لا تحتمل التأخير.

سألها أنور: وكيف كانت ردود مديرنا العام على ما كان يقوله علي بك؟ ألم يشر بشيء إلى تجاوزات أمير غزلان؟

قالت: وهذا أيضاً ما لا أستطيع أن أفيدك به بشيء محقق. لم أره ناقش صاحبه فيما دافع به عن أمير غزلان. كان يقابل كلامه

بابتسام ويهز رأسه كالمقتنع بما يسمع. الأستاذ فياض بطبعه لا يحب الأخذ والرد ولا الدخول في جدل طويل.

سألها مرة أخرى: وعن النقل، نقلي أنا، بماذا تحدّث علي بك؟

أجابت: هذا سمعته جيداً. بل إني تلكأت في إحدى المرات في الخروج من الغرفة لأحسن الاستماع إليه. ذكر زائرنا أن شاكر بك، يعني والدك، الذي تربطه به علاقة طيبة، رجل له في نفوس الكثيرين منزلة عالية. وقد زاره مؤخراً فوجده مستاء، بل حزيناً، لبعدك عنه، أنت ابنه الوحيد، منفياً إلى هذه المنطقة النائية. لهذا فقد تطوع هو، علي بك، وتحدث مع سيادة الوزير في الموضوع وأخذ منه وعداً بنقلك مهندساً إلى إحدى المزارع التجريبية في غوطة دمشق. إنه الخبر الذي توقعت أنا أن يكون ساراً لك ومحزناً بعض الشيء لأصدقائك. ها تراني تجاوزت حدي واعتبرت نفسي واحدة من الأصدقاء... ما رأيك بهذا الادعاء مني؟

تحولت ابتسامة أنور إلى ضحكة، لم يلبث أن قطعها ليقول بلهجة جادة:

ـ هذا يشرفني منك يا أسمهان. ولكن ادعاء علي بك بأن والدي مستاء أو حزين لإقامتي وعملي هنا كذب، وتطوعه للسعي في نقلي من هنا وقاحة. إنه بهذا يريد الحيلولة بيني وبين تقديم التقرير الذي يدين صاحبه ويكشف تجاوزاته، بل جناياته. وفوق هذا يريد أن يحمّلنا، أنا وأبي، منّة بعمله السيىء هذا. التقرير سأكتبه وسأقدمه. وأظنه سيكسر ظهر أمير غزلان والذين يحمون أمير غزلان.

قالت أسمهان، مصطنعة لهجة المهدىء: لا عليك. هذا الانفعال لا يناسبك. لو كنت مكان سميرة لتقدمت بالشكر الجزيل إلى علي

بك، وحتى لصاحبه الغليظ أمير غزلان، لإعادتهما خطيبها إليها من إقامته التعيسة هنا. عقبى لي أنا خادمتك المطيعة! ثم، هل أنت مكلف بتقويم اعوجاج الدنيا وبإنصاف المظلومين فيها؟ فخار يكسر بعضه. اصبر عليّ لآتيك بالقهوة ومعها كأس ماء بارد يهدّىء أعصابك.

الصحيح أن احتداد أعصاب أنور نشأ عمّا سمعه من زجّ اسم والده في هذه الحكاية، ولو عن طريق الادعاءات الكاذبة. ومع ذلك فإن الأسلوب المرح الذي تحدثت به مضيفته الشابة عن تدخلات علي بك خفف من انزعاجه وقسره على الابتسام والضحك. عادت إلى الردهة الصغيرة تحمل فناجين القهوة وتتبعها أمها التي شاركتهما في تناولها. قالت أسمهان متوجهة بالكلام إلى أمها:

ـ اسمعي يا أم أحمد. أنور بك يأبى إلا أن يحمل السلم بالعرض، وأن ينصب نفسه خصماً لأصحاب القدرة والنفوذ الذين لا يعجبونه. ما رأيك يا أمي؟ هل يمكن للعين أن تقاوم المخرز؟

قالت الأم: لا يابنتي. ما لنا ولأصحاب القدرة والنفوذ؟ لا أعرف عن ماذا كان حديثكما. ولكن أنور بك، ما شاء الله عليه، لا يحتاج إلى مَنْ يبصّره بالأحوال في هذه الأيام، وفي كل الأيام. إذا كان الحكام لا يعجبوننا فما لنا ولهم؟ الأولون قالوا: من أخذ أمي صار عمي...

ابتسم أنور ولم يكن بوارد الدخول في نقاش مع هذه المرأة الطيبة. كان الليل قد انتصف أو كاد، فرأى أن عليه أن يستأذن من مضيفتيه ويتمنى لهما أن تصبحا على خير. وعلى باب الشقة الصغيرة، في الفسحة الضيقة التي تفصل الباب عن درج البناء،

استوقفته أسمهان وقالت له بلهجة بعيدة عن مرحها الذي صبغ كلامها طول الأمسية:

ـ ليس مزاحاً ما أريد أن أقوله لك. فهمت أنك تعتمد على الأستاذ فياض في حملتك أنت والأستاذ صبحي على هذا الرجل. لا تشد يدك كثيراً في اعتمادك على مديرنا العام. اسمع مني، فأنا سكرتيرته، أعني أمينة سره والعارفة بنقاط الضعف والقوة في تفكيره وفي سلوكه. تصبح على خير. قبّل لي خدّي سميرة عندما ينقلك علي بك إليها!

ـ ٨ ـ

تحرك كتف الأستاذ صبحي وعنقه بعرته المعهودة قبل أن يتكلم. قال:

ـ ما أخبرتك به الفتاة الحلوة مهم، ولكنه لا يخيفنا. كلامها صحيح في قولها إن الأستاذ فياض يفضل لنفسه البعد عن المشاكل. نحن من جهتنا سنضع المشكلة أمام عيني المدير العام بصورة لا يجد معها مجالاً للهرب. ما يجب أن نتأكد منه هو قدرة علي بك على وضع العصي في دواليبنا. أهو يلف مثل لاعبي البوكر، أم أنه حقاً يستطيع أن يؤثر على الوزير فيدبر أمر نقلك ويحمي أمير غزلان في الوقت نفسه؟ هات لأرى ما كتبت في تقريرك.

مدّ أنور يده بالأوراق التي كان يحملها إلى الأستاذ صبحي، وقال:

ـ بقي للمسودة شيء قليل. سهرتي تأخرت البارحة فلم أكمل كتابتها. وكان لا بد من أن أرى أسمهان وأطلع على ما عندها من معلومات. سأقرأ لك ما أنهيته منها.

وبسط أوراق المسودة تحت عيني الأستاذ صبحي، على منضدته، ثم راح يقرأ منها ما عدده فيها، من عناصر الطعن في قانونية عقد المبايعة بين الدولة وأمير غزلان، في مطلع التقرير. أما في القسم الثاني فقد أورد سلسلة المخالفات التي ارتكبها هذا الرجل، من انتحاله اسم دائرة رسمية ليبرر تصرفه في إغلاق طريق عام أمام المواطنين، ومن تجاوز على أراض تملكها الدولة وتغيير معالمها واستخدامها لمصلحته الشخصية. قال بعد أن أنهى القراءة:

- تراني وضعت في هذين القسمين، الأول والثاني، الأسباب الموجبة لتدخلنا في هذه القضية. لم أنته بعد من كتابة القسم الثالث الذي يتضمن ما على المديرية العامة أن تقوم به من إجراءات لفسخ العقد وللإحالة إلى القضاء للحكم في المخالفات أو التجاوزات المرتكبة.

قال الأستاذ صبحي: تسلم يداك. ما كتبته مقنع كل الإقناع. ولكنه سيكون تقريراً طويلاً يصدم طوله شهية القارىء فيجيل نظره بين سطوره معجلاً دون التمعن بمحتواه. عندي لك اقتراح.

سأله أنور: ما هو الاقتراح يا أبا منير؟

أجاب قائلاً: تضع خلاصة التقرير في صفحة واحدة، في مقدمته لا في نهايته كما تجري العادة. في الخلاصة هذه تبرز المخالفات ووجوب قمعها بصرامة، بلغتك الأدبية الرفيعة. وفي النص الذي يلي الخلاصة تفصّل كما تشاء، شارحاً ما عرضته في هذا الذي قرأته لي الآن. ولا تنس أن تضع صوراً للمخططات التي زودتنا بها إدارة المصالح العقارية، وأسماء الصحف الثانوية التي نشرت فيها إعلانات مناقصات البيع.

طوى أنور أوراق مسودته وقال:

ـ سأفعل ما تشير به عليّ. أحتاج إلى يومين آخرين كي أضع التقرير في صيغته النهائية. لا بد من أن أقرأه عليك مرة ثانية. وأحتاج كذلك إلى يوم أو يومين آخرين لتبييضه. أتركك الآن لأعود إلى الرحبة. إنهم يستدعونني إليهم بإلحاح، لا أدري لماذا.

استغرق إعداد التقرير إعداداً كاملاً أربعة أيام أخرى من المهندس أنور. في نحو العاشرة من صبيحة اليوم الخامس طلب هو، من مكتبه في مديرية النقل، مكتب المدير العام بالهاتف فأجابه منه صوت أسمهان. حياها فردت عليه مرحبة وقالت:

ـ وأخيراً جاءنا صوتك الذي طال اشتياقنا إلى سماعه. لست أنا وحدي، فخالتك أم أحمد تسألني عنك كل يوم. قلت لها إنك ربما كنت مسافراً.

ردّ عليها بقوله: لم أبتعد عن المركز في الأيام الماضية. كنت مشغولاً بالمهمة التي كلفني بها المدير العام، مهمة إعداد تقرير هو في انتظاره. التقرير جاهز، فهل لديه الوقت لاستقبالي اليوم؟ إذا تعذر ذلك في هذا اليوم، فغداً إذا أمكن. لا أريده أن يأخذ عليّ تأخري أكثر من هذا.

قالت: أجيبك بعد قليل. قبل أن أتركك أريد أن أخبرك لماذا تسأل الوالدة عنك. هي لم تقل لي ذلك، ولكنه تقديري. أظنها تريد أن تعرف هل أعجبك ما ذقته في تلك الليلة من حواضر البيت صنع يديها؟ لهذا أوهمتها أنك مسافر، لئلا تتصور بأن سكوتك مع وجودك قريباً منا يعني عدم رضاك عن حواضر بيتها...

ابتسم وهو ممسك بسماعة الهاتف وقال:

ـ قبّلي لي يدها واشكريها كل الشكر. الواقع أنا مقصّر. كان

يجب أن أتلفن إليك في اليوم التالي لأعبر لك عن امتناني، ولها عن سروري بمعرفتها وبما صنعته يداها.

قالت أسمهان: يصل يا سيدي. أنت في مكتبك، أليس كذلك؟ انتظرني خمس دقائق على الأكثر لأعطيك الجواب.

قبل أن تنقضي الدقائق الخمس جاءه جوابها. لهجتها في جملتها الأولى كانت لهجة جد قالت له فيها:

ـ نعم يا مهندس أنور، سيادة المدير العام يستقبلك في نهاية الدوام، في تمام الساعة الواحدة والنصف.

ثم ما لبثت أن عادت إلى مرح تعابيرها وهي تضيف:

ـ في الموعد أعلاه تجدني واقفة وقفة تهيؤ عسكرية في استقبالك. موعدك ليس مع المدير العام وحده، بل ستتبعه مقابلة مع مديرة مكتبه لتتقدم إليها بتقريرك المكتوب عن مطبخ خالتك أم أحمد وأسلوب ضيافتها. مفهوم يا عزيزي؟ إلى اللقاء إذن.

في الواحدة والنصف تماماً كانت غرفة مديرة مكتب المدير العام فارغة ممَّن يكثر ترددهم عليه في الصباح. وحدها كانت أسمهان تنتظر أنور أمام الباب المشترك بين غرفتها ومكتب رئيسها، في عينيها نظرتها الضاحكة وعلى شفتيها ابتسامتها الماكرة. كل بوده أن تترك له المجال ليحييها، وربما ليثني على أناقتها في الفستان الأسود الذي كانت ترتديه والذي كان يجعل سمرة بشرتها الخفيفة أقرب إلى البياض. ولكنها ما أن دخل حتى فتحت الباب المشترك وهي تقول بصوت خفيض:

ـ تفضل يا حضرة المهندس. سيادة المدير أنهى مقابلاته اليوم، فالوقت كله لك.

كان الأستاذ فياض متخذاً مجلسه على مقعد وثير في جانب من غرفة المكتب، ماداً ساقيه أمامه كأنه يستريح بعد طول جلوس وراء منضدته. تناهض مجيباً على التحية الموجهة إليه، مشيراً في الوقت نفسه إلى المقعد المقابل ليجلس عليه أنور. وحين وضع هذا المغلّف الذي كان يحمله على ركبتيه بعد جلوسه، مدّ المدير العام يده إليه ليتسلمه منه، وقال وهو يبتسم:

ـ هذا هو تقريرك بلا شك. هاته لأرى. كبر الغلاف يوحي بأن إعداده أتعبك يا مهندس أنور.

قال أنور: كان لا بد أن يكون كبيراً يا سيدي. الأمور المبحوثة فيه كثيرة. حاولت أن لا أترك فيه ثغرة تحيج إلى إعادة بحث أو إجراء تحقيق جديد. على أن مقدمته مختصرة، وفيها خلاصة وافية للمحتوى.

أخرج الأستاذ فياض الأوراق من الظرف وراح يتفحّصها مقلباً إياها بين أصابعه، وهو يستمع إلى أنور الذي قام من مقعده ووقف إلى جانبه. قال بعد ثوان من السكوت:

ـ يبدو أنك لم تهمل شيئاً. هل هذا المخطط ضروري لفهم التقرير؟ وصور الفوتوكوبي هذه؟

انحنى أنور وأشار بأصبعه إلى نسخة المخطط التي كان الأستاذ فياض يمسك بها، وقال:

ـ هذا المخطط أتينا به من الأشغال العامة، من مديرية المواصلات. إنه يمثل أبعاد حرم الطريق الموازي للدرب المختلف عليه، وهو المسافة بين الطريق والدرب. عرضه وسطياً، كما يبينه المخطط، سبعة وعشرون متراً، وطوله مائة وثلاثة وستون متراً. إذا سمحت يا

سيدي فإني أقول لك إن غاية السيد أمير غزلان من إغلاق الدرب على عشيرة السياد هو إماتته... إماتة الدرب أعني.

قال المدير العام متسائلاً: إماتة الدرب؟ ماذا تقصد بهذا؟

أجاب أنور: أعني إلغاءه كممر عام. بهذا يصبح أرضاً مبسوطة وغير مستعملة تلحق بالأرض التي هي حرم الطريق العام. ولما كانت أرض السيِّد أمير غزلان التي بنى فيها معمله للزيوت النباتية تحاذي الدرب الذي لن يعود درباً، فإن هذا الإنسان سيمتد بأرضه حتى يبلغ الطريق العام. وبهذا يصبح الدرب وحرم الطريق ملكاً له. وبالفعل فقد اعتبرهما منذ الآن ملكاً له، إذ غرس في حرم الطريق منذ الشتاء الماضي أغراساً نمت وترعرعت في الصيف الفائت وفي هذا الخريف. هذه يا سيدي إحدى النقاط التي يكشف التقرير بها تحايل هذا الرجل وما يبيته من نوايا الاعتداء على حقوق المواطنين ومن تجاوز على ملكية الدولة.

هز الأستاذ فياض رأسه، ونهض من مقعده وهو يقول:

ـ هذا حديث يطول بلا شك، وقراءة التقرير بتمعن تحتاج إلى وقت. ضع هذه الأوراق في مغلفها وسلمها إلى مديرة مكتبي، الآنسة أسمهان، لتقيدها في سجل الواردة، ثم قرّب كرسيّك لأقول لك شيئاً.

لاحظ أنور أن ملامح وجه رئيسه انبسطت وهو ينطق بجملته الأخيرة. ارتسمت ابتسامة عريضة على شفتيه وهو يستدير ليجلس وراء منضدته مشيراً إلى الكرسي الذي طلب من أنور تقريبه. رآه هذا يرفع الوجه العلوي لمصنف جلدي عريض كان فوق المنضدة ويتناول من تحته مغلفاً صغيراً. كان في المغلف ورقة رقيقة أخرجها

منه المدير العام وأجال نظره على كتابتها ثم رفع رأسه عنها وتوجه إلى أنور بالكلام. قال له:

ـ لو لم تطلب مقابلتي في هذا الصباح لأرسلت إليك لأستدعيك. أردت أن أراك بعد الشغل اليومي لأزف إليك هذه البشرى.

عاد المدير العام إلى النظر في الورقة الرقيقة أمامه على المنضدة، بينما ظلّ أنور ساكتاً، فارغ الخاطر من كل تفكير، في انتظار أن يبين له رئيسه ما يعنيه بكلمة البشرى. تابع هذا كلامه قائلاً:

ـ جاءتني صباح اليوم هذه البرقية المستعجلة. ويبدو أن سيادة الوزير اعتبر محتواها من أمور الدولة الخطيرة، فهي تحمل هاتين الكلمتين: سرّي ومستعجل!

قال أنور معلقاً، دون أن يمعن تفكيراً بما ينطق به:

ـ سرّي ومستعجل، وبشرى في نفس الوقت؟

قال الأستاذ فياض: الحق معك. وأنا كذلك استغربت ما تستغربه. الأمر يتعلق بك أنت يا مهندس أنور، وهذا يعني أنك شخص له أهميته لدى المراجع العليا. فالسيد الوزير أصدر أمره بنقلك إلى دمشق، وبالتحاقك بعملك الجديد، في المحطة التجريبية رقم ٤، على وجه السرعة.

تورد وجه أنور وتسارعت دقات قلبه حين وعى ما تعنيه كلمات رئيسه: إذن فقد تحقق ما كان يظنه تهويلات أو مجرد أقاويل. وكأن الأستاذ فياض لاحظ ما تملكه من انفعال إذ بادره بالقول:

ـ إذا كنت فوجئت بهذا، فأنا فوجئت به أيضاً، على الرغم من أن علي بك، صديق والدك، كان أشار لي بأنه أمر متوقع. أظنني أخبرتك بشيء من هذا منذ عدة أيام. على أني ما تصورت أن يتم

نقلك بهذه السرعة، ولا أن يعطيه المسؤولون هذا الاهتمام. معك الحق إذا تأثرت بالمفاجأة السارة.

مفاجأة سارة؟! الأستاذ فياض لا يدري ماذا كان وراء انفعال أنور بالخبر الذي أفضى به إليه. عادت إلى ذهن الفتى كلمات الأستاذ صبحي المتسائلة عن إمكانيات علي بك في وضع العصي في دواليب عجلة القضية التي أخذا، الأستاذ صبحي وهو أنور، على نفسيهما أن يسيرا بها إلى النهاية. ها قد تبين أنها إمكانيات كبيرة... كبيرة إلى درجة جعلت الوزير يصدر أمره السرّي والمستعجل هذا بسرعة، كي يمنع المهندس الشاب، المثابر والعنيد، من فضح إنسان جشع يستغل ضعف المستضعفين فيخادعهم عن أرضهم ويسلبهم حقوقهم!

استبطأ المدير العام ردّ أنور على ما سمعه منه، فقال بلهجة الممازح:

ـ منذ الآن، وبموجب هذا الأمر العالي، أنت لست مرؤوساً لي في مركز الاستصلاح. غير أن الروتين يقتضي أن تقوم بهمة التسليم والاستلام لخلفك قبل أن تغادرنا. المفضل أن تنهي المهمة بأسرع ما يمكن لئلا يتبعوا هذه البرقية الخطيرة بأخطر منها. ما رأيك؟

قال أنور: إنها حقاً مفاجأة يا سيدي. عليّ أن أسرّ بها، وإن كان يعزّ عليّ فراق أصدقائي وزملائي هنا. ثم إني كنت أحب لو أتيح لي وقت أنهي فيه المهمة التي أوكلتها سيادتك إليّ... أعني الوصول إلى نتيجة فيما يحتويه التقرير الذي كلفتني بإعداده.

قال الأستاذ فياض، وهو يتطلع إلى ساعة يده.

ـ لا تشغل بالك. قمت بالمهمة على خير وجه، ولن يضيع جهدك فيها سدى. سأقرأ تقريرك في أقرب وقت، وربما أحلته إلى لجنة

خاصة تدرسه وتعطي رأيها بما يجب أن تقوم به مديريتنا لتنفذ التوصيات التي اقترحتها. ثم إني أعرف أن مدير العلاقات العامة، الأستاذ صبحي زيدان، كان يشاركك في تهيئته. ما رأيك في أن أعهد إليه بملاحقة الموضوع بعد مغادرتك لنا؟

قال أنور، متشبثاً بأمل ضعيف بأن تسير الأمور في مسارها الصحيح إذا أخذ صاحبه مكانه:

ـ فكرة جيدة يا سيدي. أبو منير، الأستاذ صبحي، على إلمام بالقضية من كافة نواحيها.

نهض الأستاذ فياض من وراء منضدته واقترب من أنور الذي وقف بدوره، فأخذ بمرفقه وسار به نحو الباب وهو يقول:

ـ حسناً إذن. توكلنا على الله. تستطيع أن تبدأ عملية التسليم منذ صباح الغد. أودعك منذ الآن، فاللجنة العليا في العاصمة تريدني على أن ألتحق بها، وسأسافر في آخر النهار. قد ألتقي بك في دوائر الوزارة إذا استبقاني العمل هناك وقتاً كافياً. مع السلامة يا أستاذ أنور. بلغ والدك الكريم تحيتي وكل احترامي.

قال هذا وخرج من الباب الرئيسي لمكتبه، وهو الباب المفتوح على الممر، يسير وراءه أنور. كان ينتظره قرب الباب سائق سيارته والآذن فهرولا أمامه في رواق الممر. عندما حاذى مدخل غرفة سكرتيرته التفت إلى أنور وقال:

ـ لا تنسَ تسليم التقرير إلى المكتب ليسجل في الواردة. مع السلامة مرة أخرى.

كانت تلك إشارة إلى أنور كي ينفصل عنه. وهي إشارة جاءت في وقتها. فقد كاد، لانشغال تفكيره ببرقية النقل التي جاءت على غير

انتظار، أن يتجه رأساً إلى مكتب الأستاذ صبحي، أو يلحقه إلى منزله إذا كان ترك المكتب، لينهي إليه الخبر. انتظر حتى رأى المدير العام يبلغ نهاية الرواق وينزل الدرج فاستدار إلى الباب الذي وقف إزاءه ودخله. كانت أسمهان وراء منضدتها تلملم الأوراق المبعثرة فوقها. رفعت رأسها إليه وهتفت:

ـ وأخيراً! شغلت المدير بأحاديثك الطويلة يا حضرة المهندس، وأخّرتني. طبخة أم أحمد شاطت وهي تقلبها على النار في انتظاري. ما هي الأخبار؟ طمئني.

قال: سيئة يا أسمهان؟

هتفت به مرة أخرى قائلة: ماذا؟ هذا كلام لا يعجبني. ما هو السيىء عندك؟

ألقى أنور بنفسه على كرسي بجانب منضدتها وقال:

ـ جاءت برقية بالنقل الذي تنبأت أنت به. برقية سرية ومستعجلة.

أطلقت الفتاة زفرة من صدرها وقالت:

ـ كدت تقطع قلبي. أهذا هو خبرك السيىء؟ بالعكس، إنه يستحق زلغوطة. خذني معك، أرجوك!

قال: لا تستعجلي هكذا. ربما كان عليّ أن أشكرهم على النقل. ولكن تعجيلهم به ليس لله ولا حباً بسواد عيني. إنه نسف لجهودنا أنا وأبو منير طيلة الأسابيع الفائتة... هو مؤامرة فاضحة ووقحة ضد مساعينا لإحقاق الحق وإنصاف المظلومين.

قالت: طوّل بالك يا عمر بن الخطاب... يا حامل السلم بالعرض! قمت بواجبك، فإذا قصّر غيرك فلا ذنب لك. ثم لماذا تستبق الحوادث متشائماً بهذه الصورة؟ اسمع مني، فعندي اقتراح عليك.

قال، وقد أعدته بمرحها وانبساط أساريرها:

ـ ما هو اقتراحك؟ قبل أن أنسى أريد أن أقول لك إنك تلبسين فستاناً جميلاً، على الرغم من أن لونه، لو كان على غيرك، يثير الاكتئاب. أهو من خياطتك؟

فصفقت بيديها وقالت: الحمد لله! لأول مرة أسمع منك كلمة تشرح الصدر وترضي البنت عن نفسها. شكراً على الإطراء... أما عن اقتراحي فهو التالي: ما دمت قد أخرتني إلى هذا الوقت فلترافقني إلى البيت لتشاركني أنا والوالدة غداءنا. ستكون شفيعي عندها على التأخر.

قال: أرجوك... إعفيني من هذا. لا نفس لي في الطعام. لا بد من زيارة الوالدة لتوديعها قبل سفري. معلمك يريدني أن أنهي التسليم والاستلام بأسرع وقت، وأن أريحكم من رؤية وجهي. تفضلي وسجلي هذه الأوراق في دفتر الواردة. هكذا أمر.

قالت، وهي تضم المغلف إلى كومة الأوراق أمامها: لن ألح عليك. سيسافر معلمي مساء اليوم أو صباح الغد، ولكني باقية في مكتبي لأتلقى عنه الهواتف والبرقيات والمكاتبات الأخرى. أراك غداً بلا شك. باي باي.

انحدر على الدرج وبقية من الانبساط لا تزال في جوانب نفسه. ولكنه ما أن ركب سيارته ليقصد مديرية النقل، مؤجلاً رؤية أبي منير إلى المساء، حتى عاوده الاكتئاب. بين المجمع الرئيسي ومديرية النقل راحت تتقافز إلى ذهنه صور متقطعة عن حياته في الشهور التي قاربت الستة في هذا الجانب من أرض الوطن. عن الوقائع التي عاشها والناس الذين عاشرهم في مركز الاستصلاح، دوائره ومزارعه، وفي شوارع حلب وأسواقها ومنازلها. غريب كيف أن

حلب، وهي المدينة الكبيرة والغنية، لم تؤثر أجواؤها في نفسه وفكره بما أثر فيه جو هذه البقعة النائية بناسها البسطاء وموظفيها المتذمرين وفقرها وجفائها! صحيح أن زيارته لأسواق «المدينة» في حلب وحفلات هواتها في المنازل الأثرية وتصرفات السيدة شاهناز المثيرة وأحاديث الأستاذ شكيب مجد الدين، صحيح أن هذه الأمور شغلته الساعات الكثيرة وأثرت فيه إلى درجة ظن معها أنها ستلازمه طويلاً. إلا أنه ما كان يعود إلى مكتبه في مديرية النقل، وإلى مجلسه إلى جوار أبي منير، حتى تذوب ذكرياته عن تلك الأمور وتسيطر عليه أحداث مركز الاستصلاح وقضايا ناسه، منسية إياه كل ما عداها. بل إنه ليجد أن ارتباطه بقضايا أولئك الناس ينغص عليه سروره بالعودة إلى أهله وإلى القرب من سميرة... خطيبته التي يحبها كل الحب ويملأ قلبه إليها كل الشوق.

سميرة!... أتراها «تأخذ على خاطرها» إذا اعترف لها، حين يجتمعان، بهذه الخواطر التي تعبر بذهنه الآن؟ أتراه يجرؤ على أن يصارحها بها غداً أو بعد يومين وثلاثة، حين يصبح في حيز التنفيذ هذا الأمر السري والمستعجل؟

في هذه الأثناء كان أنور قد بلغ مدخل مرآب الآليات فأوقف سيارته وترجل منها، واتجه نحو مكتبه الكائن في نهاية مجمع مديرية النقل، سيراً على قدميه.

الفصل الرابع

رسائل ختامية

- ١ -

من المحامي الأستاذ شكيب مجد الدين إلى المهندس الزراعي الأستاذ أنور عرفان

عزيزي المهندس أنور،

تحية وسلاماً.

تستغرب ولا شك هذه الرسالة، وتعجب من اهتدائي إلى عنوانك. إنه أخونا أبو منير. بعد طول انقطاع عن حلب جاء فاجتمعنا وحدثني عن تركك عملك إلى جانبه وعودتك إلى مدينتك، عاصمة بلادنا العامرة. كان عليك خلال مرورك الذي لا بد منه من بلدتنا أن تتوقف في مكتبي على طريقك لأتلقى منك تحية ولتعلمني بأخبار نقلك. ولكنك لم تفعل. أخبرني صبحي بأنك كنت مطلوباً بسرعة للالتحاق بمقر عملك الجديد، ولذلك فأنت لم تتوقف في حلب. لا بأس. أنا أكتب إليك هذه الكلمات لأقول إني على لقاءاتي القليلة والقصيرة بك حملت لك وداً وإعجاباً دفعاني إلى كتابة هذه الرسالة إليك.

فهمت من أخينا صبحي أن نقلك إلى منصبك الجديد الذي يحسدك عليه كثيرون لم يرق لك. والسبب تلك القضية التي حدثتني أنت عنها وغرقت أنت وهو فيها إلى آذانكما. أردتما أن تشيلا الزير من البير! لذلك، وللخلاص من همتكما العالية ومن فضولكما الزائد ومن جرأتكما على الذين يستطيعون الأمر والتحكم رقّوك أنت إلى وظيفتك الحالية الرفيعة المقام. يجب أن تشكر ربك وتشكر الناس الذين يحبونك فحالوا دون أن يكون الخلاص منك بغير هذه الطريقة. أما أخي صبحي فلا يزال يراوح في مكانه. فهمت منه أنه تلقّى نوعاً من الانذار بأن يقف عند حدّه وإلاّ...! ليس مضموناً أن تكون «إلاّ» صبحي مثل «إلاّك» أنت. هناك طرق أخرى لإيقاف عالي الهمّة زائدي الفضول وذوي الجرأة الكبيرة، عند حدهم. أعرف عن صبحي أنه عاقل. وأظنه لولا أنه وضع فيك ثقة لا يضعها عادة عند كل من يعرفهم ما سار ولا سيّرك في الطريق الذي مشيتما فيه إلى أن أدركتما أنه طريق مسدود.

أنت شاب ملتزم بإعطاء الحقوق لأصحابها، تتألم من التجاوز على القانون ومن التحامل على ضعاف الناس واستغلالهم وظلمهم. على عيني وراسي. أنا مثلك، كنت ولا أزال. ولكننا في زمن وفي بيئة لا يسمحان لنا بالتطاول على القادرين على التجاوز والتحامل وعلى الاستغلال والظلم. ما دام التطاول ليس في قدرتنا فإننا، لنحقق ما نريده، نضطر إلى المداورة التي تلجئنا أحياناً إلى الانحناء وتصل بنا في أحيان أخرى إلى الانبطاح. لعلك تذكر ذلك المتهم برشوة لم تثبت واضطررت من أجل إنقاذه من المحنة التي ألقت به في غيابة السجن إلى أن أدفع عنه رشوة محققة! تذكر حكايته ولا

شك. كان ذلك في أول تعارفنا. أتظن أني لا أعرف أني سلكت طريقاً خطأً متنافياً مع ما تعلمته في دراستي لعلم الحقوق، ومع ما غرسته في وجداني نشأتي في بيئة كانت مؤمنة بالحق والعدل؟ الواقع أني أعرف. ولكن كان لا بد من سلوك هذه الطريق لإنقاذ ذلك الرجل. سلكتها وأنقذته. ربما كان ممكناً لك ولصبحي أن تنجحا في ما كنتما تحاولانه من إنصاف المجني عليه ومعاقبة الجاني لو أنكما داورتما كما داورت أنا بدلاً من سلوككما طريق المجابهة والتطاول. على أن نجاحكما يحتاج إلى إمكانيات لا تملكانها لا أنت ولا صبحي. فنُقِلْتَ أنت وظل صبحي يتمرغ في التراب في مكانه.

لم تحاول أن تراني في مرورك بحلب، فهل حاولت الاتصال بالحاج نعمان وأفراد أسرته؟ إنهم جميعاً متعلقون بك. يتحدثون عنك ويكررون التعبير عن شوقهم إلى رؤيتك وأولهم في ذلك السيدة الفاضلة زوجة الحاج. قد تسألني من أين عرفت هذا. سمعته بأذني منهم. صحيح أن علاقتي بهم ليست على ما يرام، لا سيما بالسيدة شاهناز وأقل بقليل بالحاج نعمان نفسه، ولكن فتى الدار صاحبك ربيع يخالف أبويه في رأيه بي. ومثله أخته الذكية دلال. لا أزال وكيل ربيع في دعاوى قائمة بينه وبين خصومه في اللاذقية وطرطوس. وفي حفلة العرس التي أقامتها الأسرة لزفاف دلال كنت، ويا للعجب، مدعواً... أنا وزوجتي. أحسب أن دعوتي كانت من قبل موكلي ربيع. أو لعل الأصح أن العروس نفسها كانت الداعية فهي أكثر عناداً وقدرة على تحدّي والديها من أخيها. وكانت مناسبة تحدثنا فيها عنك. السيدة شاهناز كانت نجمة الحفل

بجمال طلعتها وأناقة زيها. هي التي ذكرتك كثيراً وذكرت أنها تنتظر زيارتك لها. ومما قالته إنها لولا علمها بأن لك خطيبة تفضح القمر بجمالها لزوجتك أحلى بنت في حلب الشهباء. كان ينقصها أن تقول: لطلَّقت هي الحاج نعمان وتزوجتك!

أعذرني على هذه العبارة الأخيرة. كتبتها ولم يعد ممكناً محوها. عرّجت في الحديث على الحاج نعمان لأعرّفك بما قد لا يخطر ببالك من مبلغ مكانتك عند أفراد أسرته، ولأقول لك أن الآنسة دلال تزوجت. عقبى للعزاب.

أتمنى أن ألتقي بك في أسفاري الكثيرة إلى العاصمة. عملك كما علمت في خارجها، ولكنك لا تقضي ليلك ونهارك فيه على ما أحسب. هل أطمع منك بردّ على هذه السطور؟ وحتى إذا لم يأتني الرد ثق أيها العزيز بحبي وتقديري، ولك كل تمنياتي بالسعادة الدائمة، لك ولمن تحب.

شكيب

- ٢ -

من الأستاذ صبحي زيدان إلى المهندس أنور

حبيبي أنور

بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته والسؤال عن خاطرك الشريف، أقول إني مشتاق جداً لرؤيتك والله. ذهبت إلى حلب وقابلت الأخ شكيب وتحدثنا طويلاً عنك. كنت أتمنى أن أكمل سفري إلى دمشق لأراك ولكن إجازتي القصيرة لم تسمح لي بهذا. فعسى أن أراك في فرصة أخرى. أكتب إليك هذا المكتوب لأبلغك أشواقي ولأعطيك آخر أخبارنا. أنت خلصت بريشك وتركت الهم

على عمك صبحي. ولا بد من أن أعلمك بما جرى ويجري ولو كان ما أعلمك به لا يسر الخاطر.

حكاية أرض السياد انتهت بالكتاب التالي الموجه من سيادة مديرنا العام حفظه الله إلى المستدعين أصحاب العلاقة. أنسخ لك الكتاب فيما يلي لتأخذ به علماً.

إلى مالكي العقارات التالية أسماؤهم:

رقم العقار	اسم المالك	المنطقة العقارية
٩١	رجب العمر ورفاقه	قرية السيّاد
٩٣	صالح الاسماعيل الخلف	قرية السيّاد
٩٤	محمد الاسماعيل الحسن ورفاقه	قرية السيّاد
٩٥	أحمد الاسماعيل الحسن	قرية السيّاد
٩٧	خليل بن محمد الخليل	قرية السيّاد

نبيّن لكم أن الطريق الواقع قرب المصرف الفرعي رقم ١٨ والمتصل بالعبّارة الواقعة على المصرف الرئيسي رقم ٧ والمار بين بيوت السيدين محمد وأحمد الحسن الجاسم هو الطريق المخصص لخدمة عقاراتكم أصولاً بموجب المخططات المعتمدة لاستصلاح الأراضي ولجنة توزيع الأراضي. أما الطريق الواقع غرب المصرف رقم ٧ والذي يحاذي الطريق العام ويفصله عنه ويحاذي الأرض الملحقة بمعمل الزيوت الغذائية ملك السيد أمير غزلان فهو طريق مخصص لآليات المؤسسة أثناء عمليات الصيانة والتعزيل للمصرف المذكور ويحظر على المارة سلوكه. لذا نأمل من الجميع التقيد بالطريق المحدد وأية مخالفة تستوجب المسؤولية.

في ٢٩/١٠/...

المدير العام

المهندس فياض عبد المجيد الأسمر

هل فهمت يا حبيبنا؟ السيّاد يا عيني وجد لهم سيادة المدير العام درباً آخر يوصلهم إلى الطريق العام ومنعوا منعاً باتاً تحت طائلة المسؤولية من استخدام دربهم الخاص الذي كان سدّه عليهم أمير غزلان ففتحناه نحن لهم. أما أمير غزلان نفسه فلا ذكر له في أمر المنع كما ترى. استدعاني الأستاذ فياض لأقابله وحين جئت في الموعد أعلمتني الآنسة أسمهان بأنه خرج لتوه لأمر عاجل وأعطتني صورة هذا الكتاب وقالت لي عن لسانه إني لا بد من أن أسرّ لأن مشكلة السياد الذين يراجعونني كل يوم من أجلها حلّت بما يرضيهم. ولما سألتها عن القضايا الأخرى التي أثارها تقريرك غمزت بعينها وقربت فمها من أذني وهمست لي أن الأوامر صدرت بأن يحال التقرير كله إلى الحفظ...

إذن فقد فهمنا. وأزيدك. بعد يومين من صدور هذا الكتاب ومن إحالة تقريرك الشاهاني إلى الحفظ استدعت الوزارة مديرنا العام إليها. لا يزال في العاصمة عندكم والشائعات عنه كثيرة. يقال أن منصباً كبيراً سيعهد إليه، ليس كمدير مرآب كما تؤهله له شهادته في الهندسة الميكانيكية، بل ربما مديراً لمؤسسة دولية تتعامل معها وزارتنا الجليلة. بعضهم يقول إنه سيصبح معاوناً لسيادة الوزير. علي بك إذن ليس إنساناً هيناً على ما يبدو.

كما سبق وقلت لك، أنت خلصت وتركت الهم عليّ. ومع ذلك فأنا غير مستاء ما دمت أنت عدت إلى أهلك وإلى خطيبتك وإلى مستقبل مزدهر ينتظرك. أما أنا وأمثالي فقد راحت علينا.

لا تحرمني من أخبارك. يحفظك الله لعمك الذي يحبك،

أبو منير

ملاحظة: نسيت أن أقول لك. إليك هذه الحكاية المضحكة. بعد

أن أطلعتني أسمهان على كتاب معلمها وبعد أن عمم الكتاب على كافة الجهات المعنية بيومين أو ثلاثة فوجئت بزيارة صاحبنا الغزلاني في مكتبي. توقفت سيارته أمام باب مجمعنا ووقفت وراءها سيارة بيكاب محملة علب تنك مدورة. رأيت السيارتين من النافذة. وبعد قليل رأيت أمير غزلان بجثته المكورة ووجهه المفلطح الأسمر في زرقة يقف بباب غرفتي. حياني دون أن يدخل وأشار إلى رجل كان يتبعه فدخل هذا ووضع على كرسي إلى جانبي علبتين من التي رأيتها في البيكاب. ما هذا؟ سألته. كشّر غزلان شفتيه الضخمتين عن أسنانه بابتسامة وقال: هدية مصنعنا، مصنع الزيوت النباتية... علبتان من الزيت النباتي عال العال، واحدة لك وواحدة لصديقك المهندس الأستاذ أنور! مفاجأة تشبه الصفعة. تماسكت وقلت له: أولاً ليس من عادتي قبول هدية إنسان لا صلة بيني وبينه. ثانياً الأستاذ أنور ترك عمله منذ أيام كثيرة ولست مخولاً بأن أستلم هذه الهدية له والتي لن يقبلها منك حتماً. ثالثاً مصنعك لم ينتج زيوته بعد، فالفستق السوداني لم ينبت إلى الآن ولم ترتفع كذلك سيقان زهرة دوار الشمس في مزرعتك. المصنع نفسه على ما يعرف الجميع ما دارت له آلة إلى اليوم... هل تضحك عليّ يا سيد أمير؟ ارتفع صوتي وأنا أقول له هذا. الرجل صفيق الوجه ووقح. جاء شامتاً بي. لم يؤثر به كلامي. قال: معاذ الله. هذه عينة من الزيوت التي سينتجها مصنعي بعد ستة شهور، استوردتها من معامل الشركة التي ركبت لي معملي. زيت، ولا السمن الحديدي... جربه يا أستاذ صبحي. استدار وذهب يتبعه الرجل الآخر الذي راح يوزع على الموظفين في المجمع علبة لكل واحد منهم. لم ينتظر ليتلقى قذائف انفجاري في وجهه. الموظفون

البسطاء من أمثالي في الغرف حولي تلقى كل منهم علبة زيت نباتي بقدّ الدنيا، ترى ماذا تلقّى مديرنا العام؟ علمها عند ربك...

عمّك

- ٣ -

من أسمهان إلى صديقتها العزيزة سميرة عبد المعين ومن فضلها إلى المهندس الزراعي الأستاذ أنور

يا مهندسنا العزيز

تحيات وشوق زائد. أنا واثقة من أن هذه الورقات جاءتك في غلافها الملصق فلم تفتح سميرة الغلاف لتتجسس عليّ. لا علم لي بعنوانك حتى أرسلها إليك مباشرة، لذلك وضعتها في رسالة سميرة وطمأنتها بأنها ليست رسالة عشق وغرام، بل تتعلق بشؤون الدولة العليا ويجب أن لا يعرف بها عن طريقي إنسان غيرك. قلت لها إنك حر إذا أردت أن تطلعها على هذه الشؤون ولكن على مسؤوليتك الشخصية. وهكذا تراني أكيد لك عند سميرة، فأحرجك أمامها، وربما سببت لكما خناقة لا تلبث أن تنتهي بصلح وتبويس الشوارب، أعني تقبيل الخدود والشفاه...

المسألة وما فيها أن خالتك أم أحمد تكثر السؤال عنك وتستفهم عن موعد دعوتك لنا، أنا وهي، إلى حفلة زفافكما الميمون. طال انتظارنا للمناسبة السعيدة. وحكاية ثانية لا أدري هل بلّغك بها الأستاذ صبحي أم لم يفعل. لا بد أنه فعلها. فقد كلفني سيادة المدير العام بأن أعطيه صورة عن قرار بإنصاف جماعتك عشيرة السياد وذلك بإيجاد طريق فرعي يصلون به إلى الطريق العام غير الدرب الذي قامت قيامتهم بسببه حين منعهم السيد أمير غزلان

من سلوكه. لم يكن الأستاذ صبحي مرتاحاً لقراءة الكتاب الذي تضمن القرار. قال إن جهودك وجهوده ضاعت سدى، وإن أمير غزلان سيلحق حرم الطريق بأرضه ليزرعها جوزاً ولوزاً وراحة حلقوم. قلت له: وماذا يهمك أنت والمهندس أنور من هذا؟ قال: أنور سينفجر من غيظه، أما أنا، يعني الأستاذ صبحي نفسه، فهذا الخدّ متعود على اللطم، وما بين حانا ومانا ضاعت لحانا وضاعت معها ملايين الليرات على الدولة ومئات الآلاف على السياد المساكين! والدليل على ذلك، على ما قال الأستاذ صبحي، صدور أمر المدير العام بإحالة تقريرك يا عزيزي أنور وملحقاته من مخططات ومواد قانونية وصور بالفوتوكوبي لإعلانات الجرائد، بإحالتها كلها إلى الحفظ... تمهيداً لسرقتها أو إحراقها (الجملة الأخيرة مني شخصياً، أنا خادمتك وخادمة الأستاذ فياض المطيعة، أسمهان. فالخبر الأخير بالإحالة إلى الحفظ همست به أنا في أذن الأستاذ صبحي).

عن الأستاذ فياض أقول إنه يذكرك بالخير، ليس في مناسبات كثيرة ولكن بين الحين والحين. كثر استدعاؤه هذه الأيام إلى الوزارة في العاصمة. وأنا أكتب هذه الكلمات إليك وهو غائب عنا عندكم. هناك من يقول إن صاحبه علي بك، هل تذكره؟ هو الذي يستدعيه وإنه أخذ وعداً بالانتقال من هنا، ليصبح ماذا؟... ليصبح معاون وزير! هل تصدّق هذا؟

إذا ألقيت هذا السؤال عليّ فإن جوابي يكون: أصدّق! في هذه الأيام هناك أساليب متعددة للانتقال من الحسن إلى الأحسن. أن يضايقهم الإنسان، كما فعلت أنت، فيتخلصون منه بترفيعه إلى مكان خير من الذي ضايقهم فيه لأنهم لا يجدون مجالاً لتنزيل

رتبته أو معاقبته. وهناك طريقة أخرى، وهي أن تسيء عملك في الموقع الذي أنت فيه، مع كونك مدعوماً في الوقت نفسه، وبما إنهم لا يملكون معاقبتك أو تسريحك فإنهم ينقلونك إلى موقع أعلى. وإذا زدت في الإساءة زادوا في إعلاء رتبتك. هل تعرف فلاناً الذي يمطرنا بأوامره صباح مساء ويتحكم في مصائرنا؟ اتّبع هذه الطريقة فارتفع من رئيس شعبة إلى مدير قطاع، إلى محافظ مدينة، إلى وإلى... حتى وصل إلى ما وصل إليه الآن. هنيئاً له ولأمير غزلان، ولفياض بك حين يصبح معاوناً للوزير.

هذه أسرار دولة لم أرد أن تعرفها سميرة، المواطنة البسيطة، من قراءة رسالتي إليك. كما قلت لها، أنت حر في أن تعرفها عن طريقك، وذنبك عندها على جنبك. قبّل وجنتيها عني. لا تنس أني قصّرت فلم أحملك القبلات إليها عينياً... أعني أني لم أبسك لا من شفتيك ولا على خديك. إضحك أنت وسميرة كما تشاءان، ولكن دلّني على الطريقة التي أنتقل بها إلى غوطة دمشق كما انتقلت أنت. الوصفات التي ذكرتها أنا أعلاه غير موجودة في صيدليتي المنزلية. فلا أنا سيئة الطباع ليتضايق الناس مني، ولا مدعومة لأسيء التصرف. ابحث لي عن طريقة أخرى. دمتما، سميرة العزيزة وشخصك الكريم، للمحبة لكما معاً

أسمهان

حاشية: الزيوت النباتية التي سينتجها معمل السيد أمير ممتازة. إنها بطعم السمنة العربية الصافية من دون أن تزيد في كولسترول الدم. ستقول إني بعد أن كتبت لك رسالة تنطق بتعقلي وسلامة محاكماتي ختمتها بهذيان إنسانة محمومة. إصبر عليّ لتفهم. منذ ثلاثة أيام، وفي غياب مديرنا العام، وزّع أمير غزلان على موظفي

المديرية علب الزيت النباتي عال العال الذي سينتجه معمله في منتصف السنة القادمة، إن شاء الله وأبقانا وأبقى السيد أمير غزلان. لما سألناه كيف يوزع علينا إنتاج معمل لم يعمل بعد، أجابنا بأن الشركة التي تبني مصنعه تنتج هذا الزيت مصانعها الخاصة وقد أرسلت إليه نموذجاً هذه العلب، وبأنه وجد من واجبه أن يوزعها علينا نحن جيرانه والمتفضلين عليه بإحباط المؤامرات التي دبرت ضده لنسف معمله. هل أعجبك هذا الكلام؟ إذا لم يعجبك فاذهب واشرب البحر، أنت وكل من يفكر تفكيرك وينضم إلى صفك ويحارب طواحين الهواء مثلما حاربها قبلكم دون كيشوت. لا بد أنك تعرف دون كيشوت. سلامات.

من أسمهان

- ٤ -

من المهندس الزراعي أنور إلى الأستاذ صبحي زيدان

عمي ومعلمي العزيز أبا منير،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

كم كنت مسروراً يا معلمي بتلقي رسالتك، على الرغم مما حملته لي من أخبار تغمّ الصدر. المهم عندي الآن، وأنا بعيد عنكم، أن أعرف أنك شخصياً بخير وصحة جيدة. كان يمكن أن يكون تأثري أكبر بهذا الذي عملوه بنا لولا أني تلقيت في الوقت ذاته رسالة من صديقنا الأستاذ شكيب مجد الدين بسط لي فيها جوانب من فلسفته في ممارسة الحياة في هذه الأيام، وضرب لي أمثالاً جعلتني أحمد الله على أن الأمور وقفت بنا، أنت وأنا، عند هذا الحد. شيء واحد أستحي منه في نفسي. ذلك حين أجدني قد تعوضت من خيبة أملي والإحباط الذي نالني بعودتي إلى أهلي في

مكان هو الجنة بالنسبة للمركز رقم ٦، بينما بقيت أنت في بيئتك القاسية تعاني من الغبار في الصيف والخريف ومن البرد والأوحال في الشتاء والربيع، ومن رؤية وجه أمير غزلان بين الحين والحين فوق ذلك. يقول الشاعر الذي اسمه المتنبي:

واحتمال الأذى ورؤية جا نيه غذاء تضوى به الأجسام

ولكنني أعرف أن عندك من قوة الأعصاب ما يجعلك ترتفع فوق تفاهات هذا الرجل البغيض وأمثاله قانعاً برضى ضميرك وحبك للحق وإخلاصك للمصلحة العامة.

ها تراني أصبحت كذلك فيلسوفاً، مثل الأستاذ شكيب الذي سكب على غيظي ماء بنصائحه وملاحظاته، فنسيت أن أسألك عن حالة امرأة عمي أم منير وكيف صحتها. بلغها، أرجوك، تحياتي وشكري مع محبة سميرة لها، إذ حدثتها عنها مطوّلاً.

قلت لك إن مكاني في المحطة التجريبية رقم ٤ في غوطة دمشق هو الجنة. ولكن لا تظن أنه ينسيني الأيام التي قضيتها إلى جانبك وبين الناس الطيبين من زملائي الموظفين وعمال الرحبة والآليات. تلقيت من المعلم شاهين رسالة قصيرة ولكنها تفيض محبة، حررها معه سائق سيارتي سليمان الذي قلّ أن تولى قيادتها. كنت أوفر عليه ذلك حين كنت أسوقها بنفسي. بلغهما تحيتي وسلامي وإن كنت رددت عليهما برسالة شكر. أما الآنسة أسمهان، فإنها أيضاً لم تخلني من مكاتيبها ومن المعلومات الثمينة التي تسوقها إليّ فيها. ثمينة، ولكنها لا تخلو مما يزعج. مرة أخرى علينا أن نحمد الله، فماذا يمكننا أن نفعل أنا وأنت؟ ومرة أخرى أريد أن أستشهد لك ببيت شعر أحفظه منذ زمن طويل، وفيه يقول أبو العلاء المعري:

غلب المين منذ كان على الخـ ـلق وماتت بغيظها الحكماء

المَيْن أطال الله عمرك هو الكذب والنفاق والظلم، مما يتصف به أمير غزلان وعلي بك ومن يلوذ بهما، وأظن فياض بك بين اللائذين. ومن حسن الحظ أننا لسنا حكماء بالقدر الذي يجعلنا نموت من الغيظ مما نرى ومما فعلوه بنا وبأمثالنا. ما علينا إذن إلا أن نستسلم لماخلقت عليه الدنيا منذ الأزل، وفي هذا الزمن أكثر من كل زمن.

أكثرت لك من الشكوى وكان عليّ أن لا أفعل. أرجو أن تثق من أني أشعر بأني لا أزال أعيش إلى جانبك على الرغم من مرور أسابيع على افتراقنا. ستجدني ذات يوم عندك، مجرد زائر يريد أن يكحّل عينه برؤية الدرب الفرعي الذي اخترعه للسياد معلمنا الأستاذ فياض. لم يصبح المذكور معاوناً للوزير بعد، غير أن الشائعات التي ترشحه لذلك تزداد قوة. عن السياد تقول الحكاية الشعبية إن الله جلّ وعلا إذا شاء أن يسوق الفرح إلى قلب الفقير جعله يضيع حماره في اليوم الأول ثم يجعله يعثر عليه في اليوم التالي.... أليس هذا ما جرى لهؤلاء البؤساء؟ وأين يجد سبحانه بين عباده أفقر من السيّاد؟ أستغفر الله العظيم وأتوب إليه.

أنتظر رداً قريباً على رسالتي، وآمل أن تحمل لي الأخبار الطيبة عن خالتي أم منير وعنك. واسلم.

لتلميذك ومريدك وابن أخيك

أنور

انتهى

كتب صدرت للمؤلف

١ - **بنت الساحرة** - قصص - دار مجلة الأديب - بيروت، ١٩٤٨.

٢ - **الليالي والنجوم** - شعر - دار مجلة الأديب - بيروت، ١٩٥١.

٣ - **ساعة الملازم** - قصص - دار العلم للملايين - بيروت، ١٩٥١.

٤ - **حكايات من الرحلات** - دار المعارف بمصر - القاهرة، ١٩٥٤.

٥ - **قناديل إشبيلية** - قصص - دار الآداب - بيروت، ١٩٥٦.

٦ - **الحب والنفس** - قصص - دار الآداب - بيروت، ١٩٥٩.

٧ - **باسمة بين الدموع** - رواية - المكتب التجاري بيروت، ١٩٥٩.

٨ - **الخائن** - قصص - دار الطليعة - بيروت، ١٩٦٠.

٩ - **رصيف العذراء السوداء** - قصص - دار الطليعة - بيروت، ١٩٦٠

١٠ - **المقامات** - إصدار خاص - ١٩٦٣.

١١ - **دعوة إلى السفر** - دار عويدات - بيروت، ١٩٦٣.

١٢ - **الخيل والنساء** - قصص - دار الآداب - بيروت، ١٩٦٥.

١٣ - **أحاديث العشيات** - محاضرات - وزارة الثقافة العربية - دمشق، ١٩٦٥.

١٤ - **أشياء شخصية** - دار صحافيا - بيروت، ١٩٦٨.

١٥ - **فارس مدينة القنطرة** - قصص - دار الآداب - بيروت، ١٩٧١.

١٦ - **حكاية مجانين** - قصص - دار العودة - بيروت، ١٩٧٢.

١٧ - **السيف والتابوت** - محاضرات - وزارة الثقافة السورية - دمشق، ١٩٧٤.

١٨ - **قلوب على الأسلاك** - رواية - الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٧٤.

١٩ - **ألوان الحب الثلاثة** (بالاشتراك مع أنور قصباتي) - دار العودة/ الكندي، ١٩٧٥.

٢٠ - **أزاهير تشرين المدماة** - رواية - وزارة الثقافة السورية - دمشق، ١٩٧٧.

٢١ - **عيادة في الريف** - مقالات - وزارة الثقافة السورية - دمشق، ١٩٧٨.

٢٢ ـ **سبعون دقيقة حكايات** ـ محاضرات ـ دار الكاتب العربي، ١٩٧٨.

٢٣ ـ **المغموررون** ـ رواية ـ دار الشرق العربي ـ بيروت، ١٩٧٩.

٢٤ ـ **الحب الحزين** ـ دار الشرق العربي ـ بيروت، ١٩٧٩.

٢٥ ـ **وجوه الراحلين** ـ دار مجلة الثقافة ـ دمشق، ١٩٨٢.

٢٦ ـ **في كل واد عصا** ـ مقالات ـ دار الحوار ـ اللاذقية، ١٩٨٤.

٢٧ ـ **حكايات طبية** ـ دار الشرق العربي ـ بيروت، ١٩٨٦.

٢٨ ـ **فصول أبي البهاء** ـ قصص ـ دار طلاس ـ دمشق، ١٩٨٦.

٢٩ ـ **حفنة من الذكريات** ـ محاضرات ـ دار طلاس، دمشق، ١٩٨٧.

٣٠ ـ **موت الحبيبة** ـ قصص ـ دار طلاس ـ دمشق، ١٩٨٧.

٣١ ـ **جيل الدربكة** ـ مقالات ـ رياض الريّس للكتب والنشر ـ بيروت، لندن، ١٩٩٠.

٣٢ ـ **فلسطينيات عبد السلام العجيلي** ـ دار فلسطين ـ دمشق، ١٩٩٤.

٣٣ ـ **محطات من الحياة** ـ محاضرات ـ وزارة الثقافة السورية ـ دمشق، ١٩٩٥.

٣٤ ـ **مجهولة على الطريق** ـ قصص ـ رياض الريّس للكتب والنشر ـ بيروت، لبنان، ١٩٩٧.

٣٥ ـ **ادفع بالتي هي أحسن** ـ مقالات ـ رياض الريّس للكتب والنشر ـ بيروت، لبنان، ١٩٩٧.

٣٦ ـ **أحاديث الطبيب** ـ مقالات ـ دار عطية ـ بيروت ـ لبنان ١٩٩٧.

٣٧ ـ **خواطر مسافر** ـ مقالات ـ دار الأهالي ـ دمشق ١٩٩٧.

عبد السلام العجيلي

أرض السيّاد

من خلال قصة مهندس دمشقي يعيّن موظفاً في أحد المراكز الريفية النائية، تدور عجلة أحداث هذه الرواية «أرض السيّاد».

من هم السيّاد؟ وما حكاية أرضهم؟ وماذا عن علاقة الحاضر بالماضي: الماكنات الزراعية العملاقة والقلاع الأثرية والبيوت القديمة وأهواء جيل اليوم؟

وهكذا يصحب الدكتور عبد السلام العجيلي في هذه الرواية، القراء في رحلتين، واحدة مكانية بين دمشق وحلب والأرياف البعيدة، وواحدة نفسية تذهب إلى أعماق الشخصيات فتلمس النوازع من طمع ونبل، وتتحرى الشهوات في همس وصراخ.



